الدكتور أحمد فخرى

دراسات فى تاريخ الشرق القديم

مصر والعراق - سوريا - اليمن - إيران

مختارات من الوثائق التاريخية





دراسات في تاريخ الشرق القديم

مصر والعراق - سوريا - اليمن - إيران

مختارات من الوثائق التاريخية

تأليف

أحمد فخري

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانيـــة

(مزيدة ومجددة)

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)



مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله والحمد لله وبعد :

فهذه هى الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، فقد نفذت منذ شهور نسخ الطبعة الأولى ، وليست هذه الطبعة صورة مما كانت قبلها ، وإنما تختلف عنها بالحذف والإضافة والتعديل ، وإن كانت بعض الفصول ظلت كما هى تقريباً .

لقد مضت خمس سنوات تقريباً على ظهور الطبعة الأولى ، زادت فيها معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم ، وصدرت بعض المؤلفات الجديدة ، ولهذا كان من الضرورى إدخال بعض التعديلات فى مواضع كثيرة ، وإن كان الكتاب قد احتفظ بشكل عام بموضوعاته الأصلية ، وهو المقارنة بين سير حوادث التاريخ فى كل من مصر والعراق ، ثم مختصر تاريخ كل من سوريا واليمن .

وكان آخر فصل من فصول الطبعة الأولى خاصاً بإيران فى أقدم العصور ، ولكنى أضفت فى هذه الطبعة فصلا خاصاً بالأخمينيين ، أى ابتديت بتاريخ إيران حتى ظهور الإسكندر الأكبر ، كما أضفت فى آخر الكتاب فصلا خاصاً ترجمت فيه ترجمة حرفية دقيقة بعض الوثائق التاريخية الهامة ، ليقف القارئ على تلك الوثائق بأسلوب كاتبيها وتفكيرهم ، ومن بينها وثائق أكدية وأشورية وحيثية ، تتناول الصلة بين بلاد الشرق القديم فى بعض العهود .

وإنى أرجو أن تسد هذه الطبعة شيئاً من الفراغ حتى يتيسر لى بمشيئة الله تحقيق رغبة قوية فى نفسى ، وهى الانتهاء من مؤلف مفصل عن حضارات الشرق القديم ، بدأته منذ عامين ولكنه ما زال يحتاج إلى عدة أعوام أخرى .

إن دراسة حضارات الشرق القديم من أهم الدراسات التى تساعد على تثقيف جميع الطلبة بوجه عام ، لا طلبة التاريخ فحسب ، أو طلبة كليات الآداب بوجه

عام ، وإنما جميع طلبة الجامعات ، فهم جميعاً فى حاجة إلى الثقافة العامة ، وليس هناك ما هو أهم من معرفة نشأة الحضارات وتطورها ، وكانت بلاد الشرق القديم أهم الميادين التى حدث فيها ذلك التطور .

لقد سبقتنا الجامعات الأجنبية كثيراً فى اهتمامها بدراسة حضارات الشرق وجعلتها مادة أساسية فى جميع الجامعات المهتمة بالدراسات الإنسانية ، ولكن جامعاتنا مع الأسف الشديد لا تكاد تلقى نظرة إليها ، وقصرت دراستها على فصل دراسى واحد ، أى لمدة أسابيع قليلة ، وفى أقسام قليلة من أقسام كليات الآداب ، ولا حاجة إلى القول بأن ذلك لا يمكن أن يقال عنه أنه كاف ، أو أنه يفيد الفائدة المرجوة .

إن دراسة حضارات الشرق القديم يجب أن تكون من المواد الأساسية فى جميع المعاهد والجامعات بالبلاد العربية ، لأن تلك الحضارات كلها وما خلفته من آثار ، إنما هى تراث مشترك بينها جميعاً ، ويحسن بالطلبة أن يبدأوا بدراستها دراسة إجمالية ، ثم يتعمق طلبة كل إقليم فى دراسة حضارة إقليمهم بالتفصيل إذا أرادوا المزيد ، وأرجو أن يتحقق ذلك إن شاء الله .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

القاهرة فى يوم ١٠ من سبتمبر ١٩٦٣

أحمد فخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

ليست هذه الفصول سرداً لتاريخ الحضارات فى الشرق الأدنى القديم ، وليست تاريخاً أو تحليلا لبعض النواحى الحضارية فيه أو فى بعض بلاده ، ولكنها عرض لبعض نواحى الموضوع ، وتقديم بعض الآراء والمعلومات التى أظهرتها البحوث الحديثة ولا شىء أكثر من ذلك . وسيكون أول الفصول عرضاً عاما لنشأة الحضارات ومراكز الحضارات القديمة فى بلاد الشرق ، وسيتناول الفصل الثانى بعض المقارنات بين حضارتى مصر وبلاد ما بين النهرين وسير الحضارة فى كل منهما وأثرها على غيرها من بلاد الشرق ، أما الفصلان الثالث والرابع فسيكونان عن سوريا بحدودها التاريخية وتشمل الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة . والفصلان الخامس والسادس سيكونان عن اليمن ، وذلك لحاجتنا فى الوقت الحاضر إلى معرفة شىء عن أثر كل من هذين الإقليمين على حضارة الشرق وعلى مدنيات العالم .

وإنى أول من يعرف أن تقسيم فصول الكتاب على هذا الأساس سوف لا يترك وقتا أو مجالا للحديث بالتفصيل عن حضارات مصر والعراق وإيران والأناضول وغيرها من بلاد الشرق القديم ، ولكن يعزينا عن ذلك أن حضارات هذه البلاد معروفة فى مدارسنا أكثر من حضارتى سوريا واليمن ، وتحتم علينا ظروفنا الحالية بعد انضمام هذين الإقليمين إلى مصر وتكوينهما اتحاداً واحداً أن نعرف بعض التفاصيل القليلة عن كل منهما ومدى ما قدمه أبناؤه إلى حضارة العالم وبجهود كل منهما فى تشييد صرح المدنية الإنسانية .

وهناك نقطة هامة أحب توضيحها . فالمتعارف عليه بين المؤرخين هو انتهاء التاريخ القديم عند ظهور الإسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد ،

وسألتزم ذلك من ناحية المبدأ فإذا أشرت من قريب أو بعيد إلى عصور أو حوادث جرت فى أيام اليونان أو الرومان أو عندما انتشرت المسيحية أو الإسلام فلن يكون ذلك إلا عرضا أو للمقارنة فقط ، اللهم إلا فيما يتعلق بإقليم واحد وهو اليمن فإنى سأتحدث عن تاريخه منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام لأن طبيعة دراسة تاريخه وحضارته تحتمان ذلك .

ويكاد يكون هذان الفصلان عن اليمن صورة من بعض ما نشرته فى الجزء التاريخى فى كتابى « اليمن — ماضيها وحاضرها » الذى نشر بالقاهرة فى العام الماضى ، ولكنى أضفت إليه بعض المراجع الحديثة وأدخلت عليه بعض التعديلات .

وإنى إذ أقدم اليوم هذه الدراسات عن بعض النواحى فى تاريخ الشرق القديم أرجو أن أكون قد قمت ببعض الواجب علىّ .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق ،

القاهرة فى يوم ٨ جمادى الأولى ١٣٧٨ هـ ١٩ نوفمبر ١٩٥٨ م

أحمد فخرى

موضوعات الكتاب

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل الأول

أقدم الحضارات فى بلاد الشرق القديم

أصل الحضارة ونشأتها :

أخذ الإنسان يتدرج فى الحضارة منذ زمن بعيد ، وأخذ ينتقل خطوة بعد أخرى حتى وصل إلى تحقيق كثير من الاختراعات التى ساعدته على توفير الراحة والأمن لنفسه ، ومكنته أيضا من التغلب على كثير من الصعوبات ، بل والأخطار التى كانت تحدق به فى حياته البدائية الأولى .

وليست قصة أصل الحضارة الإنسانية ، ثم مولدها وتطورها ، إلا سلسلة متعاقبة ، بدأت فى هذا الجزء من العالم الذى اصطلح العلماء على تسميته باسم بلاد الشرق الأدنى . فإن اعتدال الجو ، وملاءمة مناطقه المختلفة لحياة الاستقرار ، مكنت الناس من الوصول إلى بعض أسباب التقدم وجعلتهم يتقدمون فى بعض مراحل الثقافة ، وبالأخص عندما خلف الإنسان وراءه حياته كجامع للغذاء ، وأصبح منتجا له ، وأخذت تستقر جماعات منه على مقربة من موارد المياه يزرعون الأرض ويستأنسون بعض الحيوان[1] .

ولكن هذا الإنسان لم يقف عند ذلك الحد بل أخذ يفكر فى تسخير بعض قوى الطبيعة لراحته ورفاهيته ، ثم وجدت غريزة الحرص والاستزادة سبيلها إلى نفسه ، فبدأ صراعه مع غيره من جيرانه ، فكان ذلك أيضا عاملا جديدا فى تقدمه .

---

(١) V. Gordon Childe, *New Light on the Most Ancient East* (*4 th edition, 1952*) *p. 31 ff.*

وبالرغم من أن هذا البحث لا يتعرض لأصل حضارات الشرق بل يعنى فقط بنشأتها وتطور بعضها ، فإنه يجدر بنا أن نشير إشارة عابرة إلى ما مر على الأرض من دهور جيولوجية قبل أن نصل إلى العصر النيوليتى الذى أخذ فيه الإنسان يتقدم بخطى سريعة نحو المدنية .

عصور ما قبل التاريخ :

يقسم علماء الجيولوجيا سطح الأرض إلى أربعة دهور كان آخرها هو الدهر الرابع الذى يسمى الجزء الأقدم فيه بالحقبة البليستوسينية ، ونرى الطبقات الباليوليتيه (أى العصر الحجرى القديم) فى الطبقات البليستوسينية فى جميع البلاد الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط . وبعبارة أخرى يتفق العصر الحجرى القديم مع بعض فترات العصر الجليدى الأعظم ، ذلك العصر الذى بدأت تظهر فيه أقدم الأدوات الظرانية (المصنوعة من حجر الصوان) التى استخدمها الإنسان فى حياته .

وينقسم العصر الباليوليتى إلى عدة حقب مثل الشلى والأشيولى والقفصى (وتعاصره الحقبة السبيلية فى مصر) ، ثم تلى العصر الباليوليتى فترة ، تسمى بالعصر الميزوليتى (أى الحجرى المتوسط) ، وأخيرا جاء العصر النيوليتى الذى تطورت فيه الحضارة الإنسانية تطورا سريعا ثم تلاه العصر التاريخى[1] .

وكثيرا ما يتساءل الناس عن بدء ظهور الإنسان على الأرض ، وقد اختلفت التقديرات عند الإجابة على هذا السؤال ولكن الرأى الأرجح و أن الإنسان ظهر على الأرض منذ أكثر من نصف مليون سنة ، وقد عثر على أقدم البقايا الإنسانية التى تثبت وجود ذلك الإنسان ، وإلى حد كبير تعطينا شكل

---

(١) عرض الدكتور بريد وود تاريخ الإنسان فى عصر ما قبل التاريخ عرضاً مبسطاً فى كتابه Robert J. Braidwood, *Prehistoric Times* (2nd edition, 1951) . ويمكن الرجوع إليه.

جمجمته وقامته ، فى جاوة ثم فى الصين على مقربة من بكين ، وفى جنوب شرق إفريقيا وربما فى شمال إفريقيا ، وأخيرا فى هيدلبرج فى ألمانيا . ولم يوجد حتى الآن فى بلد من بلاد الشرق القديم ابتداء من الهند شرقا حتى مصر أى بقايا إنسانية للإنسان الذى سكن تلك المناطق ويمكننا أن نقول عنه أنه كان معاصرا لإنسان بكين أو جاوة أو هيدلبرج .

والواقع أن فحص جماجم تلك البقايا من الهياكل العظمية ، وكذلك إنسان النياندرتال الذى يقل عنها فى القدم ، قد أثبت أنها تختلف اختلافا كبيرا عن إنسان العصر الحديث . أما أقرب الأنواع إلى شكل الإنسان الحديث ، كما نعرفه ، فقد عثر عليه فى مناطق متعددة فى أوروبا ، وبخاصة فى ألمانيا وفرنسا ، والنوع الآخر عثر عليه فى فلسطين وكان يعيش فى كهوف جبل الكرمل فى وقت معاصر — على الأرجح — للوقت الذى كان يعيش فيه إنسان النياندرتال فى أوروبا . وأقدم جمجمة إنسانية ، عثر عليها حتى الآن ، كانت فى فلسطين وجدها الباحثون فى مغارة الطابون ، وهى من العصر الموستيرى ، كما عثر حديثا فى العراق على هيكلين إنسانيين من هذا العصر (فى مغارة شانيدر ٥٠,٠٠٠ — ٦٠,٠٠٠ سنة)[١] . وكان ذلك الإنسان الذى عثر عليه فى فلسطين قريب الشبه من إنسان النياندرتال ، كان قصير القامة ملىء الجسم ، وينحنى قليلا إلى الأمام عند سيره ، ويمتاز عن إنسان النياندرتال بأن جمجمته أكبر حجما وذقنه أعرض . وقد اتفق الباحثون على أن الإنسان الذى عاش على مقربة من كهف الطابون فى جبل الكرمل بفلسطين كان حلقة بين الإنسان البدائى والإنسان الحالى ، خصوصاً وأنه يمكن مقارنة هذا الإنسان أيضاً من الناحية التشريحية بما نسميه الآن الإنسان العاقل .

وإذا أردنا تحديد العصر الذى انتشر فيه كل من إنسان النياندرتال والكرمل على سطح الأرض ، فإنه لا يمكن أن يجرؤ باحث على تحديد وقت معين ولكنه

---

(١) رالف سوليكى — هيكلان عظميان لإنسان النياندرتال من كهف شانيدر بمجلة سومر العدد ١٣ (بغداد ١٩٥٧) ص ٩٧ — ١٠٠ .

كان منذ ١٠٠,٠٠٠ سنة على الأقل ، أما الإنسان الحالى فإنه لم يظهر إلا بعد ٥٠,٠٠٠ سنة قبل الآن[١] .

ولنترك الآن تلك العصور المبكرة جانبا ، ونبدأ محاولتنا معرفة ما كانت عليه بلاد الشرق القديم بعد الوقت الذى أخذ يتراجع فيه الجليد نحو الشمال . لقد مر على تلك المنطقة الكبيرة من العالم عصر طويل كانت تهطل فيه الأمطار بكثرة ، فكانت الحشائش تغطى صحاراه الواسعة . وتجمعت مياه الأمطار فى كثير من منخفضات تلك الصحارى فجعلت منها بحيرات ، كما كانت تلك الوديان الكثيرة المنتشرة فى الصحارى مجارى أنهار تصب فى البحيرات أو فى البحار أو فى أنهار أخرى .

ولم يكن نهر النيل يصل إلى البحر الأبيض المتوسط فى المكان الذى يصل إليه الآن ، وإنما كان يصب فى جون أو خليج كبير ، كانت نهايته الجنوبية على مقربة من موقع القاهرة الحالية . ثم أخذ النيل يملأ هذا الجون بالطمى والرواسب المختلفة التى تجلبها مياهه فكون على مر بضعة آلاف من السنين دلتاه الحالية . ولم تتكون الدلتا بطبيعة الحال وتصبح أراضى صالحة للزراعة إلا بعد وقت طويل ، لأنها كانت فى البداية ملأى بالمستنقعات والجزر . ولم يكن مجرى النيل أيضاً فى مستواه الحالى بل كان أعلى من ذلك بكثير ويملأ ما بين الهضبتين الشرقية والغربية فى الصعيد ، ثم أخذ يعمق مجراه وينزل من مدرج إلى مدرج حتى أصبح قريبا مما هو عليه الآن ، قبل أن تدخل مصر فى عصرها التاريخى[٢] .

---

(١) Theodore D. Mc. Cown and Arthur Keith, *The Stone Age of Mount Carmel, Vol. II. (Oxford, 1939), Chapter 2;* Ernest Hooton, *Up from Ape (New York, 1936), pp.* 336-9.

(٢) اقرأ أيضاً ما كتبه عن ذلك بريدوود فى كتابه السابق ذكره وخاصة من صفحة ٢١ الى ٢٨ ، ومنذ ٢٠,٠٠٠ سنة كان الإنسان قد أخذ ينقسم الى أنواع مختلفة لكل منها مميزاتها وهى الأسود والأبيض والقوقازى والأصفر ، وربما الأوسترالى . وأن بعضهم قد وصل الى القارة الأمريكية قبل ٢٠,٠٠٠ سنة من الآن ، عن طريق سيبريا والاسكا .

وكان يحدث فى العراق فى تلك الفترة شىء شبيه بما كان يحدث فى وادى النيل . فقد كان نهرا الدجلة والفرات يصبان فى الخليج العربى فى مكان بعيد إلى الشمال من الشاطىء الحالى . وأخذ الجزء الأعلى من ذلك الخليج يمتلىء بالطمى ويكون أرضا ملأى بالمستنقعات والجزر كما حدث فى دلتا النيل فى مصر ، وأخذت تلك المناطق تتحول إلى أرض صلبة مع تقدم الأيام وما زالت إلى اليوم تتقدم نحو الجنوب من عام إلى عام .

حدث ذلك أيضاً فى دلتا نهر السند حيث أخذت إحدى حضارات بلاد الشرق القديم تنمو وتتطور . كما ساعدت الأمطار الغزيرة على تكوين غابات وأحراش وبحيرات فى مناطق عدة فى بلاد الشرق ، وكان وجودها سبباً فى تمكين بعض الجماعات من العيش على مقربة منها وبخاصة عند الموارد الثابتة للمياه ، مثل البحيرات العذبة التى كانت تغذيها الأمطار الكثيرة . ثم أخذت الأمطار الغزيرة تقل تدريجيا ، وجاءت فترة من الجفاف عمت تلك المنطقة ، منطقة الشرق الأدنى ، فكانت تلك الفترة سبباً مباشراً فى تطور حياة الإنسان .

كان الإنسان يعيش على الصيد ، وما يجده فى الغابة أو فى الأحراش من نبات يقتات به ، وإذا كان هناك ما يعكر عليه صفوه فهو وجود بعض الحيوانات المفترسة أو الزواحف التى كان يبذل جهده لحماية نفسه من أذاها ، والتغلب عليها إذا اضطر لمواجهتها . أما الحياة ذاتها فقد كانت سهلة لأن حرارة الجو سهلت له معضلة ضرورة إقامة مسكن يلجأ إليه ، لأنه لم يتعرض لقسوة البرد ، وكان يكفيه أن يتدثر بجلود ما يصطاد من حيوانات إذا ما جاء فصل الشتاء . كما أن حياة البداوة التى كان يعيشها ، واضطراره لمتابعة وملاحقة فريسته ، لم تشجعه على التفكير فى الاستقرار فى مكان ثابت دائم له ولعائلته .

وما هى إلا دورة من دورات الزمن حتى أخذت الغابات تجف ثم تزول ، وأخذت النهيرات تتحول إلى وديان جافة ، كما بدأت البحيرات الصغيرة تجف أيضاً فلجأت الجماعات التى كانت تعيش على مقربة منها فى البحث عن مصادر ثابتة للمياه ،

سواء على مقربة من البحيرات الكبيرة أو على مقربة من الأنهار التى استمرت فى جريانها . حدث ذلك حوالى عام ١٢٠٠٠ ق.م. على الأقل ، ومنذ هذا التاريخ يعنينا تتبع مراحل وجود الإنسان الذى اضطرته الظروف الطبيعية لبذل الكثير من الجهد ليلائم نفسه مع البيئة والأحوال الجديدة .

لم تصبح حياته سهلة كما كانت من قبل ، إذ كانت المستنقعات والأحراش والغابات القريبة من النهر ملأى بالزواحف والحيوانات الضارية التى لجأت هى الأخرى إليها فراراً من الهلاك . فأخذ الإنسان يخافها أكثر من ذى قبل ، وأخذ ذهنه يتفتق عن حيل جديدة وأدوات جديدة تساعده فى التغلب عليها والدفاع عن نفسه عند الحاجة .

وبعد وقت آخر ، أخذ الإنسان فى محاولة استئناس بعض الحيوانات لأنه لم يعد يكفيه ما يحصل عليه من الصيد ، ونجح فى استئناس بعضها وبخاصة ما كانت لحومها وألبانها وجلودها وأصوافها ذات نفع له . وفى هذه الفترة أيضاً اكتشف الإنسان ما هو أهم من استئناس الحيوان ، وهو اكتشافه للزراعة ، وكان ذلك فى العصر التالى للعصر الحجرى القديم .

ومهما حاولنا فليس فى الاستطاعة أن نعرف أيهما حدث قبل الآخر . فهل بدأ الإنسان فى استئناس الحيوان بعد اكتشافه للزراعة واستقراره فى بقعة من الأرض لحاجته إليها فى زراعته وقوته ، أم أنه استأنس الحيوان عندما كان يعيش على الصيد ، ولم يصبح زارعاً إلا بعد أن مرت عليه فترة من الزمن كان يعيش فيها حياة الرعاة ؟

وربما نجح الباحثون فى الإجابة على هذا السؤال فى مستقبل الأيام ، أما الآن ، وفى ضوء ما لدينا من معلومات ، فإن أقدم ما وصل إلى أيدينا من معلومات من أكثر أرجاء بلاد الشرق عن آثار الجماعات التى عثر على بقايا مساكن لها ، يدلنا على أن تلك الجماعات كانت تمارس الزراعة وتستأنس الحيوانات فى وقت واحد ، كما أنها كانت فى الوقت ذاته تعتمد أيضاً على الصيد ، ولم تتركه نهائياً كأحد موارد غذائها .

كان انتقال الإنسان من مرحلة جمع الغذاء إلى مرحلة إنتاجه بدء تطور حياته وتقدمها على ظهر الأرض . وما زال الباحثون فى حيرة من أمرهم لا يستطيعون تحديد المكان الذى بدأت فيه تلك التطورات قبل غيره من الأمكنة ، أو يعرفوا الجنس الذى سبق غيره فى مراحل التقدم ، أو الزمن الذى تم فيه ذلك على وجه التحديد ، لأن أقدم المراكز والحلات النيوليتية (العصر الحجرى الحديث) التى عثر عليها حتى الآن لم تساعد على حل تلك المعضلات ، إذ أن ما خلفه الإنسان فى أى واحدة منها يثبت قدم عهد سكانها بالزراعة ومرور أجيال طويلة عليهم كمنتجين للغذاء . ولكن إذا قارناها ببعضها نستطيع أن نقول أنه من المرجح جدا أن تكون أقدمها جميعا هى تلك الحضارة التى عثر عليها فى فلسطين ويطلق عليها علماء الآثار اسم الحضارة الناطوفية .

حدود بلاد الشرق القديم :

ولكن ما هو المقصود من كلمة الشرق القديم وما هى حدوده الجغرافية ، وأى البلاد والأمم تنطوى الآن أو انطوت فى العصور القديمة تحت لوائه .

ففى رأى بعض الباحثين أن المقصود بذلك هى بلاد الشرق الأدنى فقط أى مصر وبلاد الشام وبلاد العرب والعراق . وزاد البعض الآخر عليها بلاد الأناضول وإيران ، وبالغ غيرهم فاعتبر حضارات الشرق القديم شاملة لجميع البلاد السالفة الذكر ويزيد عليها حضارات الشرق الأقصى وبخاصة الصين والهند .

ولكن إذا دققنا فى التفكير ، ووضعنا فى أذهاننا صلة تلك الحضارات ببعضها البعض وأثر كل واحدة منها على الأخرى ، ونظرنا إلى خريطة هذا الجزء من العالم وتتبعنا الطرق والدروب والمسالك التى سارت فيها التجارة ، وعليها انتقلت أيضا الثقافة ، فإننا نجد أن كلا من النظريات الثلاثة فى تحديد بلاد الشرق فى حاجة إلى شىء من التعديل . كما أننا لا يمكن أن نقتصر فقط على المنطقة التى سماها المؤرخ « برستد » باسم الهلال الخصيب ، وهى المنطقة الخصبة التى تشبه الهلال

ويرتكز طرفها الأيسر فى دلتا النيل وطرفها الأيمن فى دلتا نهرى دجلة والفرات وتواجه منتصفها شبه الجزيرة العربية .

فبلاد الشرق القديم ، فى رأى الكثيرين ، تشمل دون شك جميع بلاد الهلال الخصيب ولكنها يجب أيضا أن تشمل ما يتصل بها من حضارات مثل الحضارة الحيثية (الأناضول) ، وبلاد الجزيرة العربية . ولكننا إذا رجعنا إلى حوادث التاريخ ودرسنا أقدم الحضارات وبخاصة ما ازدهر منها قبل عام ٢٠٠٠ ق ٠ م ٠ نرى أن حضارة وادى السند (الباكستان الغربية) كانت وطيدة الصلة بحضارة العراق القديم ، وكانت الصلات التجارية وبخاصة عن طريق البحر ، قديمة العهد بينهما . وإذا كانت تلك الحضارة قد اتصلت بالجناح الشرقى من الهلال الخصيب ، فإن هناك حضارة أخرى لم تكن بمعزل عن حضارات الجناح الغربى من هذا الهلال ، وهى حضارة جزر بحر إيجه التى كانت شديدة الصلة بسوريا والأناضول فى جميع عصور التاريخ ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى شمال إفريقيا التى لم تفقد صلتها بوادى النيل فى أى زمن من الأزمان .

وهناك أيضا حضارة الصين ، ولكن لم يقم حتى الآن دليل مقنع واحد على اعتبارها فرعا من دوحة حضارات الشرق الأدنى ، بل هى حضارة قائمة بذاتها . كما أنه لا يمكننا أن نعتبر الحضارة الإيجية ، رغم كونها إحدى الحضارات الرئيسية فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت ذات صلة مباشرة وثيقة بحضارات شمالى سوريا والأناضول من بين حضارات الشرق القديم ، وعلى ذلك يمكننا تحديد أقدم مراكز الحضارات الهامة فى الشرق كالآتى :

١ — وادى النيل — وهى حضارة لا تقتصر على حدود مصر الجغرافية بل تتعداها غربا إلى جزء كبير من شمال إفريقيا وجنوبا حتى سنار فى السودان .

٢ — بلاد العراق ، أو وادى الرافدين ، أو بلاد ما بين النهرين — بما فيها حضارات سومر وأكد وبابل وأشور ، وغيرها التى ظهرت إلى الشمال منها ، مثل الجوتيين والكاسيين والحريين والمتانيين .

٣ — بلاد الشام أو سوريا — بحدودها الطبيعية ، بل والتاريخية ، وتمتد من صحراء العراق حتى البحر الأبيض ومن جبال طوروس فى الشمال حتى شبه جزيرة سيناء فى الجنوب .

٤ — خيتا — أى بلاد الأناضول .

٥ — إيران .

٦ — الجزيرة العربية — وتشمل ما كان فيها من حضارات ما قبل الإسلام مثل حضارات السبأيين والمعينيين والحميريين فى اليمن ، والثموديين واللحيانيين فى شمالى الجزيرة . .

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على خرائط تلك المنطقة التى توضح معالمها ، لرأينا أنها تختلف اختلافاً كبيراً فى طبيعة أراضيها . فمنها ما يعتمد اعتماداً كاملا على الأنهار مثل مصر والعراق ، ومنها ما هو جبلى ، ولكن تكثر فيها أيضاً أرض الحشائش . وتتخلل بعضها الصحارى الواسعة التى تكاد تنعدم فيها مقومات الحياة، بينما تعتمد بعض تلك المناطق على ما يسقط فيها من أمطار ، كما نرى أيضاً أن بعضها يعتمد على البحر فى رفاهيته ومقومات حياته .

وما زال بعض الكتاب يرددون النظرية القديمة التى كانت تقول بأن الحضارات لا تنشأ إلا فى البلاد المعتدلة الجو وعند دلتا الأنهار ، مثل مصر والعراق والبنجاب (وادى السند) ، والنهر الأصفر (الهوانج هو) ونهر اليانجتسى فى الصين ، ولكن الحقيقة غير ذلك . فقد نشأت حضارات أخرى بعيداً عن دلتا الأنهار إذ يكفى مورد ثابت للمياه ، ولو كان بحيرة من البحيرات الداخلية الكبيرة ، ليمهد لظهور الحضارة فى أى منطقة متى اكتملت لها المقومات الأخرى للحضارة .

وقبل أن أترك هذه النقطة إلى غيرها أحب أن أنبه القارئ إلى أن ظهور نوع من الحضارة بين جماعة من الجماعات شىء ، وازدهار تلك الحضارة وانتشارها وأثرها على غيرها شىء آخر . فسنرى أنه قد ظهرت مراكز متعددة للحضارة

فى بلاد الشرق القديم ، ولكن لم يزدهر فيها وينمو ويصبح ذا أثر فعال فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ العالم مثل ما ازدهرت الحضارة فى مصر والعراق . كانت كل منهما مركزاً ثقافياً كبيراً أثر على ما جاوره من البلاد ، خصوصاً وأن الصلات التجارية كانت على نشاط كبير فى الألف الخامس والألف الرابع قبل مولد المسيح ، وكانت التجارة تأخذ طريقها فى البحر حيناً وفى البر حيناً آخر .

وإذا أردنا أن نعرف أقدم الأماكن فى الشرق الأدنى التى عثر فيها على بقايا قرى لقوم منتجين للقوت لاستطعنا أن نذكر منها الكثير ولكن يكفينا عشرة منها وهى أهمها :

سيالك فى إيران ، وجارمو وتل حسونة فى العراق ، والجديدة فى سوريا ، والفيوم ومرمدة ودير تاسا (البدارى) فى مصر ، ونضيف إليها أريحا فى فلسطين ، وباكون فى جنوب غربى إيران (ربما كانت معاصرة لتاسا فى مصر) أو بعدها بقليل ، وأناو فى شمال إيران . وها هى بعض الملاحظات عن المهم منها :

سيالك فى شمال إيران :

فى هضبة إيران ، وفى جنوب شرقى طهران ، عثر جيرشمان فى أوطأ طبقات أحد التلال على بقايا قرية من عصر مبكر جداً . وقد احتوت هذه القرية على منازل مبنية ، وكان لدى أهلها نوعان من الفخار . كما عثر فيها الحفارون على أدوات من المعدن لا تعدو بعض دبابيس من النحاس المطروق ، وهى تمتاز بذلك دون سائر القرى الأخرى التى يرجع تاريخها إلى هـذا العصر . وكان من عادة سكان سيالك دفن موتاهم تحت أرضية بيوتهم ، وتغطية أجساد الموتى بمادة المغرة الحمراء .

تل حسونة فى شمال العراق :

فى شمال العراق فى وادى نهر دجلة فى الشمال . وهناك أنواع مختلفة من الفخار عثر عليها بين بقايا منازل القرية القديمة ، وبعضها ملون . وكان أهل حسونة

يصنعون تماثيلا صغيرة من الطين للنساء ، ويطلق الأثريون على هذه التماثيل اسم « الإلهة الأم » . أما مدافن سكان حسونة فكانت فى بعض الحالات فى أوانى كبيرة .

الجديدة فى شمال سوريا :

وتقع على مقربة من الحدود السورية فى واحد من التلال الكثيرة المنتشرة فى هذه المنطقة على مقربة من قرية الجديدة ، وقد عثر هناك على منازل مبنية بالطين ، ولكن أساسات بعضها كانت من الحجر . وقد عثر فيها أيضاً على عدة أنواع من الفخار شبيه بفخار سيالك وحسونة ، كما عثر فيها أيضا على أختام من الحجر . وكان سكان الجديدة يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل ، وكانوا يضعون مع الموتى فى بعض الأحيان أوان من الفخار وبعض الأدوات الأخرى .

الفيوم :

وأقدم حضارات مصر هى حضارة الفيوم ، وقد عثر هناك على بقايا مما تركه السكان القدماء ولكن بقايا المنازل نفسها لم توجد ، وإن كانت وجدت أشياء أخرى أهمها الشعير ، وكان يوضع فى صوامع تحت الأرض مبطنة بالحصير . كما عثر أيضاً على الكتان وبقايا ملابس وبعض أجزاء من سلال . ويمكن اعتبار حضارة سكان الفيوم مماثلة فى القدم لسيالك وحسونة والجديدة .

مرمدة :

وهى فى غربى الدلتا وكان سكانها يبنون منازلهم الطينية فى شارع مستقيم ، وكانوا يعرفون الزراعة وكانت لديهم صوامع مشتركة ، وعرفوا الشعير والكتان وعرفوا الملابس وكانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية منازلهم .

جارمو فى جبال الأكراد فى العراق :

وسادس المناطق فى الأهمية هى المنطقة المعروفة باسم قلعة جارمو . ولم يكن سكان تلك القرية قد عرفوا صنع أوان من الطين بالرغم من أنهم بنوا منازلا

جدرانها من الطين . وكان بعضها يحتوى على عدة حجرات . وصنع سكان جارمو تماثيلا من الطين للناس والحيوانات ، كما عرفوا صنع الأوانى من الحجر ولم يعثر الحفارون هناك على بقايا من ملابس وإن كانوا قد عثروا على بقايا من سلال وحصر مضفورة ، كما يوجد احتمال كبير لمعرفتهم للقمح والشعير واستئناسهم للحيوان . أما تاريخ جارمو فقد أعطى الفحص العلمى (راديو كاربون ١٤) أنها كانت حوالى ٥٠٠٠ ق . م . ± ٣٠٠ سنة (٤٨٥٧ ± ٣٢٠) .

وأقدم ما عثر عليه فى العراق هو ما وجده الباحثون فى كهف فى المكان المعروف باسم زارزى ، ويليه فى القدم جارمو ثم حسونة . أما عن الحضارات الأخرى فإن بريدوود (Prehistoric Men. 1951, p 100) يظن أن جارمو أقدم من سيالك وحسونة والجديدة والفيوم ، وأن زارزى أقدم من الناطوف وأن هناك عصراً كبيراً يفصل بين زارزى وجارمو .

ومن الحقائق الهامة أن فحص الجماجم التى عثر عليها فى تلك القرى — وهى متفرقة فى جميع أرجاء الشرق الأدنى — قد أثبت أنها كلها لأقوام من جنس البحر المتوسط مما جعل الباحثين جميعاً فى عصر ما قبل التاريخ يؤمنون بأن فضل الانتقال من مرحلة جمع القوت إلى مرحلة إنتاج القوت قد حققه أناس ينتمون إلى جنس البحر الأبيض المتوسط .

حضارات أخرى :

نرى من ذلك أن أقدم الحضارات قد نشأت ونمت فى هذا الجزء من العالم ، وأن أهل الشرق القديم هم أول من وضع أسس المدنية الإنسانية .

ولم يقف فضل مدنيات الشرق القديم على تقدم أهلها فقط فى مضمار العلوم ، بل كانوا النبع الذى استقى منه غيرهم من الأمم القديمة ، وكانت هذه المنطقة أيضا مهد الديانات السماوية الثلاثة ، وفيها عاش موسى وعيسى ومحمد الذين بشروا بين أقوامهم بالحق ، وما زالت كتبهم السماوية وأقوالهم وأفعالهم خير ما يحرص عليه مئات الملايين فى جميع بقاع الأرض ، ويهتدون بهديه .

ولكي نعرف قيمة ما قدمه هذا الشرق يكفي أن نرجع إلى تاريخ أي دين أو فلسفة ، أو علم أو فن ، فنرى أن أصول أكثرها يرجع إلى تلك المنطقة بالذات ، لأنه ما من اختراع توصل إليه أحد من الناس إلا واعتمد على ما سبقه من أبحاث . وفي كتاب المؤرخ الشهير أرنولد توينبي (Arnold J. Toynbee) نراه يحصر كل مدنيات العالم في جميع العصور في واحد وعشرين مدنية حدد منها ستة فقط بأنها نشأت من حضارات بدائية أصلية وأنها لم تتفرع عن غيرها ، ولم تسبقها مدنية أخرى في منطقتها ، وتلك الحضارات الست هي المصرية ، وحضارة ما بين النهرين وحضارة بحر إيجه (المينوية) ، والحضارة الصينية الأصلية ، وحضارة المايا وحضارة الأندى[1] . ولو نظرنا نظرة فاحصة إلى هذه الحضارات الستة لوجدنا أن رأى توينبي في الحضارة المينوية لا يمكن التسليم به بسهولة لأن جزيرة كريت مهد هذه الحضارة كانت دائماً منذ أيام الدولة القديمة المصرية (أي منذ القرن السابع والعشرين قبل الميلاد) على صلة مباشرة بمصر ، كما كانت أيضاً على صلة بالشاطىء السوري الذي كانت تلتقي فيه حضارات مصر وبلاد ما بين النهرين والأناضول ، وأنها استمدت منها الكثير من عناصرها . أما حضارة الصين الأصلية فلم تبدأ إلا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، ويميل البحث الحديث إلى التسليم بوجود تأثيرات من غربي آسيا عليها عند نشأتها.

---

(١) المدنيات الإحدى وعشرون هي :

١ — المدنيـة الغربية . ٢ — الأورثوذكسية البيزنطية . ٣ — الأورثوذكسية الروسية ٤ — الإيرانية ٥ — العربية (ويمكن أن نطلق عليها وعلى المدنية الإيرانية اسم المدنية الإسلامية) . ٦ — مدنية الهندوس . ٧ — الصينية . ٨ — اليابانية الكورية . ٩ — الهلينية . ١٠ — السورية . ١١ — الهندية . ١٢ — الصينية الأصلية . المينوية (حضارة كريت) . ١٤ — السومرية (أو مدنية ما بين النهرين) . ١٥ — الحيثية . ١٦ — البابلية . ١٧ — المصرية . ١٨ — الأندية . ١٩ — المكسيكية . ٢٠ — اليوقاطية . ٢١ — المايا .

(والأربعة الأخيرة في أمريكا الوسطى والجنوبية) .

Toynbee. A. J. *A Study of History Vol. 1-Abridged Edition by Somervell (4th imp. 1951). p.* 12-34.

وبعبارة أخرى إن أقدم حضارات الصين تأثرت بهجرات أقوام وثقافات من الهضبة الإيرانية التى يعتبرها توينبى من الحضارات التى تأثرت فى أقدم عهودها بحضارة بلاد ما بين النهرين تأثراً كبيراً . ويبقى بعد ذلك الحضارتان الأخيرتان وكان موطنهما فى أمريكا الوسطى ، أى بعيداً عن العالم القديم .

وبعبارة أخرى نجد أن أهم حضارتين فى العالم ، لا فى بلاد الشرق الأدنى وحدها ، هما حضارة مصر وحضارة ما بين النهرين ، وأن جميع ما ظهر من حضارات أخرى فى العالم القديم ، وبخاصة فى أوروبا وغربى آسيا وشمال إفريقيا ، استمد من واحدة منهما أو من الإثنين معاً .

يكفينا هذا القدر من الحديث عن أقدم الحضارات فى بلاد الشرق الأدنى ولنلق الآن نظرة عامة على سير الحضارة فى كل من مصر والعراق .

الفصل الثانى

مصر والعراق وأثرهما فى الشرق القديم

تمهيـــد :

فى عام ١٩٥٠ نشرت بحثا فى المجلة التاريخية المصرية[1] عنوانه « الاتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والأثرية الخاصة بالشرق القديم » قارنت فى جزء منه بين حضارتى مصر والعراق وتساءلت عن أيهما أقدم من الأخرى وكتبت إذ ذاك :

اختلف علماء التاريخ القديم اختلافا كبيرا فيما بينهم عند الإجابة على هذا السؤال فى أبحاثهم التى ظهرت فى الثلاثين عاما الأخيرة ، فنهم من تعصب وما زال متعصبا لمصر ، ومنهم من تعصب وما زال متعصبا للعراق ، ولكن تعصب هذا العالم أو شك ذلك الباحث لا يغير من حقيقة الأمر شيئا . فقد نشأت فى الألف الرابع قبل الميلاد فى كل من مصر والعراق ثقافات قائمة بذاتها ، وأخذ كل منها يتقدم على انفراد . وتطورت الحياة الاجتماعية فى كل من البلدين تطورها الطبيعى ، وقد تمكن سكان العراق القدماء من الوصول فى بعض النواحى إلى درجة من التقدم جعلتهم يسبقون إخوانهم فى وادى النيل ، فوصلوا إلى ما لم يصل إليه سكان مصر فى العصر الذى نسميه عصر ما قبل الأسرات .

ومن الثابت أيضا ـ وفقا لأحدث النتائج التى وصلت إليها أبحاث الأثريين ـ أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة ببعضها البعض ، وكانت التجارة

---

(١) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الثانى ـــ أكتوبر ١٩٥٠ صفحة ١ ـــ ٢٥ .

قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما أخذت الهجرات تتوالى بين بعضها وبعض ، فاتصلت مصر والعراق . وكانت مصر إذ ذاك تجتاز فترة انتقال وتطلع فأثمرت هذه الصلة وأخذت مصر من العراق شيئاً من مظاهر حضارته ، مثل الأختام الأسطوانية التى عثر عليها فى مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية ، وهذه الأختام الأسطوانية كانت معروفة فى العراق فى العصر الذى يطلق عليه الأثريون الآن عصر قبيل اختراع الكتابة[1] .

ولم يقتصر الأمر على الآثار الصغيرة التى يسهل نقلها كإحدى سلع التجارة ، مثل الأختام الأسطوانية أو رؤوس دبابيس القتال وغيرها ، بل تعداها إلى أشياء أخرى أعمق أثراً مثل بعض مظاهر العمارة بالطوب ، كبناء الجدران ذات الفجوات الرأسية الطويلة ، كما بدأت تظهر فى الفن المصرى تأثيرات أخرى مثل رسم السفن العراقية التى يرتفع كل من مؤخرتها ومقدمتها ارتفاعا عموديا ، ورسم الحيوانات ذات الأجنحة ، أو الحيوانات ذات الأعناق الطويلة التى تتقاطع مع بعضها أو الرسم السومرى المشهور الذى يمثل محاربا بين أسدين .

---

(١) يطلق عصر ما قبل الكتابة أو قبيل اختراع الكتابة Protoliterate Period فى بلاد العراق على الفترة بين ٣٧٥٠ ، ٣١٠٠ ق . م . وتنقسم إلى قسمين أولاهما بين ٣٧٥٠ ، ٣٥٠٠ وهى المبكرة *Early Protoliterate Period* والمتأخرة *Late Protoliterate Period* بين ٣٥٠٠ ، ٣١٠٠ ثم يلى ذلك ، أى ابتداء من عام ٣١٠٠ تقريبا ، فى جنوبى العراق العصر المسمى عصر الأسرات المبكر وهو يقابل فى مصر الوقت الذى تم فيه توحيد البلاد كلها تحت حكم ملك واحد والنصف الأول من الأسرة الأولى . وليس معنى ذلك أن حضارة مصر والعراق بدأت فقط فى الألف الرابع قبل الميلاد فان الحضارة فى كل من البلدين نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة . ويرى فرنكفورت (Henri Frankfort, *The Birth of Civilization in the Near East 1951*). أن الحضارات السومرية بدأت فى شمال العراق حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م وذلك فى العصر المسمى عصر حسونة ويقابل فى مصر العصر التاسى (نسبة إلى قرية دير تاسا فى أسيوط) أما كونتينو (C. Contenau, *Manuel d'Archéologie Orientale IV-1947*) فيرى أن توحيد الدلتا والصعيد فى مصر وابتداء الأسرة الأولى تم فى الوقت الذى كانت تجتاز البلاد (العراق) عصر الوركاء إلى عصر جمدة نصر وهو يتفق فى ذلك مع أكثر المؤرخين .

ومما يثبت أن مصر أخذت هذه الأشياء عن العراق أن أكثر هذه التأثيرات والمظاهر الفنية ظلت فى العراق إلى آخر أيامه بينما اختفت من مصر بعد الأسرة الأولى ، لأنها كانت غريبة على البلاد وعلى ذوق أبنائها ، فمصرت منه ما استساغته ونبذت ما عداه . وقد حملت كثرة تأثيرات فن بلاد العراق فى الفن المصرى فى ذلك العصر المبكر بعض علماء الآثار على القول باحتمال هجرة كبيرة من بلاد الرافدين إلى النيل ، بل وصل بعضهم إلى القول باحتمال غزو أو أن أصل الملك « منا » من بلاد سومر ! ! ! وهى فروض لا تقوم على أى أساس علمى سليم ، بل فروض يغلب عليها الخيال لأن كل ما نراه فى مصر من تأثيرات سومرية جاء عن طريق الصلة التجارية . وكما عثر فى مصر على آثار من العراق فقد عثر أيضاً فى العراق على آثار من مصر وظهرت فى فنونها تأثيرات مصرية[1] .

كتبت هذا منذ أربعة عشر عاما ، وبالرغم من ظهور عشرات الكتب والبحوث منذ ظهور ذلك المقال ، فلم يجدّ شيء يغير من هذه النتيجة . لقد نمت الحضارة وتطورت فى كل من مصر والعراق على حدة ، واتخذت كل حضارة منهما أسلوبها المحلى ، ولكن البلدين كانا متصلين عن طريق التجارة فى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد فوصلت إلى مصر بعض السلع العراقية . ولم تكن مصر فى ذلك الوقت أقل حضارة أو ثقافة من العراق بل كانت تفوقها فى نواح كثيرة . وإن إقبال المصريين على اقتباس بعض أساليب الفنون الأجنبية يدل بوضوح على نضوج فنى بينهم جعلهم يتطلعون إلى آفاق أبعد من الآفاق المحلية ، كما يدل أيضاً على المرونة التى يجب أن يتحلى بها كل شعب يبدأ فترة تقدم حقيقى فى تاريخه .

---

(١) أنظر بحث جلبير عن هذا الموضوع فى P. Gilbert, *Synchronismes artistiques entre l'Egypte et Mesopotamie de la periode thinite à la fin de L'Ancien Empire Egyptien, Chronique d'Egypte (No. 52) 1951, p. 225-36.*

أما عن موضوع الكتابة واختراعها فقد ظهرت مستقلة فى كل من البلدين وليس هناك تأثير من إحدى الحضارتين على الأخرى — أنظر كتاب : Siegfried Schott, *Hieroglyphen Untersuchungen Zum Ursrung der Schrift, 1951.*

بين حضارتى مصر والعراق :

لن نتحدث هنا عن تاريخ أو حضارة كل من مصر والعراق ، ولن نشير إلى أى حادث من الحوادث بشىء بشبه التفصيل فإن تاريخ وحضارة كل من هذين البلدين لها مؤلفاتها الخاصة ، وسنكتفى فى الصفحات التالية بإلقاء نظرة عامة مقارنة على سير التاريخ فى كل منهما . قضت طبيعة مصر بأن تكون كلها وحدة واحدة ، بينما نرى الأمر فى العراق يختلف عن ذلك . ولهذا ، بينما ظهرت فى مصر فى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد دولة موحدة لها ملك واحد وتسودها حضارة واحدة ، نجد الأمر مختلفاً فى العراق ، إذ ظهرت فيه دويلات متعددة كانت لكل منها ملوكها وآلهتها بل وقوانينها . وسرعان ما أخذت هذه الدويلات السومرية تتطاحن فيما بينها وكثيراً ما قضت إحداها على الأخرى إلى أن تهيأ لها أخيراً أن تتوحد على يد سرجون الأكدى وكان ذلك فى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد . فأما عن السومريين الذين تعزى إليهم أصول تلك الحضارة التى ازدهرت فى أقدم عصور العراق فهم شعب غير سامى على الأرجح ، وقد ذكرت الأساطير السومرية أنهم جاءوا من الجنوب عن طريق البحر . وفى رأى بعض الباحثين الحديثين وهو « روزنى » (Hrozny) أنهم جاءوا مهاجرين من آسيا الصغرى فى موجتين من موجات الهجرة ، ويرى آخرون أنهم جاءوا من جهة التركستان وجبال أورال . وهناك من يقول بأنهم جاءوا من وادى السند ، بعضهم بطريق البر والبعض بطريق البحر ، وأن جنة تيلمون (Tilmun) التى ذكرت فى أساطير سومر ليست إلا جزيرة البحرين فى الخليج الفارسى . كما يذكر البعض الآخر أنهم وفدوا من هضبة إيران ، ويحاول البعض الآخر تحديد أصلهم عن طريق مقارنة اللغة السومرية باللغات التى يمكن القول بأنها تشترك معها فى أصلها وأهمها اللغات المجرية والتركية والفنلندية .

ويحاول بعض الزملاء العراقيين أن يثبت أن الحضارة السومرية أصيلة فى البلاد ولم تأت من أى مكان آخر .

ولكن جميع هذه الآراء ليست إلا فروضاً، وما زال موضوع السومريين وأصلهم ونشأة حضارتهم ولغتهم من المواضيع التى تنتظر الحل ، وظهور أدلة جديدة[١].
ومهما كان أصل السومريين غامضا فإنا نعلم الشىء الكثير عن مظهرهم وعن حضارتهم بفضل ما خلفوه لنا من آثار ، من لوحات وتماثيل وغيرها ، وتلك الثروة العظيمة الممثلة فى أختامهم ولوحاتهم المنقوشة التى نعرف منها الكثير عن أسماء مدنهم وعن دياناتهم وحياتهم الاجتماعية[٢].

وكانت المدن السومرية مزدهرة إلى حد غير قليل عند ما ظهر سرجون الذى أشرنا إليه فأخضعها كلها له . فمن هو سرجون ولماذا سميناه الأكدى ؟

يفتخر سرجون (وهى مشتقة من كلمة شرو ـ كن ومعناها الملك الشرعى ، وكانت نعتاً له ثم غلبت عليه) فى نقش له كتب فى أواخر أيام حكمه قائلا : «كانت أمى امرأة متقلبة (إشارة إلى عدم الاستقامة) ولا أعرف من كان أبى . وكان أعمامى يحبون الجبل . أما مدينتى «ازوبيرانو» فكانت على شاطىء الفرات . لقد حملت بى أمى المتقلبة وولدتنى سرا ، ثم وضعتنى فى سلة من الغاب وأحكمت غلق غطائها بالقير ثم ألقت بها فى النهر فلم أغرق . وحملنى الماء إلى «أكى» الفلاح (فى الأصل ناقل الماء) فربانى أكى الفلاح وصرت كابن له وعملت بستانيا عنده وأثناء عملى كبستانى أحبتنى عشتر فصار الملك لى مدى أربعة وخمسين سنة» .

---

(١) أحدث البحوث الهامة التى ظهرت عن أصل السومريين وانتهى فيه صاحبه إلى قوله بأن الموضوع ما زال ينتظر الحل نراه فى كتاب Hartmut Schmökel, *Geschichle des alten Vorderasien, 1957. p.3-4.* وما كتبه أيضا فى كتابه *Das Land Sumer (1956), p. 44-51.*

(٢) كثيراً ما تنسب الحوادث فى سومر القديمة إلى مدنها التى نعرف منها عدداً كبيراً منها مدن أوروك أو الوركاء ونفر وأريدو وأور وشروباك وكيش ولجش وفارا واسين وغيرها . أما عن أهم ما حققته الحضارة السومرية فى مختلف الميادين فكتاب Samuel Noah Kramer, *From the Tablets of Sumer, 1956.* يعطي القارئ فكرة عامة عنها . وقد ترجم طه باقر مفتش المتاحف العراقية هذا الكتاب إلى اللغة العربية وقد طبع فى القاهرة عام ١٩٥٨ بعنوان : من ألواح سومر .

التحق سرجون بخدمة ملك يسمى « أور زبابا » كان حاكما لمدينة « كيش » ، وكان يعمل عنده ساقيا ثم قام ضده بثورة واستولى على الملك ، وأخذ يستولى على مدينة بعد أخرى حتى خضعت له مدن العراق الشمالية ودحر الجوتيين فى جبال زاجروس ، ثم أخضع مدن الجنوب إلى أن استولى على المدن السومرية كلها . ثم ذهب مرة أخرى نحو الشمال حتى وصل إلى الأناضول ، ثم استولى بعد ذلك على عيلام وهى الآن فى الجنوب الغربى لإيران ، ثم اتجهت جيوشه إلى قلب آسيا الصغرى عندما استغاث به تجار عراقيون من اضطهاد حاكم تلك البلاد لهم ، بل أن إحدى الأساطير المتأخرة تنسب إليه أنه استولى على جزيرة قبرص .

كانت مملكة سرجون بحق أولى امبراطوريات بلاد الرافدين ، ولكنها كانت أيضا أولى الامبراطوريات التى حققتها الشعوب السامية لأن سرجون لم يكن سومرياً بل كان سامياً ، من أحفاد المهاجرين الذين كانوا يهاجرون من آن لآخر من الجزيرة العربية ويستقرون على حدود الأراضى المزروعة . أما الأكدى فهى نسبة إلى مدينة أكد التى جعل منها عاصمة ملكه وإليها تنسب اللغة الأكدية وهى إحدى اللغات السامية [1] .

ولا شك أنه منذ أقدم العصور كان بعض بدو الجزيرة العربية يخرجون مهاجرين من مواطنهم كلما اضطرتهم ظروف العيش القاسية ، أو أجلاهم غيرهم عن أراضيهم ، فكانوا يذهبون ليستقروا فى الشام أو فى العراق وأحيانا عن طريق سيناء إلى مصر إذا اتجهوا نحو الشمال أو يعبرون بوغاز باب المندب إلى إفريقيا إذا اتجهوا نحو الجنوب ، ومن هناك يتشرون حيث يطيب لهم العيش . وقد دخل بعضهم إلى مصر عن طريق الصحراء الشرقية ووصلوا إلى النيل من الدرب الموصل بين القصير والنيل ، وقد بقيت لهذا الدرب فى جميع عصور

---

(١) لا يرجع تاريخ استخدام كلمة سامية للدلالة على بعض اللغات ، ثم على بعض الأقوام ، الا إلى عام ١٧٨١ عندما استخدمها العالم الألمانى شلوتسر Schlözer للتدليل على لغات الذين ينسبون إلى سام بن نوح (سفر التكوين ، الاصحاحان ١٠ — ١١) الذين كانوا يعيشون فى بلاد العرب وبلاد النهرين وسوريا وفلسطين ثم انتشرت بعد ذلك إلى الحبشة ومصر وشمال أفريقيا وغيرها . وكلها ، قديمها وحديثها متصلة ببعضها البعض بل ومشتقة من أصل عام واحد .

التاريخ المصرى مكانة خاصة وكانوا يسمونه طريق الآلهة ، إشارة إلى مجيء بعض أسلافهم ومعهم آلهتهم من هذا الطريق ، وما من شك فى أن صلة مصر بالشعوب السامية فى عصر ما قبل التاريخ تركت أثرها فى اللغة المصرية القديمة سواء فى مفرداتها أو فى أجروميتها [١] .

ولنترك الآن مصر ولنعد إلى العراق . فحوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد كانت هناك مجموعة من المدن السومرية فى الجنوب (وأهمها إريدو ، أور ، لجش ، أوما ، أوروك ، نفر ، شوروباك) . وفى الوسط ، حوالى بغداد ، كان السكان من أجناس مختلطة وليس بينهم إلا عنصر سومرى قليل ، وفيهم عنصر سامى قوى . وكانت أهم المدن إذ ذاك هى مدينة كيش ، أما شمالى العراق فلم يتغلب عليه السومريون لأن الساميين ثبتوا أقدامهم فى كل المناطق الهامة مثل مدينة مارى على الفرات الأوسط وفى أشور وفى نينوى على نهر دجلة .

وفى القرون الأولى من هذا الألف ، أى الألف الثالث ، وصل الفينيقيون ونزلوا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ابتداء من أوجاريت (على مقربة من اللاذقية) إلى صور ، كما احتل الكنعانيون جزءاً آخر من الشاطيء من جبال الكرمل حتى حدود مصر ، وهى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم فلسطين . أما فى داخل البلاد حيث يوجد الإقليم السورى ، والمناطق الواقعة إلى الجنوب منه فى الأردن ، فاستقر فيها الأموريون وهم أيضاً من الساميين .

وقد رأينا عند إشارتنا إلى سرجون كيف انتهى الأمر بظهور هذه الإمبراطورية السامية الكبيرة ، وإخضاعها بلاد العراق وشمالى سوريا وغيرها من البلاد لنفوذها ، وكيف أصبحت اللغة الأكدية ، وهى إحدى اللغات السامية كما ذكرنا ، لغة الدولة الجديدة وصارت اللغة السومرية فى المرتبة الثانية ، ولكن هذا لم يمنع من اقتباس الأكديين للكتابة السومرية والكثير من مظاهر حضارتهم .

(١) هنالك من يقول بأن الصلة بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية أبعد من ذلك وربما كانت اللغة المصرية وغيرها من اللغات السامية والحامية التى كانت منتشرة فى آسيا الغربية وشمال وشرق إفريقيا مشتقة كلها من لغة واحدة أقدم من الجميع .

ظهر سرجون حوالى عام ٢٣٥٠ قبل مولد المسيح ، فما الذى كان حادثاً فى مصر فى ذلك الوقت ؟ وهل كانت المدنية المصرية أقل فى مستواها من المدنية السومرية ؟ والجواب على ذلك أن الأسرة الأولى فى مصر بدأت كما نعلم جيداً حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م ، وأن مصر بلغت فى مدنيتها أوج ازدهارها الصحيح فى الأسرة الرابعة عند ما استطاعت أن تحقق تلك المعجزات فى تشييد أهرامها حوالى عام ٢٧٠٠ ق . م . بل وقبل ذلك . ويكفى الإنسان أن يزور هرمى سنفرو فى دهشور أو يرى محتويات مقبرة زوجته حتب حرس ، أم ابنه خوفو ، وهى الآن فى المتحف المصرى ، أو يرى آثار زوسر فى سقارة وقد شيدت قبل ذلك التاريخ ليدرك مدى ما أحرزته مصر من تقدم . ولكن حتى فى الوقت الذى كانت فيه حضارات مدن سومر فى أوجها فلا يمكن أن نقارنها بما كان فى مصر . أما عام ٢٣٥٠ ق . م . فإنه يقابل فى التاريخ المصرى وقت اضمحلال الدولة القديمة فى أواخر أيام الأسرة السادسة عندما كانت مصر على وشك الدخول فى تلك الفترة المظلمة فى تاريخها وهى عصر الفترة الأولى .

لقد حققت الحضارة السومرية الشىء الكثير فى مختلف الميادين ولكننا إذا قارناها بحضارة الدولة القديمة فى مصر لرأينا الحضارة المصرية متفوقة عليها اللهم إلا فى ميدان الأدب والأساطير . لقد عرفنا من دراسات اللوحات السومرية وبعض الآثار الأخرى شيئا غير قليل ، ولكننا نعرف من دراستنا لما تركته الحضارة المصرية من مئات المقابر التى نقشت جدرانها فى سقارة والجيزة ، وما كتبوه من نصوص داخل الأهرام ، وما خلفوه فى عشرات المناطق الأثرية والمعابد ، وآلاف الآلاف من القطع الأثرية المختلفة مدى ما بلغته الحضارة المصرية فى جميع النواحى الحضارية .

لم تستمر إمبراطورية سرجون طويلا بل سرعان ما قامت الثورات وانتهت عائلته ، ثم حدثت نكسة أخرى وانهار صرح الحكم السامى تحت ضربات نزلت على العراق من شعب هندو ــ أوروبى كان يقطن فى جبال زاجروس ، وهم الجوتيون . فانتهت أيام الإمبراطورية الأكدية وكان ذلك فى منتصف القرن

الثالث والعشرين قبل الميلاد ولم تلبث المدن السومرية القديمة حتى انتعشت مرة أخرى وبخاصة مدن لجش وأوروك وأور ، وانتعشت الفنون فيها ، ونرى فى تماثيل جوديا حاكم لجش وغيرها من التماثيل شاهداً كبيراً على تقدم فن النحت، كما نرى فى مجموعة الحلى العظيمة التى عثر عليها فى أور ويرجع تاريخها إلى أسرة أور الثالثة أى بين أعوام ٢١٢٤ — ٢٠١٦ ق . م . تقدما فنيا عظيما .

ولا يسع أى شخص أن يرى مجموعة الحلى الملكية التى عثر عليها فى تلك المقابر، وهى موزعة الآن بين متاحف بغداد ولندن وبنسلفانيا فى فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية إلا أن يعجب بها وبذوقها الفنى ودقة صناعتها . ولكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أنه فى ذلك الوقت بالذات كانت مصر قد اجتازت فترة الضعف التى كانت ألمت بها ، واستطاعت أن تدخل فى عصر نهضة كبيرة وهى الدولة الوسطى ، إذ تبدأ الأسرة الحادية عشرة فى مصر فى عام ٢١٣٤ ق . م وتستمر نحو قرن ونصف من الزمان . وقد بلغت صناعة الحلى فى مصر فى عهد الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ — ١٧٧٨ ق . م .) مستوى لم تبلغه من قبل أو تصل إليه فيما تلا ذلك من عصور ، كما نرى فى تلك المجموعات العظيمة المعروضة فى المتحف المصرى وقد عثر عليها فى دهشور ، وفى متحف المتروپوليتان فى نيويورك وهى مما عثر عليه فى اللاهون فى محافظة الفيوم ، وغير ذلك مما نراه فى المتاحف العالمية .

وعلى ذكر حلى أور وجباناتها الملكية فإننا نعرف مما عثر عليه فى تلك الجبانة أنه عند موت الملك أو الملكة أو أحد الزعماء فإنهم كانوا يدفنون معه كل أتباعه المقربين ، بل ويدفنون أيضا معه كل العربات التى حملت موكب دفنه مع ثيرانها وسائقيها . وليست هذه العادة ، وإن ظهرت قاسية ، قاصرة على أور فقط بل كانت عامة فى سومر ، فقد عثرت البعثة الألمانية التى تعمل فى مدينة أوروك فى موسم ١٩٥٥ — ١٩٥٦ على نحو مائة جثة لأتباع أحد الحكام ، كما نعرف أيضا أنها كانت متبعة فى مصر حتى الأسرة الأولى المصرية حيث عثر على جثث كثير من أتباع إحدى الأميرات فى مقبرتها فى سقارة ، ولكن هذه العادة اختفت فيما بعد وإن ظلت متبعة فى السودان خلال العصور الفرعونية ، وظلت فى النوبة حتى ظهور المسيحية بعدة قرون ، كما كانت متبعة أيضا فى بلاد الصين

القديمة وعلى الأخص فى عهد أسرة شو حوالى عام ١١٠٠ ق . م . وفى بعض بلاد أواسط آسيا .

ودارت عجلة الزمن دورة أخرى ، وأخذت المدن السامية فى الانتعاش ، ومن أهمها دولة مدينة مارى على الفرات التى دخلت فى عهد ازدهار حوالى عام ٢٠٥٢ قبل الميلاد ، وستتحدث عنها بشىء من التفصيل عند حديثنا عن تاريخ سوريا فى الفصل القادم، ولكن الدولة التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ العراق فى ذلك العهد هى دولة مدينة بابل التى أسسها الأموريون حوالى عام ١٨٩٤ ق . م . ونشأت فيها أسرة مالكة ، قدر لسادس ملوكها وهو الملك حمورابى الذى بدأ حكمه فى عام ١٧٢٨ ق . م أن يوحد البلاد كلها تحت سلطانه وأن ينشىء الإمبراطورية السامية الثانية وأن يخضع له كل الدويلات الأخرى مثل دولة مارى ولارسا وعيلام ، ووصل جنوبا إلى الخليج الفارسى ولكنه لم يستطع بعد ذلك أن يصل إلى البحر الأبيض لأن دولة يمخذ ، وكانت عاصمتها هى مدينة حلب ، وما جاورها حتى ساحل البحر وقفت فى طريق الوصول إليه . كما أنه لم يستطع الاستيلاء على مدن الشاطىء لأنها كانت إذ ذاك تدور فى فلك النفوذ المصرى فى أيام الأسرة الثانية عشرة ، ولكن قبل أن نستمر فى سرد قصتنا عن تاريخ العالم القديم فى ذلك الوقت يحسن بنا أن نقف قليلا لنتحدث عن شخصية من أعظم شخصيات التاريخ القديم وهى شخصية حمورابى .

حمورابى وقانونه :

تعتبر مدة حكم حمورابى أزهى فترة فى تاريخ المملكة البابلية القديمة ، وقد ورث الملك عن أبيه ، وحارب وانتصر على كل من ناوأه[1] . ولم يكن ظالما عاتيا أو متجبرا على من يهزمهم ، كما كان قلبه ممتلئا بالتقوى وكان يعزو كل شىء إلى الإله مردوك الذى كان يرى فيه حاميا شخصيا له .

---

(١) مدة حكم حمورابى حسب أحدث البحوث هى ثلاثة وأربعون عاما من ١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق . م .

وخير مصدر لدراسة شخصيته وأعماله وحالة البلاد في عهده قانونه الشهير الذى شرع فى كتابته فى أوائل أيام حكمه وعملت منه نسخ كثيرة إحداها تلك التى نقلها أهل عيلام إلى سوسا فى أواخر القرن الثانى عشر قبل الميلاد كغنيمة حرب ، وعثرت عليها بعثة فرنسية فى عام ١٩٠٢ فنقلتها إلى متحف اللوفر كغنيمة من الغنائم الأثرية .

على هذه اللوحة الأسطوانية الشكل التى يبلغ ارتفاعها ٢,٢٥ مترا ومصنوعة من حجر الديوريت ، نرى القانون كله مسطرا فى مواد يتناول أكثر مشاكل الناس ، وفى أعلى اللوحة نرى حورابى واقفا يرفع يده إلى مستوى فمه علامة التعبد لإله الشمس « شمش » الذي يجلس على العرش وكأن حورابى يتلقى منه هذا القانون . ولكن الحقيقة هى أن ذلك القانون لم يكن من مستحدثات حورابى أو عصره بل نرى عند تحليله أنه مجموعة من قوانين المدن السومرية القديمة التى أصبحت لها مع الزمن قداسة خاصة ، والتى نعرف عنها شيئا غير قليل جمعها وهذبها ثم عممها للسير بمقتضاها فى جميع أرجاء البلاد .

ومن أوصاف حورابى على آثاره ، ومن دراسة آثاره المعاصرة نعرف أنه كان يعتبر نفسه فوق مستوى البشر ، فقد كان يسمى نفسه « إله الملوك » وكان اسمه يدخل فى تركيب أسماء الأعلام .

قانون حورابى :

ومن أعظم أعمال هذا الملك المصلح جمعه لما كان فى بلاد ما بين النهرين من قوانين وتشريعات قديمة ، وحذف منها ما لم يتفق مع روح العصر الذى عاش فيه وأضاف إليها تشريعات أخرى جديدة ثم بوب هذا كله وعممه فى جميع أرجاء البلاد .

وقد وصلت إلى أيدينا أجزاء من القوانين والتشريعات السومرية مثل قوانين « أورك ـ عجينا » آخر ملوك لجش الأولى (حوالى عام ٢٣٦٠ ق . م .) وقانون

« أورنمو » مؤسس أسرة أور الثالثة (حوالى عام ٢١٥٠ ق . م .) وقوانين « لبيت ـ عشتر ملك إيسن (حوالى عام ١٨٧٥ ق . م .) وغيرهم وتحتوى كلها على مواد لتنظيم المجتمع وحمايته ووضع أسس يسير الناس على هديها .

جمع حمورابى جزءاً من قانونه من تلك القوانين ولكنه أضاف عليها الكثير من المواد، وعلى الأخص ما يتعلق منها بتوقيع العقوبات الصارمة الخاصة بالقتل أو القصاص مثل العين بالعين والسن بالسن لأن القوانين السومرية كانت تتجنب القصاص بالمثل وتميل إلى دفع الدية والتعويض ، ويظهر أن القصاص بالمثل كان من الأمور المرعية بين الساميين فأدخله فى هذا القانون . وعدد مواد القانون كانت ٣٠٠ على الأقل ولكن لم يحفظ على الحجر إلا ٢٨٢ إذ أن الملك العيلامى «شتروك ناخونتى» الذى غزا بابل ونقل هذا القانون محا الجزء الأسفل منه ليكتب عليه تسجيل انتصاره ، ولكن ذلك لم يتم .

وللقانون مقدمة طويلة شعرية الأسلوب تتحدث عن شرعية حكم حمورابى وتأييد آلهة البلاد له ، مع رفع الشكر إلى هؤلاء الآلهة وتمجيدهم لمساعدتهم له فى توطيد العدالة وهداية الحكام ، ثم يذكر بعد ذلك ما قام به هو نفسه من أعمال جليلة ويختم مقدمته برجاء الآلهة أن تفنى وتزيل كل من لا يعمل بهذه التشريعات أو يحاول القضاء عليها .

ولو دققنا فى هذه المواد نجدها مقسمة إلى اثنى عشر قسما أو بابا تختلف كل منها فى عدد المواد حسب أهميتها ، وهذه الأقسام يمكننا تلخيصها بأن أولها يتعلق بالقضاء والشهود وثانيها بالسرقة وثالثها بالجيش ورابعها بالحقل والبيت وخامسها بحوانيت التجار والتعامل معهم ، وسادسها يتعلق بالحانات أما السابع فهو خاص بشؤون البيع ، وثامنها بشؤون العائلة وعلاقة أفرادها ببعضهم البعض .

ويختص القسم التاسع بالتعويض والغرامات عند نقض التعهدات أو الاتفاقات ، أما القسم العاشر فيختص بتحديد الأسعار وأجور تشييد البيوت والسفن . والحادى عشر يتعلق بأجور الحيوانات والأشخاص أما القسم الأخير وهو القسم

الثانى عشر فيختص بتحديد وضع الأرقاء وما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

ومما يستلفت النظر فى هذا القانون أنه لم يوضع لتطبيقه على جميع أفراد الشعب على السواء بل نراه يقسم الناس إلى ثلاث طبقات أولاها طبقة الـ « أويلم » (Awilum) وهى طبقة الأحرار أو الأفاضل بين الناس ، أو السادة تليها طبقة تسمى الـ « مشكينوم » (Mushkinum) وهى طبقة لا نعرف على وجه الدقة صفة أفرادها وربما كان أصحابها على صلة بالمعابد وهى على أى حال طبقة ليست من الأرقاء أو من السادة ، بل من عامة الشعب الأحرار ، أما الطبقة الثالثة فهى طبقة الأرقاء . ولكى نفهم روح هذا القانون أقدم بعض مواده كما هى مترجمة ترجمة حرفية[1] :

مادة ٣ — إذا أدلى سيد بشهادة كاذبة فى دعوى ما ولم يثبت صحة الكلمات التى نطقها ، فإن كانت تلك الدعوى تتعلق بدعوى حياة فإن ذلك السيد يعدم .

مادة ٥ — إذا أعطى قاضى حكما وأصدر قرارا وحدث التصديق على رقيم مختوم ثم غير حكمه بعد ذلك فعليهم أن يثبتوا أن ذلك القاضى قد غير الحكم الذى أصدره ، وعليه أن يدفع اثنا عشر مرة قيمة الشكوى التى رفعت فى تلك الدعوى ، وزيادة على ذلك عليهم أن يطردوه أمام الجمع من فوق كرسيه للقضاء ، وعليه ألا يجلس ثانية أبداً مع القضاة فى دعوى .

مادة ٢٢ — إذا قام سيد بالسرقة وقبض عليه فإنه يعدم .

---

(١) هنالك عشرات الكتب والبحوث عن هذا القانون ومواده باللغات الأوروبية ومن يريد الاطلاع عليه كاملا فإن أحدث الترجمات باللغة الإنجليزية هى التى قام بها Theophile J. Meek ونشرها مع أهم المراجع عن الترجمات السابقة فى كتاب Pritchard, Ancient Near Eastern Texts (1955), p. 163—180 ، كما ظهرت له أيضاً عدة ترجمات باللغة العربية أحدثها وأدقها بحث الدكتور محمود الأمين : « قوانين حمورابى والقوانين البابلية الأخيرة » المنشور فى مجلة كلية الآداب — جامعة بغداد — عدد كانون الثانى ١٩٦١ ويجد فيه القارىء بيانا بالمراجع العربية والكثير من التعليقات الهامة . وقد اعتمدت عليها فى ترجمة بعض مواد هذا القانون ترجمة حرفية .

مادة ٢٥ — إذا شبت النار فى بيت سيد وذهب سيد لإطفائها ، لحظ عينه على أموال صاحب البيت ثم استملك أموال صاحب البيت فإن هذا الرجل يلقى فى النار هذه .

مادة ١٠٤ — إذا أقرض تاجر غلة أو صوفا أو زيتا أو بضاعة ما إلى بائع متنقل ، فعلى البائع المتنقل أن يسجل الثمن وأن يدفعه للتاجر وأن يستلم البائع المتنقل وصلا مختوما بالدراهم التى دفعها إلى التاجر .

مادة ١٠٥ — إذا كان البائع المتنقل مهملا ولم يحصل على وصل مختوم بالمال الذى دفعه للتاجر ، فإن المال الذى لم يحرر به وصل مختوم لا يمكن اعتباره عند اعتماد الحساب .

مادة ١٠٩ — إذا اجتمع خارجون على القانون فى حانة إحدى بائعات الخمر ولم تعتقل أولئك المتآمرين ، ولم تأخذهم إلى القصر فإن بائعة الخمر هذه تعدم .

مادة ١١٧ — إذا حان وقت استحقاق دين على سيد وكان قد باع (خدمات) زوجته أو ابنه أو ابنته أو ارتبط (هو نفسه) بالخدمة فيجب عليهم أن يعملوا فى بيت من اشتراهم أو المدينين له مدة ثلاث سنوات ، وتعاد لهم حريتهم فى السنة الرابعة .

مادة ١٢٧ — إذا أشار سيد بسوء إلى كاهنة معبد أو إلى زوجة سيد آخر ولكنه لم يستطع إثبات شىء ضدها فإن هذا السيد يؤخذ إلى حضرة القضاة ، ويقصون أيضاً نصف شعره .

مادة ١٢٩ — إذا قبض على زوجة سيد مضطجعة مع رجل آخر فيجب عليهم أن يوثقوا الإثنين ويلقوهما فى الماء . وإذا رغب الزوج فى الإبقاء على حياة زوجته ، ففى هذه الحالة يستطيع الملك أن يبقى على حياة أحد رعاياه .

مادة ١٣٣ — إذا أخذوا سيدا فى الأسر وكان فى بيته ما يكفى فيتحتم على زوجته ألا تترك منزله ، وعليها أن تصون نفسها ، وذلك بألا تدخل منزل شخص آخر .

أما إذا لم تصن هذه المرأة نفسها ودخلت منزل شخص آخر فإنهم يثبتون ذلك على هذه المرأة ويلقونها فى الماء .

مادة ١٤٢ — إذا كرهت امرأة زوجها حتى قالت له « لا تقربنى » فيجب درس قضيتها فى مجلس بلدتها . فإذا كانت امرأة حريصة ولم ترتكب خطأ بالرغم من أن زوجها يخرج ويحط من قدرها كثيراً ، فليس لهذه المرأة ذنب ويجب أن تأخذ حقها المتأخر وتذهب إلى بيت أبيها .

مادة ١٤٨ — إذا تزوج سيد امرأة وأصيبت بمرض وأراد أن يتزوج ثانية فله أن يتزوج ولكن لا يجوز له أن يطلق زوجته التى أصيبت بالمرض . إنها تسكن فى البيت الذى بناه وعليه أن يقوم بإعالتها طالما كانت على قيد الحياة .

مادة ١٩٥ — إذا ضرب ولد أباه فعليهم أن يقطعوا يده .

مادة ١٩٦ — إذا فقأ سيد عين ابن أحد السادة فعليهم أن يفقأوا عينه .

مادة ١٩٨ — إذا فقأ سيد عين رجل من العامة أو كسر إحدى عظامه فإنه يغرم « مينا » من الفضة (المينا أو المن يزن ٥٠٠ جراما) .

مادة ٢٠٣ — إذا ضرب واحد من الأشراف شريفا آخر من درجته فعليه أن يدفع مينامن الفضة .

مادة ٢٠٤ — إذا صفع أحد العامة شخصا من طبقته فعليه أن يدفع ١٠ شيقلات من الفضة (المينا = ٦٠ شقل) .

مادة ٢١٨ — إذا أجرى طبيب عملية كبيرة لسيد بآلة برونزية وسبب وفاة السيد ، أو فتح محجر عين سيد وسبب فقد بصره ، فإنهم يقطعون يده .

مادة ٢١٩ — إذا أجرى طبيب عملية كبيرة لرقيق بآلة برونزية وسبب وفاته فعليه دفع التعويض رقيقا برقيق .

مادة ٢٢١ — إذا جبر طبيب عظما مكسورا لسيد أو أشفى ورما مؤلما فعلى المريض أن يدفع للطبيب ٥ شيقلات من الفضة .

مادة ٢٢٢ – إذا كان ابن شخص من المشكينوم فعليه أن يدفع ٣ شقلات من الفضة .

مادة ٢٢٣ — إذا كان رقيقا لسيد فعلى صاحب الرقيق أن يدفع شقلين من الفضة للطبيب .

مادة ٢٢٤ — إذا قام طبيب بيطرى بإجراء عملية كبيرة لثور أو حمار وأنقذ حياته ، فإن صاحب الثور أو الحمار يعطى للبيطرى سدس ثمنه من الفضة .

مادة ٢٢٥ — إذا أجرى عملية كبيرة لثور أو حمار وتسبب فى موته فإنه يعطى لصاحب الثور أو الحمار خمس ثمنه .

مادة ٢٢٩ — إذا قام بناء بتشييد منزل لسيد ولكنه لم يقم بعمله جيداً وكانت نتيجة ذلك انهيار المنزل الذى بناه ونشأ عن ذلك وفاة صاحب المنزل فإن هذا البناء يعدم .

مادة ٢٣٠ — إذا تسبب ذلك فى وفاة ابن صاحب المنزل فإنهم يعدمون ابن ذلك البناء .

ولنكتف الآن بهذه المواد من قانون حورابى ولنعد إلى حديثنا عنه .

لم يتقدم حورابى فى فتوحه نحو الشاطئ الفينيقى لأن بلاده المختلفة ـ كما ذكرنا ـ كانت مقسمة إلى دويلات كنعانية مثل أوجاريت (رأس الشمره) فى الشمال وجبيل (بيبلوس) شمالى بيروت وكانت ذات صلة وثيقة بمصر . وفى متحف بيروت نرى الكثير من الآثار المصرية وبخاصة من الحلى الثمينة التى كان يهديها ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى ملوك جبيل . ولم يعثر على الآثار المصرية من ذلك العهد فى جبيل وأوجاريت فقط بل عثر عليها أيضاً فى قطنا فى المنطقة الوسطى من سوريا بل وفى دمشق .

كانت فينيقيا ملتقى حضارات عدة ، وكانت تصلها مصنوعات مصر وبابل وبلاد الأناضول وجزر بحر إيجه ، وبخاصة جزيرة كريت ، التى ازدهرت فيها الحضارة فى ذلك العهد ، وقد نتج من ذلك الامتزاج فيما بعد الفن الفينيقى الذى كان له شأن كبير .

الكاسيون فى العراق والهكسوس فى مصر :

شهد القرن الثامن عشر قبل الميلاد هجرات واسعة من أواسط آسيا فانحدرت قبائل كثيرة فى أوقات متفاوتة . كانت كلها قبائلا غير متقدمة فى حضارتها ، بدوا رحالا من الجنس الذى سمى فيما بعد بالجنس الهندو — أوروبى أو الآرى . نزلوا بنسائهم وأطفالهم وأمتعتهم وحيواناتهم ليستقروا فى البلاد التى تفيض بالخير إلى الجنوب منهم . فاتجه بعضهم نحو الأفغانستان ووصلوا إلى وادى السند عن طريق ممر خيبر ، وقضوا على الحضارة القديمة هناك ، وأصبحوا الطبقة الحاكمة فى تلك البلاد . ونزل البعض الآخر إلى شمالى العراق فاستقروا فى وادى الفرات الأعلى وكان منهم الحريون والميتانيون ، وكان نزول تلك القبائل المهاجرة سبباً فى القضاء النهائى على أسرة حمورابى فى بابل وقد حدث ذلك على أيدى القبائل المعروفة باسم الكاسيين . واستقرت قبائل منهم قبل ذلك فى الأناضول وكونوا دولة الحيثيين ، كما أخذت قبائل أخرى تصل إلى البلقان إما عن طريق الدوران حول البحر الأسود وإما عن طريق البوسفور والدردنيل ، فأحدثت كثيراً من عدم الاستقرار هناك . ولم يقف أمر تلك الهجرات عند ذلك الحد بل نزل بعضها فى مناطق سوريا وفلسطين ، وبعد أن استقروا فيها بعض الوقت وامتزجوا بأهلها ، اتخذ هذا الخليط من الناس طريقه غرباً إلى مصر وكانت إذ ذاك فى إحدى فترات ضعفها ، فاستولوا على الدلتا ثم مدوا نفوذهم إلى باقى البلاد ، وهؤلاء هم القوم المعروفون باسم الهكسوس الذين نزلوا إلى مصر حوالى عام ١٧٣٠ قبل الميلاد .

شهدت تلك الأيام القضاء على الكثير من مظاهر الحضارة فى جميع مراكز المدنية فى الشرق ، فتأخرت حالتها ولم تبدأ فى استعادة شىء مما كان لها إلا بعد أن مر جيل أو جيلان على الغزاة الهمج ، وحكم من بعدهم بعض نسلهم الذين كانت نفوسهم قد تهذبت بعض الشىء وتطبعوا بطابع المدنية . أما آباؤهم فكانوا يعيشون كما كانوا يعيشون فى بلادهم ، رجال حرب فى معسكرات ، يلتفون حول زعمائهم ، ويحيون فى معسكرات حربية محصنة تتسع لعشرات الآلاف من الجنود ومعهم عرباتهم .

نزل الكاسيون إلى العراق فلم يلبث حتى تقطعت أوصاله وانقسم إلى دويلات تتطاحن فيما بينها ، فكانت هناك دولة ميتانى التى أشرنا إليها . ونشأت دولة فى أشور فى الشمال ، وأخرى فى بابل فى الوسط ، ورابعة وتسمى « شعب البحر » فى الجنوب ، كما نشأت دولة أخرى فى عيلام . وكانت مدنية بلاد العراق ، وهى بلاد عريقة فى مدنيتها ، أقوى من أن تزول . فسرعان ما نرى تلك الدول كلها وقد أخذت شيئا فشيئا تعود إلى دياناتها القديمة ومظاهر فنونها ، ولكنها بقيت ضعيفة . وظلت كذلك أكثر من خمسمائة سنة حتى أخذت دولة أشور فى الشمال تظهر كدولة قوية فأعادت إلى العراق وحدته ، وبدأت عهد توسع جديد سنتحدث عنه فيما بعد .

ضرب الهكسوس ضربتهم فى مصر ، ولكن حكمهم هناك لم يلبث إلا مائة وخمسين عاما ثم تمكن المصريون من إخراجهم من بلادهم . كان احتلال الهكسوس لمصر أول إذلال عرفته فى تاريخها ، فلهذا كان الدرس قاسيا عليهم ، وكان هذا التحدى داعيا للرد عليه . فلما جاء اليوم الذى اجتمعت فيه كلمة أهل طيبة على الكفاح لم يهدأ للمصريين بال حتى وجدوا أنفسهم يطاردون العدو حتى أخرجوه من حدودهم ، فتحصن الهكسوس فى إحدى المدن فى جنوبى فلسطين . وأدرك الملك أحمس الأول أنه لن يكون لعمله قيمة إذا ترك العدو قويا على مقربة من حدوده ، وأخيرا وبعد حصار دام ثلاث سنوات سقطت مدينة « شاروهن » التى تحصنوا فيها .

لقد ترك الفلاح المصرى حقله وسار وراء قائده ينشد تحرير البلاد أو الاستشهاد فى سبيلها فتم له ما أراد ، ولم يعد إلى القرية إلى بعد أن طهر أرضها من رجسه ، بل لم يعد إلى قريته إلا بعد أن وضع الحجر الأول فى أساس الإمبراطورية المصرية .

الإمبراطورية المصرية :

كانت البلاد الأسيوية مقطعة الأوصال ، تقوم فيها « مدن - ولايات » متعددة يحكم بعضها أمراء من أهلها الأصليين ويحكم الأخرى أمراء اختلطت أنسابهم بالمهاجرين الهندو - أوروبيين الجدد ، أو من نسلهم الذين تطبعوا بطبع البلاد

وتحضروا بحضارتها . وليس أدل على هذا التفرق من أن الاتحاد الذى تكون تحت زعامة أمير قادش ليقف فى وجه تحوتمس الثالث فى فتوحه ، ولاقاه فى معركة مجدو (حوالى ١٤٧٠ ق . م .) كان يجمع ثلاثمائة وثلاثين أميرا جاء كل منهم ومعه رجاله . فإذا كان ذلك الاتحاد وحده مكونا من ٣٣٠ فكم كان عدد الحكام كلهم إذا أضفنا إلى ذلك بضع مئات أخرى كانوا قد انطووا تحت الحكم المصرى المباشر ، أو وقفوا إلى جانبه بتحالفهم مع المصريين ، أو وقفوا بعيدا عن كل من التيارين .

على أى حال فقد حقق تحوتمس الثالث فى حملاته الستة عشرة جميع أغراضه الحربية وعبرت جيوشه نهر الفرات ، ومن لم يصطدم منهم بالجيوش المصرية أرسل يطلب ود مصر ويقدم لملكها طاعته . ولم يقف الأمر عند بلاد الشام والعراق بل كانت جميع مدن شاطىء البحر الأبيض الشرقية وجزر ذلك البحر خاضعة للأسطول المصرى . ومن وصف معارك تحوتمس الثالث وابنه أمنحوتب الثانى ، ومن دراسة مئات المقابر فى طيبة التى خلفها كبار موظفى الإمبراطورية نستطيع أن نعرف الشىء الكثير عن تقدم الصناعة والفنون بل والحضارة بوجه عام فى تلك البلاد . ويكفى أن يقرأ الإنسان بيان ما استولى عليه الجيش المصرى من معركة مجدو ، وذلك البذخ والأبهة التى لازمت الأمراء المتحالفين ، أو يرى مناظر مختلف زعماء البلاد والأمم المرسومة على جدران مقابر طيبة وهم يأتون ومعهم هداياهم من مصنوعات بلادهم وخيراتها ، ليعرف الشىء الكثير عن تقدم تلك البلاد بوجه عام ، ومظاهر أهلها وملابسهم وأسلحتهم . . . الخ .

لقد اتصلت مصر بآسيا وفتحت أبوابها للأسيويين ، ودياناتهم ، وصناعاتهم وموسيقاهم ، وغير ذلك من مظاهر الحضارة ، كما كان لاتصال المصريين من جنود وموظفين وغيرهم بتلك البلاد فى الحرب والسلم فى الوقت ذاته باعثا على إلمام المصريين بتلك البلاد أكثر من ذى قبل . وانتشرت المدنية المصرية فى ربوع كثيرة ، ولم تعد قاصرة على فلسطين والشاطىء الفينيقى وجزء قليل من داخل الإقليم السورى ، كما كان الحال فى الدولة الوسطى . ونقرأ فى مراسلات تل العمارنة الشىء

الكثير من صلة فراعنة مصر بحكام تلك البلاد ، ونستشف منها الكثير عن العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبابل وأشور وميتانى . ونحن نعرف أيضاً أن الملوك المصريين كانوا يتزوجون من بنات ملوك ميتانى وبابل وغيرها ، وأن بعضهن كان يأتى ومعه الوصيفات اللاتى كن يتزوجن أيضا فى مصر سواء ممن كانوا فى خدمة القصر أو من غيرهم . كانت أم الملك أمنحوتب الثالث ميتانية من أعالى الفرات ، وقد تزوج هو نفسه بأكثر من واحدة من الأميرات الميتانيات ، وقد حضرت إحداهن وهى « كيلوجيبا » ومعها ٣١٧ وصيفة .

وظل النفوذ المصرى قوياً فى آسيا طالما كان فراعنتها من المحاربين الذين كانوا يخرجون على رأس جيوشهم ، فلما ركنوا إلى الدعة وملذات القصور ، وما يأتى إليهم من خيرات آسيا والاستمتاع بالجوارى والغناء ، أخذت السحب تتجمع ، خصوصا وأن الحيثيين فى بلاد الأناضول بدأوا يدخلون فى دور من أدوار قوتهم إذ ذاك .

وإذا درسنا تاريخ هذا الجزء من العالم فى مختلف العصور نجد أن الظروف تقضى بأن ينشأ فى كل من مصر والعراق والأناضول دولة قوية هامة بالنسبة لمن يجاورها . ومن العسير جدا إذا كانت واحدة أو أكثر من هذه الدول الثلاثة على شىء من القوة أن تتحد فيما بينها لأن كلا منها تخاف على نفسها وحدودها ، وتخشى من استيلاء واحدة من الاثنين الآخرين على منطقة سوريا ، فإنها إن تم لها ذلك تصبح قوية وخطراً مباشراً على الدولتين الأخرتين . لهذا نرى التنافس بينها شديداً ، وإما أن يتفق اثنان على الثالثة أو تخضع جميعا لحكم أجنبى ، وإن ظهرت دولة قوية فى تلك البلاد (أى الواقعة بين القوى الثلاثة) فمن الصعب عليها أن تعمر وقتا طويلا اللهم إلا إذا كانت تلك الدول الكبرى الثلاثة تجتاز فترات ضعف وانقسام داخليين .

وما حل عام ١٢٠٠ قبل الميلاد حتى نرى الصورة فى بلاد الشرق الأدنى القديم وقد تغيرت معالمها . ويرجع ذلك إلى موجات كبيرة متتالية من هجرات الشعوب الهندو – أوروبية التى نزلت كالجراد فقضت على الحيثيين ، وفككت عرى

غربي آسيا ولم تجد في مصر دولة قوية لتوقفها . كما أن هذه الشعوب ذاتها اندفعت نحو البلقان فأحدث ذلك سلسلة متعاقبة من الهجرات كان من بينها هجرات شعوب البحر التي كانت تقطن في جنوبي وفي غربي أوروبا ، واضطرت تحت ضغط أولئك المهاجرين للبحث عن مواطن جديدة . وأرادوا غزو مصر بعد شمال إفريقيا وبعد سوريا ، ولكن مصر انتصرت عليهم . صدهم منفتاح (مرنبتاح) فأعادوا الكرة في عهد رمسيس الثالث (حوالى ١١٨٠ ق . م .) ، غزوها عن طريق البر وعن طريق البحر فصدتهم أساطيل مصر وجيوشها وفرقت شملهم . ونرى مناظر هذه المعركة البحرية الكبيرة ، وهي أول صدام سجلت مناظره بين مصر والشعوب الأوروبية ، على جدران معبد مدينة هابو في طيبة . أنقذت مصر نفسها وأنقذت الشرق ، فتفرقت هذه الشعوب المتحالفة واستقر كل فريق منهم في المكان الذي استطاع أن يثبت فيه أقدامه ، وقد بقيت أسماؤهم حتى الآن تدل على تلك البلاد مثل شعب البلست الذي استقر في المنطقة التي عرفت منذ ذلك الوقت باسم فلسطين وشعب الشردن الذي ترك اسمه في سردينيا وشعب الشكل في جزيرة صقلية وغير ذلك .

وظهرت مرة أخرى دويلات مستقلة ، وأخذ بعضها يتقدم في مدنيته مثل الفينيقيين الذين كانوا في مدن الساحل الشرقي للبحر الأبيض ، كما أخذت قبائل أخرى سامية تفد من الصحراء لتستقر في البلاد التي تفيض بالخيرات مثل قبائل العبرانيين التي أخذت تنازع الفلسطينيين ، ثم تأسست بعد ذلك مملكة داوود وابنه سليمان ، وقد لعب كل من الفينيقيين والعبرانيين دوراً هاماً في تاريخ العالم سنشير إليه مرة أخرى عند الكلام على تاريخ سوريا . ولكن للأمم القديمة فترات تمر بها بين ضعف وقوة ، وما هي إلا دورة أخرى حتى نرى المراكز القوية الثلاثة في جنوب غربي آسيا وهي العراق والأناضول ومصر ، وقد أخذت تستعيد حيويتها ونشاطها ، كما نرى أيضاً حضارة أخرى أخذت تتكون وتبسط نفوذها وهي الحضارة اليونانية وريثة الحضارة المينوية في كريت .

ولم تلبث تلك الشعوب حتى أخذت تعمل جاهدة لاستعادة مكانتها ، فأما مصر فأخذت تقوم وتكبو متعرضة أولا لحكم رجال الدين ثم حكم عائلة أخرى

كان أجدادها من مرتزقة الجنود الذين كانوا قد استوطنوا ليبيا من شعوب البحر إلى أن جاء اليوم الذى تقدم فيه ملوك نباتا فى شمال السودان وكانوا أصلا من الكهنة المصريين الذين فروا إلى الجنوب ، فغزوا شمال الوادى وأعادوا لمصر وحدتها مرة أخرى ، بل وأخذ طهرقا بن بيعنخى يفكر فى إعادة ما كان لمصر من أملاك ونفوذ فى جنوب غربى آسيا فتم له استعادة جزء منها ، وعلى الأخص فلسطين وبعض مدن الشاطئ .

الإمبراطورية الأشورية :

ولكن أشور فى شمالى العراق ، كانت قد استطاعت فى ذلك العهد أن تستولى على كل دويلات بلاد الرافدين وقضت على كل من ناوأها ، ثم تطلعت بأبصارها إلى سوريا فاستولت على جزء كبير منها وأصبحت وجهاً لوجه أمام مصر . وأخيراً انتهى الأمر بهجوم الملك الأشورى «أسر حدون » على مصر ثم استيلاء ابنه أشور بانيبال على طيبة ، وبذلك أصبحت أشور سيدة بلاد الشرق الأدنى دون منازع .

ولكن قبضة أشور الحديدية سرعان ما أصابها الوهن ، ودالت دولة أشور نفسها واستولت منافستها القديمة مدينة بابل مدينة على نينوى عاصمة الأشوريين وخربتها ، وعادت مصر وغيرها من الدول التى خضعت للإمبراطورية الأشورية إلى سابق عهدها .

ولكن قبل أن أترك دولة أشور أحب أن أشير إلى موضوع العرب . كانت شبه الجزيرة العربية بعيدة عن طريق الجيوش المتطاحنة بين العراق والأناضول ومصر . ولكنها مع تلك العزلة النسبية فى الأمور السياسية كانت على صلة بطرق التجارة العالمية ، سواء ما كان منها فى البحر الأحمر أو ما كان يخترقها من جنوبها إلى شمالها أو من شرقها إلى غربها من طرق القوافل . كانت تجارة البخور من أهم السلع المطلوبة فى العالم القديم ، ولكن كلمة العرب لم ترد فى أى وثيقة تاريخية فى العصور القديمة قبل أيام الملك الأشورى تيجلات — بلسر

الثالث فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان يشير إلى إحدى القبائل التى تقطن فى شمالى الجزيرة العربية . وبلغت أشور قة مجدها فى عهد أسر حدون وأشور بانيبال ، أى فى القرن السابع قبل الميلاد ، ولكن أشور انتهى أمرها فى القرن نفسه وبدأت الإمبراطورية الكلدانية ، أو كما يسميها البعض دولة بابل الجديدة ، فى عام ٦٢٦ ق . م . ولم تعمر إلا أربعة وثمانين عاماً فقط عندما ظهرت دولة الفرس وهى إحدى الدول التى أسستها الشعوب الهندو - أوروبية أو الآرية ، واستولت على بابل عاصمة الكلدان فى عام ٥٣٨ قبل الميلاد .

كانت فخامة العواصم العراقية مضرب المثل فى العالم القديم سواء ما كان منها فى نينوى فى الشمال أو فى بابل فى الجنوب ، وكان لدول أشور وبابل فضل لا ينكر على سير الحضارة العالمية ، ومن معينها أخذ الفرس - كما أخذ اليونان من قبل . ومهما أجملنا فى ذكر ملوك هذه البلاد فإننا لا يمكننا أن نمر بالملك بختنصر الذى بلغت فى عهده الدولة الكلدانية ، أو بابل الجديدة كما يسميها البعض ، أوج مجدها . وهو الذى استولى على أورشليم وهدم هيكل سليمان وفرق اليهود وسباهم فى بابل .

القرن السابع قبل الميلاد :

كان القرن السابع قبل الميلاد فترة من الفترات الغريبة فى تاريخ البشرية . رأينا فيه ازدهار الحضارة فى العراق ، ونعرف أنه حدث فيه أيضا انتعاش مصر العظيم فى عهد الأسرة السادسة والعشرين ونهضتها التى كادت أن تعيد بها مجدها القديم . كما نرى فيه أيضا نهضة الفريجيين ثم الليديين فى آسيا الصغرى . وفيه انتشرت تعاليم كونفوشيوس فى الصين ، وولدت خلاله فى الهند الديانة الجينية ذات الأثر المباشر على ظهور الديانة البوذية بعد قليل ، وبدأت فيه ديانة زرادشت فى هضبة إيران كما أخذت اليونان فى هذا القرن نفسه تتقدم بخطى سريعة وأصبحت عاملا هاما لا يمكن إغفاله فى سياسة حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفى الصراع على تجارته .

ولم يكن فى وسع مصر أن تقف مكتوفة الأيدى أمام هذا الصراع الفكرى والسياسى والتجارى فى هذا الجزء من العالم فبذلت كل ما استطاعته للمحافظة على كيانها . ولعب ملوك الأسرة السادسة والعشرين دورهم بمهارة ، وكان التنافس على التجارة هو أهم عامل فى توجيه السياسة ، فلهذا نرى الملك المصرى نكاو الثانى يحاول إعادة المشروع القديم الذى بدأه ملوك الأسرة الثانية عشرة على الأرجح وهو توصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر بواسطة النيل ، وذلك بحفر قناة توصل بين شرق الدلتا والبحيرات على مقربة من مدينة الاسماعيلية الحالية ، وهى نفس فكرة قناة السويس . ولكن نكاو اضطر لإيقاف هذا المشروع بعد تضحيات كثيرة نزولا على وحى من هيكل مدينة بوتو بأن هذا العمل ضار بمصر ولن يستفيد منه إلا أعداؤها الهمج . كما نعرف أيضا أنه حدث فى ذلك العهد أن أرسل هذا الملك ثلاث سفن كبيرة فى البحر الأحمر ، كان بحارتها من الفينيقيين ، ليكتشفوا سواحل إفريقيا فتم ذلك فى خلال ثلاث سنوات وعادوا إلى مصر عن طريق بوغاز جبل طارق .

الفرس واليونان :

وبينما كان ذلك التنافس على أشده ظهر فى بلاد إيران حاكم من زعماء القبائل ، وبسرعة أذهلت كل الشعوب قضى على كل منافسيه وقضى على مملكة بابل الجديدة وعلى مملكة ليديا فى آسيا الصغرى ، وخضعت له أكثر البلاد السورية . ولم يبق أمام قورش إلا مصر وأخذ يستعد لمهاجمتها ، ولكنه مات قبل أن يحقق هذه الأمنية فتمت على يدى ابنه قمبيز بمساعدة وخيانة بعض اليونانيين الذين كانوا فى خدمة الجيش المصرى .

أصبحت دولة فارس الجديدة سيدة بلاد الشرق الأدنى دون منازع وكانت إمبراطوريتها أعظم الإمبراطوريات التى عرفها العالم القديم ، ولم يبق أمام دارا الأول إلا أن يستولى على اليونان ليصبح سيد العالم كله ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق .

كان الصراع بين الفرس واليونان صراعا بين آسيا وأوروبا ، أو بين الشرق والغرب ، وبين بلاد الشرق القديمة وبين تلك الدولة الناشئة فى أوروبا ، صراعا بين دولة أنهكها البذخ والإقبال على الملذات ونهب الشعوب واستغلالها ، وبين شعب فتى أخذ يتطلع ليحتل له مكانا فى هذه الأرض . فلما تولى الإسكندر عرش مقدونيا خلفاً لأبيه سار يفتح الأمصار حتى قضى على فارس وأصبح فى سنوات معدودات حاكما لجميع الشعوب .

لم يكن الإسكندر الأكبر قائدا ممتازا فحسب ولكنه كان سياسياً بعيد المطامع ، وله آراء وأهداف اجتماعية يؤمن بها ويسعى لتحقيقها . أراد الإسكندر أن يجعل من ملكه الكبير دولة واحدة موحدة الثقافة . فتزوج أميرة فارسية ، وأمر أتباعه أن يحذوا حذوه كما قرر أيضا أن يجعل عاصمة ملكه الذى امتد شرقا حتى الهند فى مدينة بابل القديمة التى أخذ يصلح ما تهدم منها ليعيد إليها مجدها القديم .

وأخيراً فى عام ٣٢٣ ق . م . مات الإسكندر فى مدينة بابل وهو لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره ، فتحطمت أطماعه بموته ، وتقاسم قواده الأمصار المختلفة بينهم . وإذا كان الإسكندر لم يحقق حلمه فى جعل العالم القديم أمة واحدة تحت حكمه ، فإن النفوذ الهلينستى ، وبخاصة فى الفنون ، أخذ ينتشر انتشاراً واسعاً فى الشرق ، ومنذ هذا الوقت يدخل تاريخ بلاد الشرق فى دورة أخرى كبيرة من دوراته .

والآن ، وقد انتهينا من هذا العرض السريع ، فلنقف قليلا لنسرد بعض ما قدمه هذا الشرق للعالم وما تدين به المدنية الإنسانية له .

لقد استطاع ساكنو هذا الجزء من العالم الذى نسميه الآن الشرق الأدنى أن يحققوا الكثير من الأمور التى لولاها ما استطاع ركب المدنية أن يسير فى تقدمه إلى الأمام .

لقد استطاع ساكنوه أن يستأنسوا بعض الحيوانات النافعة التى أمدتهم بالغذاء والكساء ، ودجنوا بعض النباتات وزرعوها فتعلم الإنسان الاستقرار ،

وكان لذلك نتائج ثورية فى حياته . علمته الزراعة معنى التعاون ، وعلمته أيضاً أنه فى حاجة إلى الزعامة المطاعة ، ووضع بعض القواعد لتنظيم حياته واخترع كثيراً من الأدوات النافعة له . كما اخترع أيضاً بعض الآلات ، وعرف صناعة المعادن ، وكان أهم اختراع له بعد الزراعة هو اختراعه للكتابة . تم هذا كله ، وكثير غيره ، قبل أن يشرق عليه مطلع الألف الثالث قبل الميلاد عندما دخل إذ ذاك فى عصره التاريخى .

وأخذ منذ هذا التاريخ يثب وثباً فى تقدمه ، وبخاصة فى مصر والعراق . فنظم قوانينه، ونظم وظائف الدولة، ورتب أمور دينه ، لأنه كان يؤمن بالبعث. وعرف أيضاً كيف يبنى ويشيد ، فأقام المعابد والأهرام وتقدم فى الصناعات والعلوم المختلفة وعلى الأخص فى علم الطب . ووصل فى كثير من تلك الصناعات إلى درجة من السمو ما زلنا نحسده عليها حتى اليوم وذلك قبل أن ينتصف الألف الثالث ، وكانت مصر فى هذه الفترة هى المسرح الذى تحققت فوقه أكثر المعجزات . وقام أيضاً ساكنو العراق بنصيبهم الكبير ، وحققوا الكثير من عناصر التقدم مستقلين عن مصر ، وأقاموا لآلهتهم المختلفة كثيراً من المعابد والزقورات ، وسنوا القوانين الكثيرة ، وخلفوا للعالم الشىء الكثير من الأدب وأساطير الآلهة التى كان لها ، بل وما زال لها حتى الآن ، أثر كبير على التفكير الإنسانى لا فى العراق أو فى بلاد الشرق الأدنى وحسب بل وفى العالم كله . وفى هذا الجزء من العالم قامت أعظم الإمبراطوريات ونشأت أول الجيوش المنظمة وشيدت أعظم القصور ، وكان ذلك قبل أن تنزل عليه الهجرات الآرية الكبيرة فى الألف الثانى قبل الميلاد ، فتحطم ما أمامها كالعاصفة وتترك وراءها الخراب . ولكن سرعان ما استطاع هذا الشرق أن يفيق من ذهوله ، واستوعب أولئك الفاتحين فعلمهم الحضارة ولين النفس . كان هذا كله قبل أن يكون لأى شعب من سكان القارة الأوروبية أى شأن ، بل كانوا يعيشون فى عصورهم الباليوليتية والميزوليتية ثم النيوليتية ولم يتقدموا إلا بعد أن اتصلوا بالشرق وعلومه ، وخصوصاً عندما تقدم الأناضول وشمال سوريا بفضل حضارتى مصر والعراق ، وكانا النبراس الذى

اهتدى بهديه ونوره من اتصل بهم من سكان أوروبا . وقد اعترف اليونان الأقدمون — بل أنهم فى الواقع كانوا يفخرون ويعتزون — بأنهم تعلموا أكثر أصول حضارتهم من مصر أو من بابل . إن تاريخ الشرق القديم صراع مستمر ، نراه تارة بين سكان الجبال وسكان السهول ، وتارة أخرى بين سكان البادية وسكان القرى المزروعة ، أو نراه على نطاق واسع بين الشعوب السامية وغيرها من الشعوب . وما زال هذا الشرق يصطلى بهذا الصراع حتى اليوم لأنه كان ، وما زال ، مطمعاً للطامعين ، إن لم يكن بأرضه الغنية ومدنياته وخيراته ، فبما تحويه أراضيه من ثروات معدنية عظيمة ، وموارد اقتصادية هائلة .

لقد أثرت ديانات الشرق القديم على التفكير والخلق الإنسانى بوجه عام ، بل ومازالت بعض خرافاته القديمة سائدة بين شعوب أوروبا وحيثما وصل النفوذ الأوروبى الحديث . ولكن هذا الشرق عينه ، وهذا الجزء من الشرق العربى بالذات ، هو الذى قدم للإنسانية ثلاثة من أعظم معلميها وأبطال دياناتها السماوية التى يعتز بها البشر أجمع . لقد ولد موسى ونشأ فى مصر ، ولم يكن قومه العبرانيون إلا من أهل هذا الشرق ، وربما من شمال الجزيرة العربية أو من أرض الفرات ، ولكنهم كانوا يعيشون إذ ذاك فى مصر ، وكان عيسى سورياً ولد ونشأ فى فلسطين ، وولد محمد فى مكة فى وسط الجزيرة العربية . حقا إن النور يطلع دائما من الشرق .

الفصل الثالث

سُورِيَا

موقعها الجغرافى :

إذا تحدثنا عن سوريا فى التاريخ فإنا لا نقصد بها سوريا بحدودها السياسية الحالية[1] ، وإنما نعنى المنطقة التى أطلق عليها هذا الإسم فى جميع عصور التاريخ حتى آخر أيام الحرب العالمية الأولى ، وتقطيع أوصالها بعد ذلك على يد الاستعمار الأجنبى[2] . فحدود سوريا أو بلاد الشام هى من ناحية الشرق صحراء العراق ، ومن الغرب ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ويحدها من الشمال جبال طوروس فى جنوبى الأناضول ومن الجنوب صحراء شبه الجزيرة العربية أى أنها كانت تشمل لبنان وشرق الأردن وجزءاً كبيراً من فلسطين ، وبعبارة أخرى هى المنطقة التى تقع بين بلاد النهرين وخيتا ومصر ، وهذا ما جعل سوريا فى جميع العصور ـ اللهم إلا فى فترات محدودة من تاريخها ـ معرضة لأطماع ما ينشأ فى تلك البلاد من امبراطوريات ، أو ميداناً للصراع بينها . فشاهدت جبالها ووديانها كثيراً من جيوش الأمم المختلفة من بابل ومن أشور ، ومن مصر ومن إيران ومن خيتا ،

---

(١) مساحة سوريا الحالية ٦٦,٠٦٣ ميلا مربعا وتعداد سكانها نحو أربعة ملايين .

(٢) قضت سياسة الاستعمار بعد انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى وكذلك منطقة الأردن ، أما لبنان وسوريا فوضعتا تحت الانتداب الفرنسى . ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل قسموا منطقة انتدابهم ، فأعلنوا فى عام ١٩٢٥ أن كلا من لبنان وسوريا قد أصبح دولة مستقلة عن الأخرى ، وأخذوا أيضاً فى تمزيق ما بقى من سوريا نفسها فقسموها إلى مناطق أخرى مستقلة فى إدارتها وخلقوا قضاء جبل الدروز وقضاء اللاذقية . وقبيل الحرب العالمية الثانية تنازلوا للأتراك عن لواء الأسكندرونة ، وهو من أهم المناطق فى سوريا وفى سبتمبر سنة ١٩٤١ أعلنت جمهورية سوريا ، وفى نوفمبر من العام ذاته أعلنت الجمهورية اللبنانية ، وفى أول يناير ١٩٤٤ تم إعلان استقلال سوريا النهائى ، ولكن انسحاب الجنود الأجنبية لم يتم إلا فى ١٧ أبريل ١٩٤٦ .

ثم شاهدت أيضا جيوش الإسكندر ومن بعده الرومان . وجاءها العرب ومن بعدهم المغول ثم الترك . وكانت أيضاً ميدان الصراع فى أيام الحروب الصليبية ، وتعرضت فى أيامنا الحالية لاستعمار الغرب وويلاته . ولكن بالرغم من ذلك كله فقد بقى للبلاد طابعها الخاص بالرغم من أنها غيرت ديانتها ولغتها أكثر من مرة .

وتمتاز سوريا باختلاف بيئتها الجغرافية . ففيها سهول ساحلية خصبة ذات موانىء بحرية صالحة ، وفيها وديان وفيها جبال وعرة تتخللها مناطق أشبه بالواحات تمتاز بخصوبة ما حولها من أراضى . كما توجد فيها أيضاً مساحات واسعة من الأراضى الصالحة الزراعة ، ولكن قلة مشروعات الرى وقلة الأيدى العاملة حالت دون استغلالها . وفيها أيضا مساحات صحراوية واسعة لا تقل عن أربعة مليون فدان من المجموع الذى يبلغ نحو اثنى عشر مليونا من الأفدنة[1] .

وتمتاز سوريا بجبالها ووديانها ، ولكننا لو أمعنا النظر لوجدنا أنها يمكن أن نقول عنها إنها مقسمة طولياً إلى خمسة أقسام أولها المنطقة الساحلية وتمتد من خليج الإسكندرونة عند جبال أمانوس ، أحد امتدادات جبال طوروس ، حتى شبه جزيرة سيناء ، ويحد هذا القسم من الشرق سلسلة جبال عالية تقترب فى بعض الأماكن اقتراباً كبيراً من الساحل وبخاصة فى لبنان وتبتعد عنه فى بعض الأجزاء مثل فلسطين ، ويبلغ طوله بأكمله من الإسكندرونة حتى الحدود المصرية أكثر قليلا من ٧٠٠ كيلو متراً . أما ثانى الأقسام فهو تلك السلسلة من الجبال التى تسمى جبال لبنان ، وهى تمتد من أقصى الشمال حتى السويس ، وليس فيها فتحات ذات أهمية إلا تلك التى عند خليج الإسكندرونة حيث يسير الطريق التجارى الكبير الموصل إلى ما بين النهرين ، وفتحة أخرى فى شمال طرابلس فى وادى نهر الكلب الكبير (اليثيروس Eleutherus) وفى شرق حيفا عند سهل أزدريلون (Esdraelon ـ مرج ابن عامر) . وأعلى قمم جبال لبنان هى القرنة السوداء وارتفاعها ١١,٠٢٤ قدما عن سطح البحر ، ويليها ضهر القضيب وهى تقل عنها نحو مائة قدم .

---

(١) الأرض الصالحة للزراعة والمزروعة فعلا فى مصر لا تزيد مساحتها عن ستة ملايين من الأفدنة وهى لا تزيد فى مجموعها عن ٤ ٪ من مساحة مصر كلها ، أما الباقى فهو صحراء .

وتحتضن غابة الأرز الشهيرة ، ثم تأتى بعد ذلك قمة صنين وهى تقل عن ضهر القضيب بمائة قدم فى ارتفاعها ، وتقع مدينة بيروت تحتها .

وثالث الأقسام هى المنطقة التى تقع إلى الشرق من سلسلة الجبال العالية وتمتد من الشمال عند الانحناءة الغربية لنهر العاصى ، وهو وادى طويل ممتد من الشمال إلى الجنوب يسمى « العمق » فى الشمال وفيه مدينة حماة التى ترتفع ١٠١٥ قدما عن سطح البحر ، ويسمى البقاع فى لبنان ويمتد حتى يتصل بوادى الأردن والبحر الميت ثم وادى عربة حتى خليج العقبة . وفى الجزء الأسفل منه ينخفض هذا السهل انخفاضاً سريعاً إلى حد كبير ، فبينما نعرف أن مستوى قاع بحيرة الحولة ٧ أقدام فوق سطح البحر نعرف أن مستوى قاع بحيرة طبرية ٦٨٥ قدما تحت سطح البحر وقاع البحر الميت ١٢٩٢ قدما تحت سطح البحر .

أما وادى البقاع فى لبنان فإن عرضه يتراوح بين تسعة كيلو مترات ونصف وستة عشر كيلو مترا ، وارتفاعه عن سطح البحر عند بعلبك ٣٧٧٠ قدما ، وعلى مقربة منه يتفرع نهران أحدهما نهر العاصى أكبر أنهار سوريا ويتجه نحو الشمال ، ونهر الليطانى الذى يتجه نحو الجنوب ويصب فى البحر بين صيدا وصور . أما وادى الأردن فيبلغ طوله نحو ١٠٠ كيلومترا فى الطول وبين ٤ و ٢٢ كيلو مترا فى العرض .

والقسم الرابع هو سلسلة الجبال الأخرى التى تحد العمق والبقاع من الناحية الشرقية ، وهى تبدأ من جنوبى حمص وتسير موازية لجبال لبنان حيث تسمى أنتى لبنان أو لبنان الشرقية ثم تنخفض عند جبل الشيخ (جبل هرمون القديم وقد ذكره المقدسى الجغرافى العربى باسم جبل الثلج) إلى منطقة حوران التى تمتد بعد ذلك إلى شرق الأردن ثم إلى جبل جلعاد وهضبة مواب جنوبى البحر الميت .

وتنقسم جبال أنتى لبنان أو لبنان الشرقية إلى قسمين شمالى وجنوبى ، تقسمها الهضبة ونهر بردى (نهر أبانا فى العصور القديمة) ، والجنوبى هو الأهم ، ونجد فيه اخصب مناطق سوريا حول دمشق ويرويها نهر بردى . وحوران وجبل الدروز

منطقة بركانية التكوين ولكنها خصبة وفيها زراعات واسعة ، ومن حوران نرى امتداد هذه السلسلة فى شرق الأردن حتى تصل أخيراً إلى بطرا فى الجنوب .

وخامس الأقسام هو الصحراء السورية الممتدة حتى العراق ، وهى فى الواقع امتداد الصحراء العربية ، وهذه الصحراء مثلث واسع يرتكز طرف منه فى خليج العقبة فى الغرب والطرف الثانى عند خليج الكويت فى الشرق ورأسه عند حلب فى الشمال .

ويعيش فى هذه الصحراء الواسعة أقوام من البدو كانوا منذ فجر التاريخ المتحكمين فى دروب القوافل التى تمر هناك ، وكانوا دائما أشبه بخزان إنسانى يمد المدن السورية بسكان يأتون ليستقروا فى المدن . وكان هناك أيضاً منذ فجر التاريخ ذلك الطمع الذى يملأ صدر البدوى الذى لا يكاد يمتلك شيئاً ضد ساكنى المدن الذين يجمعون الثروة ، وينظر دائماً إلى الحدائق والحقول نظرة إعزاز وإكبار ، ويتمنى أن تصبح خيراتها ملكا له . ولكن من الصعب عليه أن يترك حياة الحرية التى يحياها أو يتغير بسرعة فيستقر فى الأرض ويعمل فى خدمتها ، مثله الأعلى هو الحصول على خيراتها دون أن يعمل هو شيئاً بيده فى زراعتها ، وإن عمل شيئاً فأحب شىء إلى نفسه هو الاستيلاء عليها أو نهب ما فيها إذا أمن العاقبة والعقاب.

وكان من أثر اختلاف البيئة الجغرافية اختلاف السكان فمنهم البدو أو العشائر ومنهم سكان الجبال ، ومنهم أيضاً سكان المناطق الساحلية وسكان المدن العامرة . ولهذا لا يدهشنا أن نرى فى كثير من مناطقها الجبلية المنعزلة بقايا من شعوب وديانات قديمة زالت من البلاد الأخرى ولكنها بقيت فى سوريا ، مثل السامرائيين اليهود فى نابلس والدروز الذين يعيشون فى جبل الدروز فى حوران وغيرها من الجهات ، والمارون فى لبنان والنصيرية فى بلاد العلويين ، وبعض المذاهب الباطنية الأخرى ، كما بقيت أيضاً بعض اللغات القديمة مستخدمة بين أهلها مثل اللغة السوريانية .

وإذا كانت طبيعة البلاد السورية ، وموقعها الجغرافى ، قد أثرا على تاريخها فإن هناك عاملا آخر لا يقل فى أهميته ، وذلك هو الصراع الذى لم ينقطع منذ

فجر التاريخ بين البـــدو والحضر . فن الجزيرة العربية ، ومن صحراء العراق ، بل ومن الصحراء السورية أيضاً كان البدو دائماً يتطلعون إلى مروجها الخضراء وسنرى أن ذلك استمر طيلة أيام تاريخها وما زال مستمراً حتى اليوم .

عصر ما قبل التاريخ :

لقد أشرت إلى تاريخ سوريا فى عصر ما قبل التاريخ عند حديثى فى الفصل الأول عن أقدم الحضارات ، وذكرت بعض مناطقها الأثرية القديمة ، والآن أتحدث عنها بشىء من التفصيل .

أمدتنا المناطق الأثرية فى سوريا بمعلومات فى الدرجة الأولى من الأهمية عن عصر ما قبل التاريخ فى بلاد الشرق ، إذ عثر على كثير من آثار العصر الحجرى القديم فى كثير من الأنحاء نذكر منها عدلون (بين صيدا وصور) وفى أنطلياس ، وفى كهوف جبل الكرمل (فى مغارة الطابون) وكلها على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وفى منطقة الجليلية جنوبى الناصرة (فى مغارة أم قطفة) وعلى مقربة من بحيرة طبرية (فى مغارة الزطية) فى وادى العمود ، وفى أريحا ، وفى وسط سوريا أيضاً فى جبرود ، وفى رأس الشمرة (أوجاريت) فى الشمال[١] .

ومن أهم الهياكل العظمية التى عثر عليها فى جبل الكرمل والجماجم التى وجدت فى مغارة الزطية أمكن الاستدلال على أنها من نوع إنسان النياندرتال مع بعض المميزات الخاصة بالإنسان العاقل (هوموسابينس) . وعثر أيضا على كثير من الأدوات الظرانية التى استخدمها السكان القدماء الذين عاشوا فى العصر الباليوليتى الأوسط كما عثر على بقايا حيوانات لم يعد لها وجود الآن فى هذه البقعة من العالم مثل الخرتيت (وحيد القرن) وفرس النهر ، وحيوان يشبه الفيل .

ويبدأ بعد ذلك العصر النيوليتى ، أو العصر الحجرى الحديث ، ويسمى أحيانا عصر قبيل التاريخ وكان ذلك حوالى عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد . ونرى فيه بواكير

(١) Theodore D. Mc Cown *and* Arthur Keith, *The Stone Age of Mount Carmel Vol. II* (1939) . *cf.* Ph. K Hitti, *History of Syria* (1951), *p.* 11.

ظهور الحضارة فى كثير من بلاد الشرق الأدنى مثل سيالك فى إيران وجارمو وتل حسونة فى العراق . ونجد من نفس العصر فى سوريا أقدم الطبقات فى بيبلوس وفى أوجاريت وفى حماه وفى أريحا . وحوالى عام ٤٠٠٠ ق . م نجد أن الأوانى الفخارية ، وبعضها ملون ومزخرف ، قد بدأ يعم استعمالها ونجد بين زخارفها أشكالا تمثل حيوانات وبخاصة بعض أنواع الأيائل والطيور والأسماك ، وبعض زخارف الزهور . ونرى بعد ذلك تقدما واضحا فيما عثر عليه فى تل حلف (أو آل حلف) على مقربة من نهر الخابور فى شمالى سوريا على مقربة من الحدود التركية[1] ، وقد امتازت هذه الحضارة بأوانيها الفخارية المزخرفة بزخارف ذات ألوان ورسومات متعددة تشهد لهم بالتقدم العظيم فى الفن والذوق .

كانت حلف مركزا لهذا التقدم الحضارى الذى انتشر فى البلاد الواقعة إلى الشرق منهم (فى العراق الحالية) وفى مرسين فى الأناضول . وفى كثير من مناطق أعالى الفرات مما يدل على زيادة الصلة التجارية فى ذلك العهد .

ولم يكن استخدام الفخار وحده هو الشيء الذى يدل على بداية العصر النيوليتى بل يصحبه أيضا معرفة التعدين ، ويمكننا أن نقول إنه حوالى عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد نجد ما يدل على معرفة التعدين واستخدام الأدوات المعدنية جنبا إلى جنب مع الفخار . نرى ذلك فى أوجاريت وغيرها من مناطق سوريا الشمالية وفى فلسطين مثل تليلات الغسول شمالى البحر الميت .

لقد عرف سكان سوريا القدماء استخدام النحاس ، ويميل بعض المؤرخين إلى القول بأن باقى سكان غربى آسيا قد تعلموا منهم ذلك . ولكن هذا الزعم فى حاجة إلى الدليل ، وربما كان العكس هو الأصح ، إذ نعرف أن تعدين النحاس كان معروفا أيضا فى مصر فى عصر البدارى وأن استغلال مناجم النحاس فى سيناء ، كان معروفا للمصريين منذ أقدم العصور .

---

(١) الاسم القديم لهذه المدينة هو « جوزانا » . حفرها أوبنهايم .
Max F. von Oppenheim, *Der Tell Halaf* (*Leipzig* 1931).

ونرى فى تليلات الغسول[1] أنهم لم يعرفوا النحاس فحسب بل بدأوا أيضا يعرفون فن البناء ، وكانت لهم منازل مستطيلة الشكل أساسها من كتل الأحجار وجدرانها من الطوب اللبن ، وكانوا يسقفونها بأعواد النباتات ومن فوقها الطين.

ومما نلاحظه فى تليلات الغسول أنهم كانوا يدفنون الأطفال داخل أوانى فخارية تحت أرضية غرف المنزل . كما نلاحظ أيضا أن عادة حرق الجثث كانت معروفة بينهم، وكانت عادة دفن الأطفال فى الأوانى عادة منتشرة فى مناطق أخرى فى سوريا مثل أوجاريت وتل الجزر (جزر) جنوب شرق الرملة فى فلسطين . وعلى ذكر جزر وآثارها يمكننا أن نضيف إلى معلوماتنا عن ذلك العصر أنهم بدأوا يضعون مع الموتى أوانى فخارية فيها المآكل والمشرب ، مما يدل على وجود ديانة بينهم ، وإيمان بالبعث . كما عثر أيضا تحت الهيكل فى ذلك التل على بقايا من حيوان الخنزير الذى كان يقدمه سكان سوريا القدماء إلى آلهتهم . وربما كان ذلك التكريم سببا لكراهية الساميين لهذا الحيوان[2] ، وهم الذين وفدوا بعد ذلك إلى تلك البلاد وحاربوا أهلها ، وناصبوهم العداء ثم حلوا فيها .

ومن نتائج حفائر تل الجزر نعرف أن سكان سوريا كانوا قد أتموا استئناس وتدجين كثير من الحيوانات والنباتات ، ومن أهم النباتات التى عثر على بقاياها ، العنب والزيتون ، وكانوا يعصرونهما فى ذلك العهد البعيد ، والتين والقمح والشعير وبعض الخضروات مثل البصل والثوم والحمص والفول والخس وغيرها . ومن المرجح جداً أن يكون سكان شرق آسيا (الصين) قد وصل إليهم القمح من غربى آسيا كما وصل إليها الثور والضأن أيضاً من هذه المنطقة بعد استئناسها فيها[3] .

---

(1) Alexis Mallon, *Telilat Ghassul I* (*Rome*, 1932) : Robert Koeppel, *Teleitat Ghussul II* (*Rome*,1940).

(2) R. A.Maclister, *The Excavations of Gezer, 3 Vols* (*London* 1912). *see also*, Hitti, *History of Syria* (*London* 1951), *p.* 25.

(3) C.W. Bishop, *The Beginning of Civilization in Eastern Asia. in Journal of the American Oriental Society, Vol. Lix Suppl.* (*December*, 1939).

وفى عصر تليلات الغسول أخذت الحضارة تعم فى مختلف بلاد سوريا ، وكانت من نفس النوع تقريبا . نراها فى أريحا وفى مجدو (تل المتسلم فى فلسطين) وفى عفولة وفى بيت شان (بيسان) ولا شيش (تل الدوير) ورأس جاريت (رأس الشمرة) وبيبلوس (جبيل أو جبلة) .

ونصل الآن إلى نقطة هامة فى البحث ، فقد أشرت قبل الآن عند ذكر هيكل قلب الجزء إلى ما كان من عداوة بين الساميين ومن كان قبلهم من سكان فلسطين ، فمن كان هؤلاء الناس وإلى أى جنس كانوا ينتمون ؟

لقد احتل هذا الموضوع جانباً كبيراً من اهتمام علماء الأجناس والرأى السائد هو أنهم كانوا دون شك من جنس البحر الأبيض المتوسط الذى يعتبر الساميون فرعا منه . وقد عاش فى هذا الجزء من العالم ، بين سكانه ، بعض الساميين المنتمين فى الأصل إلى شمالى الجزيرة العربية ولكنهم كانوا أقلية قبل أن يهاجروا هجرتهم الكبيرة حوالى عام ٣٠٠٠ قبل مولد المسيح . وعلى أى حال فإن أقدم السكان ربما كانوا ينتمون إلى الجنس الأصلى الذى تفرع منه فيما بعد كل من الساميين والحاميين ، وكانت لغتهم غير سامية بدليل ما بقى من أسماء مدنهم مثل دمشق وتدمر[1] .

وقد ذكرت التوراة (سفر التكوين الإصحاح السادس آية ٤) أولئك السكان القدماء ولكنها لم تصفهم بشىء أكثر من أنهم « طغاة » . ولكن مثل

---

(١) هناك رأى يقول بأن لفظة دمشق سامية ومأخوذة من كلمتى دار مشق ، وكلمة دار بمعنى حصن ولكن تقوم دون ذلك عقبات كثيرة لأن أقدم كتابة لها فى نصوص رسائل العمارنة (Dumashqa, Dimasqa, Timashgi) أما كتابتها بالراء Tiramaski فإنها أحدث وهى من عهد رمسيس الثالث . أما عن تدمر فربما كانت من السريانية Tedmorlâ بمعنى يعجب ب ، وقد ذكر يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى أن السوريين كانوا ينطقون اسمها Thadamora (Antiquities Bk VIII, ch. 6 & 8) وقد بقى هذا الاسم فى العربية . وعلى أى حال فإن تفسير أصل اسم تدمر مثل تفسير اسم دمشق ما زال غير مؤكد ، وهو على أى حال غير سامى الأصل .

هذا الوصف لا ينير أمامنا الطريق فى كثير أو قليل . ويكفى أن نقول إننا لو حكمنا بنتائج حفريات مجدو وتليلات الغسول فإن سكان سوريا قبل وصول الهجرات السامية كانوا يعرفون التعدين ، وكانوا يعرفون النحت ، وكانوا يستخدمون الأختام ، ولهم ذوق فنى فى الحلى كما عرفوا أيضاً عمل التماثيل سواء ما كان منها للإنسان أو الحيوان ، كما بنوا البيوت وزخرفوا جدرانها بالرسوم الملونة التى تمثل أجساماً بشرية فى تليلات الغسول .

ولا شك أن ذوقهم الفنى قد وضح فى صناعة الحلى وزخرفة المنازل ولكنه وصل إلى قمته فى زخرفة الأوانى الفخارية ، وقد عرفوا التزجيج فى ذلك الوقت البعيد واستخدموه فى الأوانى .

ومن الأشياء التى تستحق الذكر تلك التماثيل النحاسية التى عثر عليها فى تل الجديدة فى شمالى سوريا ومن بينها إله وإلهة للخصب يوجدان الآن فى متحف المعهد الشرقى بشيكاجو ، ويظن أنهما أقدم تماثيل إنسانية فى العالم مصنوعة من المعدن.

امتازت القرون الأخيرة من الألف الرابع قبل الميلاد فى جميع بلاد الشرق الأدنى بالتقدم الحضارى السريع وكثرة اتصال الشعوب ببعضها البعض ، والإقبال على مصنوعات بعضها البعض ، وربما كان ذلك التقدم راجعاً قبل أى شىء آخر إلى تلك الثورة العظيمة فى حياة البشر وهى ثورة الانتقال من حياة جمع القوت إلى إنتاجه ، والاستقرار فى قرى ثابتة واستخدام الأدوات المعدنية فى الزراعة مما ساعد على توفير المحاصيل فى كل مكان ، وكان لاختراع الفخار شأنه أيضاً لاستخدامه فى تخزين الفائض لأيام الحاجة .

وأخيراً جاء اليوم الذى تقدم فيه الإنسان خطوته التى نقلته من عصر قبيل الأسرات أو « العصر الحجرى النحاسى » أو « عصر ما قبل الكتابة » إلى العصر التاريخى ، وذلك عندما توصل إلى اختراع الكتابة . وقد حدث ذلك فى وقت متقارب ، وعلى حدة ، فى كل من مصر والعراق . وقد انتقلت الكتابة إلى شمال

سوريا من الأخيرة منهما ، كما انتقلت إلى جنوبى سوريا أى فلسطين ومدن الشاطىء الفينيقى من مصر .

أقدم الصلات بين مصر وسوريا :

لا يستطيع أثرى أو مؤرخ أن يحدد تاريخاً لبدء الاتصال بين سكان وادى النيل وجيرانهم فى سوريا إذ أن صحراء سينا ، لم تكن فى يوم من الأيام عقبة أو حائلا يمنع السفر أو الانتقال ، خصوصاً وأن سكانها من البدو كانوا دائماً ، وما زالوا حتى اليوم ، فروعاً من القبائل التى تعيش وتتجول فى المنطقة التى نسميها اليوم شمالى الجزيرة العربية والأردن وجنوبى فلسطين . ولكن سكان سيناء من البدو كانوا هم ، ومن جاورهم ، منذ عصر ما قبل الأسرات يغيرون على البعثات التى تذهب لتعدين النحاس وغيره من خامات المعادن ، أو حجر الفيروز ، فلهذا نرى فى النصوص المصرية ما يشير إلى الحملات التأديبية على البدو القاطنين هناك[1] ، وفى وادى المغارة فى سيناء كثير من النقوش التى تمثل بعض ملوك الدولة القديمة المعروفين أمثال زوسر وسنفرو وخوفو (الآن فى متحف القاهرة) وغيرهم وهم يؤدبون بدو تلك المنطقة .

ولنترك الطريق البرى الآن ولنتحدث عن طريق البحر . فمن المحتمل أن مشاق السفر فى ذلك الطريق ، وخصوصاً قبل استخدام الجمال ، وما يتعرض له المسافر من أخطار النهب جعل المصريين منذ أقدم عصورهم يتخذون طريق البحر للوصول إلى الشاطىء . وفى أسطورة أوزيريس إشارة إلى صلة مصر بميناء بيبلوس (جبيل) ولو تركنا الأسطورة جانباً فإنا نرى من بين ما وصل إلينا من آثار الأسرة الأولى ما يثبت إحضار أخشاب الأرز من لبنان إلى مصر منذ ذلك العهد البعيد ، بل نحن واثقون أن الصلة كانت أبعد من ذلك ، وأنه منذ الأسرة الرابعة

(١) T. Eric Peet, *The Early Relations of Egypt and Asia, Journal of the Manchester Egyptian and Oriental Society* 1915, p. 27-48.

المصرية على الأقل كانت تعيش جالية مصرية للتجارة فى ذلك الميناء ، وكان فيها معبد عثر على بعض أحجار منه ، وعليها أسماء بعض ملوك الدولة القديمة[1] ، ونعرف من نقوش حجر بالرمو أن الملك سنفرو ، والد خوفو بانى الهرم الأكبر ، ومؤسس الأسرة الرابعة المصرية قد أرسل أسطولا من أربعين سفينة لإحضار أخشاب الأرز من لبنان وما زال الكثير من تلك الأخشاب باقياً حتى اليوم فى داخل هرمه فى دهشور وهى مازالت بحالة جيدة ويؤدى بعضها إلى الآن ما أقيمت من أجله فى تثبيت بعض كتل الأحجار أو حملها رغم مضى أكثر من ثلاثة آلاف وستمائة سنة [2] .

كما نعرف أيضاً أن السفينة الكبيرة التى عثر عليها عام ١٩٥٤ فى الجهة القبلية خارج هرم خوفو مصنوعة أيضاً من أخشاب الأرز التى جيء بها من تلك البلاد .

لم تكن الصلة بين مصر وبلاد فلسطين أو الشاطئ الفينيقى إلا صلة تجارية فقط ، ولكن فى الأسرة الخامسة المصرية أى حوالى عام ٢٥٤٠ قبل الميلاد ، فى نقوش معبد الملك ساحورع فى أبو صير ، نجد مناظر إقلاع وعودة أسطول مصرى إلى شواطئ فينيقيا . ويرجح كثير من المشتغلين بالآثار أن استقبال الملك لهذا الأسطول يحف به كبار الموظفين دليل على أن ذلك الأسطول لم يذهب للحرب أو التجارة وإنما كان فى رحلة ودية إلى تلك البلاد ، وربما عاد بأميرة من الأميرات لتصبح زوجة لفرعون . ولا نجد أى منظر يمثل أعمالا حربية إلا فى مقبرتين ربما كانتا من أواخر الأسرة الخامسة أو أوائل السادسة إحداهما فى دشاشة فى محافظة بنى سويف والأخرى فى سقارة ، وتمثل كل منهما مهاجمة الجنود

---

(١) P. Montet, *Byblos et l'Egypte* pp. 29-59; 273-4.

(٢) Ahmed Fakhry, *The Bent Pyramid of Dahshur* (Cairo, 1954) p. 4 and PL. II.

أنظر أيضا كتابى مصر الفرعونية (الطبعة الثانية أكتوبر ١٩٦٠) ص ١٠٠ وشكل رقم ٦ فى اللوحات . التفاصيل الكاملة منشورة فى كتابى :

The Monuments of Sneferu at Dahshur, vol. 1. (1959)

المصريين لأحد الحصون فى جنوبى فلسطين ، وربما كان ذلك تأديباً لسكان تلك المنطقة لاعتدائهم على القوافل المصرية

وهناك أيضاً من الأسرة السادسة المصرية ، ومن عهد الملك ببي الأول ، وثيقة هامة وهى لوحة القائد المصرى « أونى » الذى عاش حوالى عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد . فهو يذكر أنه جهز جيشاً من عشرة آلاف شخص من أبناء الصعيد والنوبة ، وأنه نجح فى حملته وأن جنوده كانوا مثالا لما يجب أن يتحلى به الجندى فلم يتعرض واحد منهم لأى شخص فى أى بلد مروا به ، ولم يغتصب أحد منهم شيئاً مهما قلت قيمته ، إلا أنه يشير إلى أشجار التين وكروم العنب وبلاد آهلة بالسكان ، مما يرجح أن الحملة كانت على جنوبى فلسطين . ولكن هناك نقطة أخرى هامة فى ذلك النقش . لقد ذكر « أونى » أنه ذهب مرّة ثانية لإخماد ثورة قامت فى تلك البلاد فجهز جيشين سار أحدهما بطريق البر وذهب هو مع الجيش الآخر بطريق البحر ، وأنهم نزلوا عند مكان يحتمل أن يكون على مقربة من جبال الكرمل ، وأنه سار بعد ذلك فى داخل البلاد وقمع تلك الثورة . وهذا يرجح أن التجارة بين مصر وآسيا لم تعد قاصرة على مدن الشاطىء . كانت القوافل المصرية تسير إلى داخل البلاد على الطريق التجارى الكبير ، وأنه رغم كلمة الثورة والقمع فإننا واثقون من أن فكرة الغزو أو نشر النفوذ السياسى كانت بعيدة كل البعد عن الذهن المصرى فى ذلك العهد ، وأن ملوك مصر لم يهتموا إلا بأن يكون الأمن سائداً وقوافل التجارة آمنة .

وتعرضت مصر فى أواخر أيام الأسرة السادسة إلى فترة ضعف وانحلال ، وهذه هى ما نسميه عصر الفترة الأولى التى استمرت طيلة أيام الأسرات السابعة حتى نهاية العاشرة . كانت حدود الدلتا فى تلك الفترة معرضة لغزو بعض جماعات من البدو الذين كانوا يأتون عن طريق الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء . وفى مثل هذه الظروف لا يمكننا أن نتوقع أن يكون لمصر أى نشاط سياسى أو تجارى كبير خارج حدودها ، وعلينا أن ننتظر حتى تعود للبلاد قوتها فى الأسرة الثانية عشرة حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

لقد عرفنا الآن ملخصاً للعلاقات بين مصر وسوريا فى الألف الثالث قبل الميلاد ، ويحق لنا الآن أن نتساءل عما كان سائداً فى البلاد نفسها ومع من كان يتجر المصريون ؟

سوريا فى الألف الثالث قبل الميلاد :

كان سكان سوريا القدماء بصفة عامة خليطا من أجناس مختلفة نظراً لموقعها الجغرافى ، ولكن السكان الأصليين كانوا من جنس البحر الأبيض المتوسط ، كما ذكرنا ، ولكن امتزجت بهم منذ أقدم العصور عناصر من أجناس مختلفة أهمها دون شك العنصر السامى ، لأن جزيرة العرب كانت على حدود سوريا الجنوبية ، ويتوق البدوى دائماً عندما تمر به سنوات عجاف إلى الاستقرار فى إحدى المناطق الخصبة الواقعة على حافة صحرائه .

لم تكن سوريا فى عصور ما قبل التاريخ ، وهى فى ذلك كغيرها من البلاد ، آهلة بعدد كبير من السكان كما هو حادث اليوم بل كان هناك متسع لغيرهم . فلما جاءت الهجرات السامية الكبيرة حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد نجد أن الكنعانيين (وهى التسمية التى وردت فى التوراة) قد استقروا فى الغرب ، كما استقر الأموريون بعد ذلك فى الوسط والشرق بل أن بعض الأموريين نزلوا فى العراق واستطاعوا ، بعد قرون عديدة وبعد أن تحضروا ، أن تكون لهم السيادة على المناطق التى نزلوا فيها وأن يؤسسوا لهم دولا هناك .

وفى الوقت الذى كانت فيه بعض تلك « الدول » مثل بابل مزدهرة فى وسط العراق كانت بعض الدول الأمورية مثل مارى مزدهرة فى غربى الفرات فى داخل الحدود السورية الحالية ، ولكننا لا نعرف عن الكنعانيين القدماء الذين كانوا فى أقصى الغرب أنهم كونوا دولا أو إمبراطوريات سامية ، أو كان لهم فى الألف الثالث قبل الميلاد شأن خاص ، بل الأرجح أن البلاد كانت مقسمة إلى كثير من المناطق يحكمها زعماء أو أمراء يعيشون فى مدن صغيرة ، وتعيش قبائلهم متفرقة حولهم يحيون الحياة التى تلائم بيئتهم . لم يكن الكنعانيون

والأموريون بمعزل عن المدنية ، وذلك لأنهم كانوا يجاورون مدنيتين كبيرتين وهما مصر والعراق ، كما كانت المنطقة الشمالية من الشاطىء السورى على صلة بجزر البحر الأبيض المتوسط ، كانوا على صلة تجارية بها وعلى الأخص بقبرص وكريت ، وكانت الأخيرة منهما مركزاً للحضارة المينوية التى كانت مزدهرة بعض الشيء فى الألف الثالث .

وبالرغم من أنه لم يظهر فى الحفائر الأثرية حتى الآن أى بقايا من معابد الآلهة المحلية ترجع إلى ذلك التاريخ فلا شك أنه كان للساميين آلهتهم التى جاءت معهم إلى مواطنهم الجديدة . ولا شك أيضاً أنه كانت هناك آلهة أصلية فى البلاد ، كما حملهم اتصالهم بالمدنيات الأخرى على قبول بعض مظاهر دياناتها وربما بعض آلهتها أيضاً. وربما كانت الآلهة التى أصبحت أسماؤها معروفة لنا فى الألف الثانى موجودة كلها فى الألف الثالث ، ولكن عدم العثور على آثار لها ، وعدم انتشار الكتابة إذ ذاك ، يجعلنا نفضل إرجاء الحديث عنها إلى أن نصل إلى الألف الثانى فى هذا البحث .

وعندما كان المصريون أو العراقيون يتجرون أو يرسلون بعض الحملات لمحاربة هذه المناطق فإنهم لم يجدوا أمامهم دولة متحدة متماسكة منظمة ، وإنما قبائل أو مدن متفرقة .

وأقدم ما ورد عن الأموريين فى الوثائق التاريخية ما جاء فى وثائق سكان بلاد الرافدين الذين أطلقوا عليهم الاسم السومرى «مارتو» الذى يقابل الكلمة الأكدية «أمورو» بمعنى الغرب لأنهم كانوا إلى الغرب منهم ، وهم فى ذلك مثل سكان الجزيرة العربية الذين أطلقوا اسم الشام على من كان على يسارهم فى الشمال ، واسم اليمن على من كان إلى يمينهم فى الجنوب ، كما أطلق السومريون أيضاً على البحر الأبيض المتوسط عدة أسماء منها البحر الكبير وبحر أمورو العظيم. وجاء ذكرهم فى وثائق غزوات سرجون الأكدى (حوالى عام ٢٣٥٠ ق م) . وكان الأموريون فى مبدأ الأمر فى شمالى سوريا ، ثم أخذوا ينتشرون بعد ذلك فى مناطقها الوسطى

وعلى الشاطيء حتى وصلوا إلى فلسطين . وانتشروا أيضا نحو الشرق ، واستقروا فى مناطق ذات حضارات قديمة ترجع إلى ما قبل عهد السومريين فى نشأتها وتمدنها، فكان لتلك الصلة أثر مباشر على تقدمهم ، إذ أن النصوص السومرية تصفهم بأنهم « كانوا بدوا متجولين لا يعرفون سكنى البيوت ولا يعرفون الزراعة ، ولكنهم تعلموا ذلك فيما بعد[1] » ، فلما اتصلوا بغيرهم وتحضروا ، أنشأوا دولا لم تكن تقل فى شيء عن مثيلاتها من دول العراق فى ذلك الوقت فى تمدنها ، وأهمها دولة مدينة مارى التى قضى عليها حورابى ملك بابل .

وإذا رجعنا إلى الوثائق المصرية فإننا نجد بعض إشارات فى نصوص الأسرة الحادية عشرة ، أى بعد انتهاء عصر الفترة الأولى ، التى ضعفت فيها مصر وقلت فيها صلتها بغيرها . نجد فى تلك النصوص إشارات عدة إلى الاهتمام من جديد بأمر مناجم الصحراء واستئناف الرحلات نحو الشرق أى إلى آسيا ، ونحو الجنوب أى إلى بلاد بونت ، ولكننا لا نستشف من تلك النصوص أى معلومات ذات أهمية خاصة إلى أن نصل إلى الأسرة الثانية عشرة .

كان بدو سيناء وفلسطين قد توطنوا فى شرق الدلتا ، وليس من المستبعد أن يكون نفوذهم أصبح قوياً فى تلك المنطقة خلال أيام الأسرة العاشرة وخصوصاً خلال الثمانين عاماً التى استعر فيها النزاع بين البيت المالك فى إهناسيا وبيت أمراء طيبة منذ نشأته ، ذلك النزاع الذى لم ينته إلا فى عام ٢٠٥٢ ق . م . أى فى العام التاسع من حكم منتوحوتب الثانى .

ويرى بعض الباحثين فى التاريخ المصرى القديم أن هناك ما يشير إلى حملة أسيوية على مصر فى ذلك الوقت وأن المصريين حاربوهم ، ولكنى لا أعتقد أن الأمور قد وصلت إلى ذلك الحد ، وأن تلك الإشارات إلى محاربة الأسيويين إنما هى مطاردة فلولهم التى كانت مستقرة فى الدلتا وعلى الحدود الشرقية . وربما

---

(١) Edward Chiera, *Sumerian Religious Texts* (1924), p. 20-21.

كانت أيضا بعد ذلك لتطهير جنوبى فلسطين عن ظل يعيث فيها فساداً. أو بعكر صفو الأمن اللازم للتجارة الخارجية، وأن ذلك بدأ منذ أيام الأسرة الحادية عشرة، كما نفهم من نقوش بقايا هيكل الجبلاين الذى أقامه الملك منتوحوتب الأول، وبعض الرسوم التى عثر عليها فى معبد منتوحوتب الثانى بالدير البحرى بطيبة.

ولا شك أن عبئاً كبيراً من ذلك قد وقع على عاتق أمنمحات الأول ومن جاء بعده من ملوك الأسرة الثانية عشرة.

ولنتحدث الآن عن قصة سنوهى فهى من أهم الوثائق عن الصلة بين مصر وسوريا فى أوائل أيام الأسرة الثانية عشرة.

سنوهى فى سوريا :

كان سنوهى أحد موظفى البلاط المصرى فى أواخر أيام أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة، وكان مع ولى عهده الأمير سنوسرت فى حملة على حدود مصر الغربية حوالى عام ١٩٦١ ق . م . عندما وصلت الأنباء من القصر بأن الملك قد مات . فأمر الأمير بإخفاء الخبر عن الجيش، وعاد سراً إلى العاصمة . وسمع سنوهى ذلك لأنه كان على مقربة من المكان، ولعله كان هناك انقسام فى العائلة فخاف سنوهى على نفسه وفر هارباً لا يلوى على شىء، يريد مغادرة مصر بأى ثمن . ويقص علينا قصة هربه واختفائه أثناء النهار ومغامراته مع حراس الحدود الشرقية حيث بنى أمنمحات تحصينات عدة لمنع تسرب البدو، كان اسمها حائط الأمير . وأخيراً وصل إلى سيناء وأخذ بلد يسلمه إلى بلد آخر حتى وصل إلى جبيل . وغادر جبيل إلى بلد آخر اسمه « كوى » لا نعرف مكانه . وبعد أن قضى فيه ستة شهور اتصل به أمير « رتنو العليا » وهى جزء كبير من إقليم لبنان وشمالى سوريا وكان اسمه « عامونتشى » وطلب بأن يبقى معه . وكان مما أغراه به أنه سيجد لديه كل راحة وسيستمع إلى لغة مصر لأن مصريين كثيرين يقيمون معه، وكان هؤلاء المصريون قد أعلموه بمكانة سنوهى ومقدرته . ويذكر سنوهى

أن ذلك الأمير رفع قدره فوق قدر أبنائه وزوجه من كبرى بناته وأعطاه جزءاً من مملكته على الحدود . يصفه سنوهى بقوله : « كان إقليما طيباً اسمه « يا » ، كانت فيه أشجار التين ، وفيه الأعناب وكان النبيذ فيه أكثر من الماء ، كان عسله وفيراً وزيته كثيراً ، وكانت كل الفواكه تحملها أشجاره ، كان فيه الشعير والقمح ، وماشيته من جميع الأنواع ، ولا يحصرها العد » .

وقضى سنوهى هناك سنوات كثيرة ، وكبر بنوه وأصبحوا زعماء لبعض العشائر ، ونعرف من قصته أيضاً أمرين هامين أولهما أن « الرسل الملكيين » كانوا يسيرون جيئة وذهاباً بصفة مستمرة بين مصر وداخل سوريا ، مما يدل على أن التجارة كانت مستمرة ودروبها آمنة . كما يتضح أيضاً من سياق القصة وجود مصريين كثيرين مقيمين فى تلك البلاد ، وأنه كانت لهم مكانة فيها . أما ثانى الأمرين فإنا نقرأ فى القصة أنه حدث عند وجوده هناك ، وربما كان ذلك بين عامى ١٩٥٠ ، ١٩٤٠ قبل الميلاد ، أن بعض القلاقل أخذت تنتشر فى تلك البلاد ، وأن بعض زعماء القبائل (حقاوو — خاسوت : وترجمتها حكام البلاد الأجنبية وهو أصل اسم الهكسوس) أخذوا يهاجمون الناس فعينه الأمير قائداً لجيشه ليسهر على حماية الناس وأمنهم ، وقد نجح فى ذلك . والمرجح أن ذلك الاضطراب جاء نتيجة لإحدى الهجرات الصغيرة للشعوب الهندو — أوروبية التى أخذت تتكاثر بعد ذلك حتى عم الاضطراب فى كل بلاد الشرق الأدنى فيما بعد . وإن إشارة سنوهى إلى ذلك وذكر اسم « حقاوو — خاسوت » يثبت أن مقدمات غزو تلك الشعوب الهندو — أوروبية قد بدأت تظهر منذ ذلك العهد .

ويذكر لنا سنوهى حادثاً آخر بشىء من التطويل ، فيه معلومات غير قليلة عن بعض العادات التى كانت سائدة بين القبائل إذ ذاك . لقد تحداه رجل قوى من أهل البلاد ودعاه للنزال دون أن يكون هناك أى عداء ، أو يكون بينهما أى صلة أو معرفة سابقة . وكانت نتيجة هذه الدعوة للقتال أن المنتصر منهما يستولى على كل أمتعة وأملاك الآخر . وبرغم حزن أمير « رتنو » وحزن جميع الناس لأن

سنوهى كان فى ذلك الوقت شيخاً متقدماً فى العمر ، فإن التقاليد كانت أقوى من أن يعارضها إنسان . وفى لغة أدبية قوية يصف سنوهى هذا القتال الذى تجمعت القبائل لمشاهدته ، ويصف لنا تفاصيله وكيف استطاع قتل خصمه . بدأ البطل الآخر يرميه بسهامه فاستطاع سنوهى أن يتفاداها ثم هجم عليه عدوه مرة أخرى « . . . . وعندما اقترب كل منا من الآخر هجم علىّ فأصبته واستقر سهمى فى عنقه فصرخ وارتمى على أنفه ، فأجهزت عليه بفأس الحرب الخاصة به ، وصرخت صرخة النصر وقد وقفت فوق ظهره » .

وحن سنوهى بعد ذلك إلى العودة لمصر فكتب إلى سنوسرت فجاءه منه الرد بأنه لم يفعل شيئاً يدعوه إلى الاعتذار عنه وأنه يرحب به ، بل يزيد الملك فيذكره بأنه يجب أن يفكر فى يوم منيته وما يجب أن يقام له من الطقوس الدينية .

وهناك نقطة جديرة بالاعتبار . لقد فر سنوهى من مصر ، على الأرجح ، خوفا من سنوسرت لاعتقاده بأنه سيقضى عليه عندما يؤول إليه الملك . خرج من مصر لا يملك شيئاً ، وأصبح بعد ذلك ذا نفوذ وثروة ، ولكنه فى أواخر أيامه عند ما بدأ فى مراسلة سنوسرت كان يعتبر نفسه كأحد ممثلى ملك مصر ، ونراه فى خطابه يعدد له أسماء بعض الزعماء المحبين لملك مصر ويطلب منه أن يدعوهم إليه، بل ويزيد سنوهى فيكتب للملك بأنه يترك عمله فى سوريا ويعود إلى مصر تنفيذا لرغبتـــه .

وتنتهى القصة بأن ترك سنوهى أولاده جميعا فى « رتنو » ووزع بينهم كل ثروته وعاد إلى مصر فأحسن الملك استقباله . ويعطينا وصفا شيقا لمقابلة الملك له ، وكذلك الملكة التى يحتمل جدا أن تكون من ذوى قرابته ، والأطفال الملكيين . وفى أسلوب بليغ يصف لنـا كيف أخذوه بعد مقابلة الملك فى قاعة العرش إلى منزل أحد الأمراء حيث أعدوا له حماما ، وعطروه وألبسوه أفخر أنواع الثياب، وكيف كان الخدم يلبون كل ما يطلبه أو يشير به . « وجعلوا السنين تغادر جسمى وانسلخت عنى ، وسرحوا شعرى وألقوا إلى الصحراء بحمل من

القاذورات ، وألقوا بملابسى إلى ساكنى الصحراء ، وألبسونى أفخر الثياب وعطرونى بأحسن أنواع العطور ، ونمت على سرير وتركت الرمال لمن هم فيها ، وزيت الخشب لمن يلطخ نفسه به » .

لم تستطع الصحراء أن تغير كثيراً من عقلية ونفسية ابن المدينة ، ولم تستطع زعامة القبيلة من القضاء على حنين رجل البلاط إلى حياة القصر ، ولم تستطع عشرات السنين بعيداً عن معابد مصر وآلهتها من أن تنسى سنوهى أنه سيصبح يائسا مضيعا إذا لم يحنطه المحنطون عند موته ، ويقيم له الكهنة الطقوس الدينية اللازمة ، أو كما كتب له الملك سنوسرت الأول : « سيكون لك موكب جنازة فى يوم دفنك ، وسيكون تابوتك من الذهب ورأسه من اللازورد . ستكون السماء فوقك وستوضع فوق زحافة . ستجرك الثيران ، ويسير المغنون أمامك ، وسيؤدون رقصة الـ « موو » عند باب قبرك ، وسيقرؤون لك ما تتطلبه مائدة قرابينك ، وستذبح لك الأضاحى أمام مذابحك ، وستكون أعمدتك (أى أعمدة قبرك) من الحجر الأبيض بين (مقابر) الأبناء الملكيين . وهكذا لن تموت فى الخارج ولن يدفنك الأسيويون ، ولن يضعوك داخل جلد شاة . ففكر فيما يحدث لجثتك وعد (إلى مصر) » .

والآن بعد أن عرضنا هذه الصورة القديمة للمقارنة بين حياة الصحراء والقبائل فى سوريا الجنوبية وبين الحياة فى عاصمة مصر ، تتجه الآن نحو مدن الساحل وبعض المدن الأخرى لنعرف مدى العلاقات التى كانت بين مصر وبلاد الشام خلال أيام الأسرة الثانية عشرة أى فى القرن الأول من الألف الثانى قبل الميلاد .

سوريا فى أوائل الألف الثانى قبل الميلاد :

استأنفت مصر علاقاتها ببلاد جنوب غربى آسيا بعد أن قامت من كبوتها فى مستهل الألف الثانى قبل الميلاد ، وبالرغم من أن هذه العلاقات كانت لأجل التجارة قبل أى اعتبار آخر ، فإن بعض المصادر المصرية تشير إلى أعمال حربية

حدثت فى أيام بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة مثل النقش الوارد على لوحة «نسومنتو» فى العام الرابع والعشرين من حكم أمنمحات الأول على الأرجح[1] أو نصوص لوحة «سوبك - خو» الذى عاش فى أيام أمنمحات الثانى، وسنوسرت الثالث، وأمنمحات الثالث إذ يقص علينا نبأ حملة اشترك فيها فى العام التاسع من حكم ذلك الملك، ويتحدث فيها عن سقوط بلد اسمه «سكمم»، ويذكر أن أهلها كانوا من العامو، أى البدو، وأنه تمت هزيمتهم هم وسكان «رتنو»[2]. وهناك إشارات أخرى متعددة، ولكنها مثل الإشارتين السابقتين، لا يمكن أن نعتبرها غزوات حربية كبيرة، وإنما كانت مناوشات لتأديب البدو، وكانت على الأرجح فى جنوبى فلسطين ليس بعيداً عن الحدود المصرية، وذلك لتأمين طرق التجارة مع داخلية البلاد.

ويوضح لنا منظر قدوم الأسيويين، فى «مقبرة خنوم - حوتب» الشهيرة فى بنى حسن، أن هؤلاء العامو قد أتوا مع زعيم لهم اسمه «إبشا»، ولقبه «حقا خاست» أى زعيم الجبل أو زعيم البلد الأجنبى (انظر الصورة الملونة على الغلاف) وهو نفس اللقب المذكور فى قصة سنوهى وهو أصل اسم الهكسوس، وأنهم أتوا ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأمتعتهم محملة فوق ظهور الحمير، كما أحضروا معهم هدية لحاكم الإقليم، تيتلا وغزالا. والرجال جميعاً ملتحون وشعر رؤوسهم كث غزير أسود اللون، ويلبسون ملابساً مزخرفة زاهية الألوان، وعلى حافتها أهداب (شراريب) وبعضها طويل ويوضع فوق أحد الكتفين، ويصل إلى ما تحت الركبة. ويلبس بعض الرجال نقبة يلفها حول وسطه كما أن بعضهم ينتعل

---

(١) موجودة فى اللوفر *Louvre C. 1* ونصها الكامل منشور فى *American Journal of Semitic Languages, XXI, 153 ff.* وقيل ذلك فى مجلات علمية أخرى.

(٢) فى متحف مانشستر بانجلترا وقد عثر عليها جارستانج فى المرابة وأفضل ما كتب عنها هو البحث الذى نشره بيت وعنوانه : T. E. Peet, *The Stela of Sebek-khu, The Earliest Record of an Egyptian Compaign in Asia-Manchester Museum Handbook* وقد حاول Max Müller أن يفسر سكم بأنها النسبة الى البلدة المعروفة ششم (ششيم أو سكيم) ولكن يحسن انتظار معلومات أكثر إقناعا فى هذا الموضوع.

نعلا ذا سيور ، والبعض الآخر ، ومن بينهم زعيم القبيلة ، يمشى حافى القدمين .
أما النساء فيلبسن أيضاً أثواباً من ذات النوع المزخرف الملون تغطى أحد
الكتفين وتترك الكتف الثانى عارياً . وهن جميعاً بلا استثناء يلبسن فى أرجلهن
أحذية حمراء ويضعن فوق رؤوسهن طرحة مثبتة فوق الرأس بحبل (كوفية وعقال)
وتشبه إلى حد ما لباس الرأس المصرى المعروف الذى يتدلى أيضاً على جانبى
الرأس . ونرى أن بعض الرجال ، وصبياً صغيراً يحملون حراباً فى أيديهم كما
يحمل بعضهم أيضاً القوس وجعبة السهام وعصا الرماية . ومما يجدر ذكره أن
أحدهم يسير وهو يلعب على آلة الكنور الموسيقية أثناء سيره وقد حمل وراء
ظهره إناء (وليس قربة ماء) معلقاً بحبال حول كتفه .

وليس لهؤلاء الزوار أى علاقة بسيدنا إبراهيم أو بإخوة سيدنا يوسف كما
ورد فى بعض المؤلفات . وتنحصر أهمية هذا المنظر فى إعطائنا صورة معاصرة
عن مظهر بعض سكان سوريا الجنوبية فى ذلك العهد أى منذ أربعة آلاف سنة ،
وملابسهم من رجال ونساء ، وأسلحتهم بل وموسيقاهم ، فهل تغير كثيراً بدو
تلك المنطقة ؟ وهل تقدموا كثيراً عما كانوا عليه فى القرن العشرين قبل الميلاد ؟

لنترك الآن المصادر المصرية ونلق بأبصارنا نحو سوريا نفسها لنرى ماذا بقى
فيها من آثار ذلك العهد . هنالك على الشاطئ الفينيقى ، وفى مدينة بيبلوس ذات
الصلة العريقة بمصر ، كشفت الحفائر عن مقابر بعض ملوكها وفيها حلى وأشياء
أخرى صنع بعضها محلياً ، وكان البعض الآخر مصرياً خالصاً ، جاءهم هدايا من
بعض ملوك مصر وبخاصة أمنمحات الثالث وأمنمحات الرابع (بين عامى ١٨٠٠
و ١٧٩٢ ق . م) . فى مقبرتى الملكين « أبى شمو » و « إبشمو بى » . كما عثر من
العصر نفسه تقريباً فى حفائر أوجاريت (رأس الشمرة) على آثار أخرى هامة ،
عثر فيها على آثار مصرية من عهد سنوسرت الأول ، كما كان يقوم عند مدخل معبد
الإله بعل فى تلك المدينة تمثال على صورة أبو الهول باسم أمنمحات الثالث ،

كما عثر أيضاً على غيره من التماثيل فى قطنا (تل المشرفة جنوبى حمص) وفى المنطقة الوسطى من سوريا قريباً من دمشق وفى غيرها من البلاد .

حفائر مارى :

وفى مناطق مختلفة أخرى ، غير منطقة الشاطىء ، قامت دول هامة ربما كان أهمها دولة مدينة مارى التى كانت مزدهرة فى عصر حورابى ، ثم هاجمها ذلك الحاكم البابلى فخربها وظلت منسية حتى عثر عليها بطريق الصدفة عندما ذهب بعض الناس لدفن أحد الموتى فصادفهم ما دعا إلى إخطار الجهات المسئولة ثم بدأت فيها بعد ذلك الحفائر العلمية برئاسة الأستاذ « بارو » من أمناء متحف اللوفر بفرنسا ، وكان ذلك قبيل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٥ - ١٩٣٨) ، فاتضح أن تل الحريرى ليس إلا موقع تلك المدينة الهامة . ولم تتم الحفائر هناك حتى الآن وقد كشف فيها قبل عشرين عاما عن قصر « زمرى - ليم » ملكها وفيه نحو ٣٠٠ حجرة كانت جدران بعضها مزخرفة بمناظر جميلة ملونة أهمها ما يمثل ملكها يتقبل من الإلهة عشتر رموز الملك والسيادة ، ونرى فيها أثر اختلاط الفنون العراقية والمصرية ، وربما بعض التأثيرات الأخرى . وتشغل مساحة القصر وحده نحو ستة أفدنة وفيه جميع المرافق الصحية المتقدمة ، ولكن أهم ما عثر عليه فى ذلك القصر إذ ذاك ما يقرب من ٢٠,٠٠٠ لوحة مكتوبة ، يحتوى بعضها على خطابات ووثائق وأناشيد دينية ، وقد كشفت دراستها عن كثير من الجوانب الحضارية فى سوريا فى ذلك العصر . وذكرت فيها أسماء كثير من دويلات المدن التى كانت هامة إذ ذاك مثل مدينة خلبو (حلب) التى كانت عاصمة لدولة « يمخد » ، ومدينة جبلة (جبيل) التى كانت مركزا هاما لصناعة الثياب والمنسوجات ، ومدينة قطنا (تل المشرفة) وحرانو (حران الحالية) وكلها دول أمورية . كانت هذه اللوحات فى مكتبة القصر ، وإن وجودها هناك ووجود تلك الرسوم الملونة والآثار الأخرى ، وتلك الحضارة الواضحة فى القصر ومبانيه ، تجعلنا نتوقع الكثير من

زيادة معلوماتنا عند إتمام حفائر المناطق الأثرية الأخرى التى ورد ذكرها فى الوثائق التى عثر عليها فى تل الحريرى وفى غيرها من المدن العراقية والسورية[1] .

ثم نزلت بعد ذلك جحافل الكاسيين وغيرهم مما أدى إلى تغيير الأوضاع فى هذا الجزء من العالم . وحدث مثل ذلك فى مصر أيضاً على أيدى الهكسوس فلم نعد نسمع أو نعرف شيئا ذا أهمية حتى ظهرت الإمبراطورية المصرية وبدأنا مرة أخرى ، وكان ذلك فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد (تحوتمس الثالث ١٤٩٠ - ١٤٣٦) ، نقرأ الكثير من أسماء المدن السورية فى النصوص المصرية .

ومن دراسة النصوص المصرية فى ذلك العهد نقف على الكثير من الحالة الاجتماعية التى كانت سائدة فى تلك البلاد ، كما نعرف من دراستنا لمقابر طيبة الشىء الكثير عن ملابس الشعوب المختلفة وصناعاتها وحاصلاتها . ولا يتسع المجال لإطالة الحديث عن تلك الحروب المختلفة أو ما تلا ذلك من نشر الثقافة المصرية فى تلك المناطق ، أو أثر الديانة والصناعة والحضارة السورية فى مصر مع من جاءها للاستيطان فيها ، فقد أشرنا إلى ذلك من قبل . ولكن يجدر بنا قبل أن نتابع سرد قصة تاريخ سوريا أن نقف قليلا لنتحدث ولو قليلا عن موضوعين هامين مقترنين بعصر ازدهار الإمبراطورية المصرية ، وهما نتائج حفائر راس الشمرة ثم رسائل العمارنة .

---

(١) هناك مؤلفات كثيرة عن مارى ومن أهمها ما نشره مكتشفها عن صور المناظر المختلفة سواء ما كان منها على الجدران بألوانها أو مناظر الحفائر .

Parrot, *Mari, Coll. des ides photographiques* (*Neuchâtel* 1953).

أما عن مجموعة اللوحات فأهم ما نشره عنها نجده فى المجموعة الشهيرة *Archives Royales de Mari (ARM)* وقد نشروا منها بين أعوام ١٩٤١ و ١٩٥٧ ثمانية مجلدات من النصوص المسمارية وسبعة أجزاء خاصة بترجمتها . وفى كتاب Dossin, *Studia Mariana* (1950) وقد نشرت بعض الخطابات الهامة فى Pritchard, *Ancient Near Eastern Texts* (1950) *p.* 482 - 3 وهناك بحث هام عن نتائج حفائر مارى بوجه عام وما أضافته على تاريخ الشرق وهو منشور فى مجلة George, E. Mendenhall, *Mari, Biblical Archaeologist, XI* (1948) p. 1–19.

حفائر راس الشمرة :

فى عام ١٩٢٨ اكتشف أحد الفلاحين بطريق الصدفة فى مكان يسمى « المينا البيضا » على الشاطىء فى شمال سوريا على بعد ثلاثة عشر كيلومترا شمال اللاذقية ، اكتشف سرداباً تحت الأرض يؤدى إلى مقبرة ، فكان هذا الاكتشاف بداية لفحص المنطقة كلها فى السنوات التالية . فعثر على بعد ثمانمائة مترا من الشاطىء على تل أثرى كان يصل إليه خليجان من البحر فى العصر القديم ، ويسمى هذا التل راس شمرة أو راس الشمرة ، ولم يمض غير قليل حتى تأكد الباحثون أن هذا المكان ليس إلا موقع مدينة أوجاريت التى وردت فى النصوص المصرية وفى النصوص الحيثية منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد . وعثر فى الحفائر على كثير من التماثيل والحلى والفخار وما كان مدفونا فى المقابر من الآثار المختلفة ، ولكن أهم ما عثر عليه هو ذلك العدد الكبير من اللوحات الطينية الصغيرة المكتوبة بالمسمارية ، وكانت هذه البداية الموفقة باعثا على استمرار الحفائر سنوات كثيرة بعد ذلك ، بل إنها ما زالت مستمرة حتى الآن .

وكانت النقوش التى عثر عليها ، نقوشاً مكتوبة بكتابات ولغات مختلفة ، بعضها بالأكدية و بعضها بالمصرية وبعضها بالحيثية ، ولكن عددا كبيرا يبلغ بضع مئات من اللوحات كان مكتوبا بكتابة لم تتضح فى بداية الأمر ، وظن أنها من نوع غير معروف . ولكن سرعان ما توصل أكثر من باحث واحد فى عام ١٩٣٠ إلى حل لغزها (فيرولو ، وباور ، ودورم - Virolleaud, Bauer, Dhrome) عند مقارنتها بالأبجدية الكنعانية . كانت تلك اللوحات الطينية جزءاً من مكتبة القصر الملكى وقد ألقت دراستها ضوءاً كبيراً على الحياة الدينية والاجتماعية فى مدينة أوجاريت القديمة ، وفى هذا الجزء من الشرق كله . وكان أكثر الذى عثر عليه فى مبدأ الأمر أساطيراً وقصصاً بطولية عن الإله « بعل » وأخته « عنت » ، كما تتناول أيضاً بعض الآلهة الكنعانية الأخرى ، واتضح من دراسة بعض تلك

اللوحات أنها تتعلق بمراسلات سياسية وإدارية . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فتوقفت الحفائر فى عام ١٩٣٩ ، ونظراً لجلاء الفرنسيين عن سوريا فإن الحفائر لم تستأنف إلا فى عام ١٩٤٨ ، وأخيراً منذ عام ١٩٥٠ عاد مكتشفها الأول كلوديت شيفر Schaeffer ،وهو فرنسى ، إلى الحفر فيها . وقد تركزت حفائره فى القصر الملكى ، عثر فيه على كثير من الوثائق ذات الأهمية السياسية والإدارية والقانونية وأكثرها مكتوب بالأكدية . وفى عام ١٩٥٣ عثر على مجموعة من المراسلات الدبلوماسية بين ملوك أوجاريت وملوك الحيثيين وغير ذلك من دول شمال سوريا ، ومن بينها معاهدة صداقة عقدت بين ملك أوجاريت والملك الحيثى سوبيلو ليوما الذى سنعود إلى ذكره عند الحديث على رسائل تل العمارنة . وإذا كانت المراسلات السياسية ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فإن ما عثر عليه من لوحات الأساطير والقصص الدينية ترجع أصولها إلى أبعد من ذلك ، ونرى فيها الشيء الكثير الذى يثبت بصورة قاطعة أثرها على أدب التوراة كما أوضحت لنا الشيء الكثير عن الآلهة السورية القديمة[١] .

ولا تقتصر أهمية حفائر أوجاريت على ذلك فقط بل لها أهمية أخرى لأنه اتضح أن محاولة إيجاد أبجدية حروف هجائية ، عدد حروفها محدود ، وقليل ، لم يقتصر على الفينيقيين فى الجنوب بل حدث أيضا فى الشمال ، وإذا كانت أبجدية سيناء ، قد تأثرت كثيراً بالكتابة المصرية القديمة فإن أبجدية أوجاريت تأثرت ، بل قامت على أساس الاقتباس من الأكدية[٢] .

---

(١) C. F. A. Schaeffer, *Ugaritica 1 - III Paris* 1939-1956 R. De Langhe, *Les textes de Ras Shamra Ugarit et Leurs repports avec le milieu biblique de l'Ancien Testament,* 2 *Vols.* 1945 H. L. Ginsberg, *Ugaritic Myths, Epics and Legends-in Pritchard, Ancient Near Eastern Texts* (1950). p. 129-155.

أما التقارير الأخيرة عن نتائج الحفائر التى جرت فى المنطقة منذ عام ١٩٥٠ منشورة فى مجلة *Syria* وفى مجلة الحوليات الأثرية السورية التى تصدر بالعربية وبعض اللغات الأجنبية .

(٢) عن موضـوع الكتابة السامية G. R, Driver *Semitic Writing - From Pictograph to Alphabet,* (*revised edition* 1954).

رسائل العمارنة :

وصلت الإمبراطورية المصرية إلى قمة مجدها فى عهد تحوتمس الثالث ، وقد أحسن هذا الملك تنظيمها وترك كثيرا من حكام الدويلات السورية يحكمون أقاليمهم بعد أن أقسموا له يمين الطاعة ، وعين بعض حكام مصريين فى أماكن أخرى ، كما ترك بعض الحاميات المصرية هناك . وكان من بين إصلاحات تحوتمس الثالث إحضاره عددا كبيرا من أبناء الحكام السوريين لتعليمهم فى مصر ، وكانوا يقيمون فى قصره ويتعلمون مع أبنائه وأبناء كبار رجال الدولة المصريين . فلما جاء اليوم الذى رجع فيه هؤلاء الأمراء إلى بلادهم وتولوا شئونها ظل كثير منهم على صداقته لمصر . وظلت الإمبراطورية على قوتها بعد موت تحوتمس إذ كان ابنه أمنحوتب الثانى وابن ابنه تحوتمس الرابع من الملوك المحاربين ، ولكن حدث أن من تولى بعد ذلك وهو أمنحوتب الثالث كان منصرفا عن الحرب وتفقد شئون الإمبراطورية ، مهتما بإقامة المبانى الفخمة وحياة البذخ ، فبدأت الحالة فى أواخر أيامه تتأرجح بعض الشىء . ووجد خصوم مصر من الحيثيين الفرصة سانحة أمامهم للقيام ببعض المؤامرات هناك للقضاء على نفوذ مصر والتوسع فى سوريا . وشاءت الظروف أيضا أن يتولى إخناتون ملك مصر بعد أبيه ، فانصرف انصرافا تاما عن شئون الإمبراطورية ، وقام نزاع داخلى فى مصر فزاد ذلك من ضعف نفوذها السياسى فى تلك المناطق . وعندما هجر إخناتون مدينة طيبة وأقام مدينته الجديدة المعروفة الآن باسم تل العمارنة نقل إليها الوثائق الخاصة بالمراسلات الدبلوماسية .

وجاء اليوم الذى انتهت فيه ثورة إخناتون الدينية وعادت العاصمة إلى طيبة ، ولكن تل العمارنة (أخت ـ أتون) هجرت وهدمت واعتبرها المصريون مكانا نجسا ، إلى أن حدث فى عام ١٨٨٧ أن عثرت إحدى الفلاحات عند ما كانت تبحث عن بعض الأحجار والطوب لبناء فرن لها على مكان تلك الوثائق . وقضى سوء الحظ أنه لم يعرف أحد فى ذلك الوقت أهميتها ، بل حدث عند ما وصل بعضها إلى تجار الآثار ، ووصلت منهم إلى بعض العلماء حكموا بأنها مقلدة ، ولا قيمة لها ، وأن ما عليها من نقوش ليس إلا عبث أطفال مقلدين . ولهذا لم يبق من المئات الكثيرة

التى عثر عليها إذ ذاك إلا عدد قليل . وعند ما جاء الوقت الذى عرف فيه العالم قيمتها كان أكثر من نصفها قد تحطم ، ولم يبق منها إلا نحو ثلثمائة لوحا ، موزعة الآن بين متاحف مصر ولندن وبرلين وفينا وباريس وغيرها من المتاحف ، وعرف الناس أنها المراسلات الدبلوماسية التى كانت بين ملوك مصر وملوك آسيا الغربية ، وبعض الولاة المصريين . وعندما بدأ فلندرز بترى فى عام ١٨٩١ فى حفائره فى المنطقة باحثاً عن بعض منها لم يجد إلا القليل (العدد الكلى الآن ٣٧٧) . ومن أهم ما عثر عليه إذ ذاك ؛ جزء من قاموس كانت كل صفحاته ، وهو أحد الألواح طبعاً ، مقسمة إلى ثلاثة أعمدة فى واحد منها الكلمة المصرية وأمامها معناها بالأكدية المتأخرة ، وهى لغة المراسلات الدولية فى ذلك العهد ، وفى العامود الثالث ؛ النطق الأكدى مكتوباً بالعلامات المصرية . وكان هذا القاموس فى أيدى كتبة قسم العلاقات الخارجية للاستعانة به عند تحرير تلك المراسلات .

ويمكن تقسيم هذه المجموعة من الرسائل إلى ثلاث أقسام : أولها ما بعث به الولاة المصريون إلى فرعون ، وثانيها مراسلات الملوك الذين لم يخضعوا الحكم مصر المباشر ، أما القسم الثالث فهو الخاص بالمصاهرات الملكية[1] .

القسم الأول : كان الحكم المصرى لا يميل بأى حال من الأحوال إلى التدخل فى عقائد الشعوب أو فى عاداتها ، بل كانوا يتركون الشعوب المحكومة تفعل ما تشاء وتتمتع بحريتها الداخلية طالما تكون مصر منتفعة الانتفاع التجارى وآمنة على حدودها ، ومن أظهر أنواع اللين التى كان يظهرها الفراعنة نحو البلاد الخاضعة لهم أن المراسلات بينهم وبين مصر كانت بلغة غير اللغة المصرية ، ثم كانت هناك

---

(١) أفضل ترجمة لهذه الرسائل مع التعقيب والشرح نجدها فى كتاب كنوتسون العالم النرويجى فى الأشوريات J. A. Kundtzon, *Die El-Amarna-Tafeln*, 2 *vols* 1907-1915 وهناك ترجمة لها باللغة الإنجليزية نشرها العالم الكندى مرسر (Mercer *The Tell El-Amarna Tablets*, 1939) ولكنها أقل بكثير فى مستواها العلمى من مؤلف كنوتسون الذى استمدت منه وتسربت إليها بعض الأخطاء . وفى كتاب (ANET, 1950) نجد ترجمة دقيقة لأهم سبعة وعشرين منها نشرها أولبرايت بالتعاون مع مندنهول (Albright-Mendenhall *p* 483-490),

أيضاً ظاهرة أخرى وهى أنهم إذا وجدوا فى بلد ما أسرة حاكمة قوية يأنسون إلى إخلاصها جعلوا رئيسها حاكما باسم فرعون مصر ، وتركوا معه من يستعين بهم من الموظفين المصريين ، أما إذا كان من الأوفق وضع إقليم تحت الإشراف المباشر فإن الملك كان يعين موظفا مصريا ليكون حاكما على هذا الإقليم .

ظلت سهول وجبال آسيا عشرات الأعوام لا ترى جيش فرعون القوى . وأهمل ملوك مصر الإشراف الفعلى على ممتلكاتهم مادامت الجزية تؤدى إليهم ، فلما تولى إخناتون عرش مصر وثار ثورته الدينية على الإله آمون وكهنته ، امتد هشيم الثورة الداخلية إلى جميع مرافق البلاد ، وانصرف إخناتون إلى التفكير فى ديانته الجديدة وعكف على عبادة « أتون » وتأليف الأناشيد والصلوات له ، فانتهز أمراء بعض الولايات السورية هذه الفرصة وأرادوا التخلص من الحكم المصرى لأن البلاد المغلوبة على أمرها لا يمكن أن تخضع لمثل هذا الفيلسوف .

لم تكن الأقاليم السورية تعيش على وفاق مع بعضها البعض بل كان حكامها يتنازعون فيما بينهم ، وكان يطلب كل منهم معونة فرعون مصر مهما قلت لأنه كان فى ظهور الجنود المصريين ما يكفى لإرهاب الأعداء ، وها هو حاكم « مجدو » يطلب من فرعون إرسال اثنين من الرماة ، ويطلب حاكم « بيروت » أربعة ومعهم عشرون عربة حربية ، ويطلب حاكم « صيدا » عشرين راميا .

وكان هؤلاء الأمراء السوريون يراسلون أمنحوتب الثالث دائما ، ومن هذه المراسلات ندرك المركز العظيم الذى كان يتمتع به ملك مصر . فها هو أحد الحكام يكتب إليه قائلا « أنا خادمك والتراب الذى تحت قدميك والأرض التى تطؤها وخشب العرش الذى تجلس عليه والكرسى الذى تضعه تحت رجليك . إنى حافر جوادك ، إنى أتمرغ سبع مرات فى تراب قدمى مولاى الملك شمس السماء » . وفى رسالة أخرى نرى حاكما يسمى نفسه « خادم جواد عربة فرعون » . وكتب ثالث يؤكد ولاءه وإخلاصه « أنا خادم الملك والكلب الذى يحرس بيته ، إنى أحافظ على هذا البلد لمولاى الملك » . وكثيرا ما نقرأ فى هذه الرسائل أشياء غير تأكيد الوفاء والإخلاص مثل كتاب من حاكم « صيدا » يقول فيه « أخبر مولاى أن

عبدته التي جعلها وديعة عندى وبين يدى وهي مدينة صيدا هادئة » . وبعد جمل كثيرة تنبيء عن فرحه بورود كتاب مولاه يقول « إن خادمك يبعث إليك بمائة ثور كما يبعث أيضاً ببعض النساء الجميلات » ، وكانت هى الجزية السنوية المقررة على هذه المدينة . ومن المراسلات الأخرى نعرف أن جزية كل بلد كانت تختلف عن الآخر .

لنترك الآن الولاة وخضوعهم ونتقدم قليلا لنشهد انحلال هـذه الولايات بانصراف إخناتون إلى ديانته . لقد ترك الحيثيين يتآمرون على مملكته فى آسيا دون أن يحرك ساكنا . لقد اشتروا ضمير بعض الحكام ومنهم حاكم مدينة « عمورية » واسمه « عزيرو » فلما اتصل بإخناتون تآمره مع الحيثيين وإغارته بمساعدتهم على المدن المجاورة لمدينته لم يفعل ما كان يفعله أبوه أو جده فيذهب إلى سوريا بنفسه على رأس جيشه أو يرسل على الأقل جيشاً تحت إمرة أحد قواده بل اتخذ طريقاً آخر . لقد كلف أحد موظفيه بالكتابة إلى « عزيرو » ليسأله عن حقيقة ما اتصل بالملك وطلب منه إرسال ابنه إلى مصر ليوضح موقف أبيه ، وكان « عزيرو » ماكراً ، فكتب يتنصل مما عزى إليه وأخذ يسوف فى إرسال ابنه ، وأخذ حكام الولايات يوالون الشكوى طالبين من فرعون أن ينقذهم من «عزيرو» ، صنيعة الحيثيين ، ولكن «إخناتون» وضع أصابعه فى أذنه . من ذا الذى لا يتأثر عندما يقرأ استصراخ أهالى « تونيبو »[1] إلى إخناتون : « إلى مولانا ملك مصر . نحن أهل تونيبو عبيدك ندعو لك بالحياة والسعادة ونقبل قدميك ، إن عبدتك مدينة تونيبو تقول من ذا الذى كان يستطيع فيما مضى أن ينهب تونيبو دون أن ينتقم لها « منخبيريا » (تحوتمس الثالث واسمه بالمصرية من - خپر - رع) ويفعل مع الناهب مثل ما فعل معها ، إن آلهة مولانا

(١) لا نعرف حتى الآن موقع هـذه المدينة (وتكتب Tunip وتكتب أيضاً بالبابلية كذلك) وكل ما يمكن قوله أنها كانت واقعة بين قادش (تل النبي مند على مقربة من حمص) وحلب — أنظـر المراجع التى ذكرها جوتييه Gauthier, *Dictionnaire Géographique VI, p.* 49).

وما كتبه عنها أخيرا جاردنر Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica, I, p.* 179.

الملك وتماثيله موجودة لدينا ، وليسأل مولانا فى ذلك المتقدمين فى السن من رجاله ليعرف ما إذا كنا نقول الحقيقة أو لا نقولها . إذا لم تدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن عزيرو سيصنع معنا مثل ما صنع مع مدينة « نى » وحينئذ لا نبكى وحدنا بل سيبكى معنا أيضاً ملك مصر مما يأتيه عزيرو من أعمال لأنه سيرفع عندئذ ذراعه ضد سيدنا » .

لقد أرسل أهالى تونيبو رسالة وراء أخرى ، كل منها مع رسل خاصين ، حتى بلغ عدد هذه الرسائل عشرين دون أن يعود إليهم واحد منهم . وهذه آخر رسائلهم « والآن فإن مدينتك تونيبو تبكى ودموعها تسيل وليس من ينصرنا ، لقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم تتلق ردا منه » .

إن مثل هذه المراسلات تلق ضوءاً صحيحا على علاقة مصر بسوريا فى ذلك العهد ، ولنترك الآن هذه الناحية ولنعالج الصلات الأخرى .

القسم الثانى : وهو خاص بالصداقة بين ملوك مصر وملوك البلاد التى لا تخضع لحكمهم المباشر . كانت هذه الممالك أربعة فى آسيا وهى : أشور وبابل وميتانى وخيتا ، وكانت علاقات الثلاثة الأولى بمصر علاقات مودة وصفاء ، ينشدون ودها وهدايا ملوكها ولا يتأخرون عن تعزيز الصداقة بالمصاهرة . أما ملوك خيتا فكان لهم شأن آخر .

كتب ملك « ميتانى » إلى أمنحوتب الثالث يقول : « إلى أمنحوتب العظيم ملك مصر ، وأخى وصهرى الذى أحبه ويحبنى ، أقول أنا دوشراتا ملك ميتانى العظيم وأخوك ووالد زوجتك الذى يحبك . صحتى جيدة وإنى أبعث إليك بتحياتى يا أخى وصهرى ، وكذلك إلى أقاربك وزوجاتك وأبنائك ورجالك » .

وكتب ملك أشور إلى أمنحوتب الرابع : « إلى أمنحوتب أخى أقول : أنا أشوروباليت ملك أشور وأخوك ، أدعو بالخير لك ولأهلك وبلادك » .

وكتب ملك بابل « بورنابورياش » يقول فى كتاب له بعد الديباجة :
« لقد جاء إلىّ رسول أخى وقد انحرفت صحتى بعد حضوره عندى ولم يسأل عنى أخى فى كل المدة التى مرضتها ، ولهذا استأت من أخى وقلت لماذا لم يبعث إلىّ رسولا ولم يظهر اهتماماً بى ولكن رسول أخى أجاب على ذلك بأن مصر ليست قريبة حتى يسمع أخوك بمرضك . ويرسل من يسأل عن أخبارك ، وسألت بعد ذلك رسولى فقال لى بأنها مرحلة طويلة جداً ، ومنذ سمعت بذلك لم يبق فى نفسى استياء من أخى » . وكتب الملك دوشراتا عند تولى أمنحوتب الرابع العرش بعد وفاة أبيه أمنحوتب الثالث معزياً : « حينما مات والدك بكيت يوم علمت بوفاته وسقطت مريضاً وأشرفت على الهلاك . ولكن عندما علمت بأن أكبر أنجال الملك أمنحوتب والملكة تى قد جلس على العرش قلت الآن لم يمت أمنحوتب » .

كان كل من ملكى بابل وأشور يتنافسان فيما بينهما ، وكان كل منهما يود أن يكون حليف مصر ليضمن لنفسه القوة ، فلما مات أمنحوتب الثالث كتب كل منهما إلى الملك الجديد معلناً تأييده لمصر ومذكراً بمساعدته وولائه لها .

ونحن نقتطف جزءاً من كتاب ملك بابل وهو يقص على فرعون كيف أن الكنعانيين أرادوا حمل أبيه على معاداة ملك مصر فرفض ، ثم يطلب منه ألا يؤازر ملك أشور ضده ، ويختم كتابته بقوله : « وأنت تعرف لماذا يريد صداقتك . فإن كنت تحبنى فلا تعقد معه أى معاهدة . واطرده بعيداً عنك » . ولكن رأى ملك مصر إذ ذاك أن خير سياسة هو تقريب الإثنين إليه وعقد مع كل منهما معاهدة صداقة ، ورضى بها كل منهما . وبقيت لمصر هيبتها ومقامها الممتاز إلى حين .

كان ملوك ميتانى وأشور وبابل يرسلون الجزية ويطلبون من ملك مصر أن يرسل إليهم الذهب ويلحون فى ذلك حتى أن أحدهم يقول فى كتاب له : « أرسل إلىّ ذهباً ، إن الذهب فى مصر فى كثرة الرمال » . أما ملك خيتا فكانت صلته بمصر غير الممالك الأخرى ولكنه كان يصانع ملوكها ولا يجرؤ على مناوأة الحكم

المصرى فى آسيا . عندما تولى أمنحوتب الرابع العرش أرسل إليه ملك خيتا رسالة تهنئة فلم يتلق رداً عليها . وأعاد الكتابة مرة بعد مرة متسائلا عن سبب قطع المراسلات عنه . ونحن نعلم الآن أن سبب قطع مصر علاقاتها بخيتا هو ما كانت تعلمه من أن هذه المملكة كانت المحرك لثورة عزيرو لهدم الحكم المصرى فى سوريا ، وقد تم لهم ما أرادوه .

القسم الثالث : كان هم ملوك بابل وآشور وميتانى فى الأسرة الثامنة عشرة أن تبقى صلاتهم بمصر صلات ودية ، وقد رأى الفراعنة أن تثبيت هذه الصداقة يستدعى بعد إبرام المعاهدات أن يقوموا بمصاهرة هؤلاء الملوك . وتنفيذاً لهذه السياسة نرى تحوتمس الرابع يتزوج إبنة ملك ميتانى ، وكذلك فعل أمنحوتب الثالث إذ تزوج إبنة هذا الملك أيضاً ثم ضم إليها أخته بعد أن كاتبه بشأنها ست مرات ، وكذلك ضم إلى نسائه أخت ملك بابل وأراد أن يتزوج ابنته أيضاً .

وكانت العادة أن تأتى كل أميرة من هؤلاء الأميرات ومعها حاشية كبيرة فمثلا الأميرة « كيلو جيبا » إبنة ملك ميتانى حضرت إلى مصر ومعها ٣١٧ وصيفة كحاشية لها تزوج أكثرهن من المصريين الذين كانوا فى خدمة فرعون .

وإذا كان ملوك مصر قد شجعوا الزواج من أميرات آسيا ، فهل كانوا يزوجون الأميرات المصريات من هؤلاء الملوك ؟ الجواب على ذلك نراه ماثلا فيما حدث عندما طلب ملك بابل الزواج من إحدى بنات أمنحوتب الثالث . لقد رد عليه ملك مصر قائلا : « إنه لم يحدث أن زُفّت إبنة ملك مصر زوجة إلى أحد » . ونحن نعلم حق العلم أن كثيراً من المصريين الذين لا يمتون بصلة إلى البيت المالك كانوا يتزوجون من أميرات ، ولذلك فإن الذى نفهمه من رفض الملك أنه رغم اتخاذهم بعض الأميرات الأسيويات زوجات لهم فإنهم كانوا لا يسمحون لملوك بابل وميتانى وآشور أن يرتفعوا إلى المرتبة التى تخولهم زواج بنات الفراعين . لم يستمر هذا الإباء والاعتزاز طويلا ، لأن اعتلاء إخناتون العرش غير كثيراً

من أساليب ونظم الحياة المصرية ، إذ أنه سمح لأمير من بابل أن يتزوج إحدى بناته ، ولكنه لم يسمح بأن تسافر معه ، بل بقيت وبقى معها فى تل العمارنة .

مات إخناتون دون أن يكون له ولد يخلفه على العرش ، فتولاه من بعده زوج كبرى بناته ولكنه لم يعمر إلا قليلا ثم خلفه زوج الإبنة الثالثة المعروف باسم « توت عنخ أمون » ومات هو الآخر قبل أن يتم تسعة عشر عاماً ، وخلف وراءه زوجة شابة . تلفتت الأرملة الشابة حولها فلم تجد إلا أعداء طامعين . فالكهنة اضطروا زوجها لهجرة تل العمارنة والعودة إلى طيبة ، وكانوا يكرهون عائلة إخناتون ويصبون لعناتهم عليه وعلى ذكراه . وكان اثنان من رجال بلاط أبيها يدبران المؤامرات لكى يفوزا بالعرش . لم تجد هذه الفتاة أحداً قادراً على حمايتها وحماية العرش من الطامعين فيه ، ففكرت فى الالتجاء إلى ملك « خيتا » التى كانت تعرف بحكم صلتها بأبيها وزوجها أنه ملك قوى مرهوب الجانب أمكنه أن يقضى على سمعة الحكم المصرى فى آسيا . كتبت إلى الملك كتاباً عثر عليه فى خرائب « بوغاز كوى » حيث كانت العاصمة الحيثية القديمة ، وجاء فى هذا الكتاب : « لقد مات زوجى ، وقيل لى بأن لك أولاداً كباراً ، أرسل إلىّ أحدهم فأتزوجه وأجعله ملكا على مصر » . فأجابها ملك خيتا متسائلا عن ابن الملك المتوفى وماذا حدث له . إنه كان يخشى أن تكون هناك مؤامرة وثورة فيتعرض إبنه لبعض نارها . فأجابته الملكة الشابة : « ليس هناك ما يدعو للتمويه عليك ، ليس لى إبن وقد مات زوجى ، أرسل لى أحد أبنائك وأنا أجعله ملكا » . عز على الشابة الصغيرة أن ترى امرأة غيرها ملكة على البلاد ، أو أن ترى الملك ينتقل من بيت أبيها وأجدادها إلى بيت آخر . على أى حال فإن الزواج لم يتم لأن سر المؤامرة افتضح ، فأرسلوا من ترصد للأمير الأجنبى فقتله فى سوريا . أما أرملة توت عنخ أمون فلا نعرف ماذا حدث لها ولم يعثر أحد على قبر لها حتى الآن .

كانت ملكات مصر يشتغلن بالسياسة ويوجهنها إلى بعض ما يرغبن فيه ، وكان من تقاليد المكاتبات السياسية فى ذلك العهد أن يحيى ملوك البلاد الأجنبية

ملكة مصر فى مراسلاتهم ، بل لقد كان يكتب بعض هؤلاء الملوك إلى الملكات ، كما فعل ملك أشور عندما كتب إلى الملكة « تى » بعد وفاة زوجها طالباً منها أن تبذل نفوذها لدى ابنها حتى تبقى الصلات السياسية بينه وبين مصر كما كانت من قبل . كان فرضا على الملوك الأجانب أن يبدأوا كتبهم بتحية فرعون وزوجه ، ولكن كان لأحدهم وهو ملك قبرص طريقته الخاصة فى إهداء التحية ، إذ كتب إلى أمنحوتب الثالث، باعثاً إليه بالتحية ثم أضاف « وإلى أقاربك وخادماتك وأبنائك وزوجاتك ، وأبعث بتهانى إليك على عرباتك العديدة وخيولك، كما أبعث أيضاً بسلامى إلى بلادك » .

من ذلك نرى أن الصلات السياسية بين مصر وجاراتها فى آسيا وفى بلاد البحر الأبيض المتوسط كانت قائمة على قواعد مرعية ، وكانت لغة المراسلات الرسمية هى اللغة البابلية وكانت تعقد معاهدات صداقة بين مصر وتلك البلاد يؤكدها إرسال الهدايا مع رسل من الجانبين، وعقد أواصر المصاهرات ، إذ أن ملوك بابل وأشور وميتانى كانوا على حدود أملاك مصر الآسيوية ، وفضل المصريون أن يكونوا على صفاء معهم .

سوريا فى نهاية الألف الثانى قبل الميلاد :

ولسنا نعرف على وجه التحقيق إلى أى مدى وصل تألب الولايات السورية فى آخر عهد إخناتون فإن الوثائق التاريخية تنقصنا ، ولسنا نعرف إلى أى مدى وصلت الحالة فى داخلية البلاد السورية بعد خروج عزيرو على الحكم المصرى واستيلائه على كثير من مدن شمالى الشاطىء ، وربما كان للحملة التى قام بها القائد حور محب فى العام الأول من حكم توت غنخ أمون أثر فى الموقف ولو إلى حين[1] .

---

(١) وربما كانت المناظر المرسومة على جدران مقبرة حور محب التى كانت فى منف ، وعلى صندوق توت عنخ أمون تشير إلى ذلك .

وعلى أية حال فإن خيتا كانت فى عنفوان مجدها وربما حققت بعض أطماعها فى شمالى سوريا ، أما الجزء الجنوبى ، بما فى ذلك فلسطين ، فظل كما كان قبل ذلك مواليا لمصر .

انتعشت مصر فى آخر أيام الأسرة الثامنة عشرة عند تولى القائد حور محب الملك ، وبالرغم من أنه كان على رأس الجيش فإنه أدرك أن مصر فى حاجة ماسة إلى الإصلاح الداخلى . ويلوح أنه قد توصل إلى اتفاق مع الخيتيين وانصرف إلى إصلاحاته الداخلية ، ولكن بعد موته وتأسيس الأسرة التاسعة عشرة تجدد نشاط مصر لاستعادة إمبراطوريتها وبدأ سيتى الأول حملاته الحربية هناك واستعاد كما قال ، سمعة مصر وبلاد جده تحوتمس . ولكن بعد تولى ابنه رمسيس الثانى الحكم تجددت الاضطرابات هناك فذهب لقمعها فى العام الخامس من حكمه ، وحدثت معركة قادش المشهورة التى نرى مناظرها وتفاصيلها على كثير من المعابد المصرية . وفى المصادر المصرية نرى رمسيس الثانى يدعى أنه قد انتصر على ذلك التحالف الكبير الذى كان تحت رئاسة أمير قادش ويؤازره الخيتيون . وفى المصادر الخيتية ، نراهم يذكرون العكس وأنهم هزموا الجيوش المصرية وطاردوها حتى دمشق . ولو وازنا بين القولين ، فإننا نرى أن المصادر الخيتية أقرب إلى الصدق ، وإذا كان رمسيس الثانى يستحق أن يفخر بشىء فليس بمعركة قادش أى حملته فى العام الخامس وإنما بحملته فى العام الثامن التى استطاع فيها أن يثأر لنفسه بعد أن قامت الثورة وامتدت حتى فلسطين . ولكن هذه الحروب الطويلة انتهت عندما استقر رأى كل من مصر وخيتا على عقد محالفة بينهما . وقد وصلتنا نصوص هذه المعاهدة كاملة من كل من مصر وخيتا ، وقد اتفق فيها كل منهما على وضع حد للحروب بينهما وذكرا فيها أنه كان هناك حد فاصل ، ولكننا لسوء الحظ لا نعرف أين كان هذا الحد[1] وأراد « خاتوسيلى » ملك خيتا أن يوثق

(١) النصان المصرى والخيتى منشوران فى مقال Gardiner-Langdon, *Journal of Egyptian Archaeology*, VI (1920), p. 179 ff. وقد نشرا حديثا مع بعض التصحيحات والمراجع فى كتاب *Ancient Near Eastern Texts* (1950) وترجم النص المصرى جون ويلسون (ص ١٩٩ – ٢٠٠) وترجم النص الخيتى ألبرشت جوتزه (ص ٢٠١ – ٢٠٣) .

الصلة بينه وبين مصر لجاء لزيارتها وكانت معه ابنته ليزفها عروسا إلى رمسيس ، وكان ذلك فى العام الرابع والثلاثين من حكمه (فى عام ١٢٦٧ ق . م .) .

ولكن الحالة السياسية العامة فى بلاد الشرق الأدنى كانت تسير فى طريق آخر غير ما قدرته خيتا وما قدرته مصر . لقد بدأت فى ذلك الوقت هجرات هامة للشعوب الهندو ـ أوروبية ، كما بدأت أيضاً إحدى دول ما بين النهرين وهى مملكة أشور تدخل فى دور نهضة بعد زوال مملكة ميتانى . واجتاحت الشعوب الهندو ـ أوروبية كثيراً من البلاد وقضت فى النهاية على دولة خيتا .

الحيثيون :

ذكرت الحيثيين أكثر من مرة وسيرد ذكرهم مرات ومرات ، وربما كان من الخير تناول موضوع أصلهم وفترات نهضتهم بشىء من التحديد . فمن المرجح أنهم وفدوا إلى هضبة الأناضول فى بداية الألف الثانى قبل الميلاد من موطنهم فى أواسط آسيا إلى الشرق من البحر الأسود ، وأنهم فرع من فروع الشعوب الهندو ـ أوروبية ، وأصبحوا فى القرون الأخيرة من الألف الثانى قوة مدت نفوذها على ما جاورها من البلاد .

احتل الحيثيون عند مقدمهم جزءاً كبيراً من وسط هضبة الأناضول عند منحنى نهر الهاليس Halys وكانت عاصمتهم تسمى « خاتوساس » وموقعها الحالى المدينة الأثرية المعروفة باسم « بوغاز كوى » على مسافة سبعين كيلو مترا تقريبا إلى الشرق من أنقرة فى وسط منطقة جبلية وعرة ما زالت بقايا تحصيناتها وقصورها باقية إلى الآن ، وقد عثر فيها فى أوائل سنوات هذا القرن على كثير من الوثائق الهامة وبخاصة الألواح التى تشمل الأرشيف الملكى .

وحوالى عام ١٦٤٠ قبل الميلاد استطاع أحد ملوكهم ويسمى « لابارناس » مد نفوذه على أجزاء أخرى كثيرة فى داخل الأناضول ثم تمكن « خاتوسيل الأول » من توسيع رقعة ملكه ، ورمى بعينيه إلى إخضاع شمالى سوريا والسيطرة على

طرق التجارة بينها وبين أشور وبابل ، وقد تمكن خليفته « موروسيليس الأول » من تحقيق فكرته باستيلائه على حلب وغزوه أراضي الفرات واستيلائه على بابل ، ولكن هذا الغزو لم يعمر وقتا طويلا .

ومرت فترة على هذه الأسرة استطاعت خلالها أن توطد وتقوى ملكها داخل حدود آسيا الصغرى ، ثم قام الملك « شوبيلوليوما » Shubbiluliuma (حوالى عام ١٣٨٠ ق . م .) من مد نفوذ الحيثيين على منطقة واسعة فى شمالى سوريا واصطدم بالميتانيين ، ونصب حكاما موالين له فى المدن ، وحاول مد سلطانه أيضا على بلاد وادى نهر العاصي ومدن فينيقيا وجنوبي لبنان التى كانت موالية لمصر .

ووصلت قوة الحيثيين أوجها حوالى عام ١٣٥٠ ق . م . ولكن اتساع رقعة ملكهم كانت سببا فى ظهور الضعف فيها . ولم تكن هناك مندوحة من وقوع الصدام بين خيتا ومصر ، ودارت بينهما الحروب - كما ذكرنا من قبل - وانتهت أخيراً بالصلح وتوقيع المعاهدة الشهيرة بينهم وبين رمسيس الثانى ، وأصبحت الصلة بين البلدين صلة مودة وصداقة ، بل ومصاهرة بين البيتين المالكين . وحوالى عام ١٢٥٠ قبل الميلاد سقطت الإمبراطورية الحيثية تحت الضربات التى تلقتها من هجرات وغزوات قام بها على الأرجح فرع من فروع شعوب البحر .

وإذا كانت الامبراطورية الحيثية قد زالت وانتهت أيامها ، فإن عناصر الحضارة الحيثية ظلت حية لا فى هضبة الأناضول فحسب ، بل وفى شمالى سوريا أيضا ، حيث تأثرت كثير من مدنها وبخاصة فى حلب وفى غيرها بتلك الحضارة .

وأمكن معرفة اللغة الحيثية من دراسة الآلاف العديدة من ألواح الطين التى عثر عليها فى بوغاز كوى ، واتضح أنهم كانوا يستخدمون فيما بينهم لغتين يتحدثون بهما ترجعان إلى أصل واحد أولاها اللغة النسية (Nesite) وكانت لغة البيت المالك ، والثانية اللغة اللوفية (Luvite) التى كان يستخدمها عامة الشعب ومنتشرة انتشاراً كبيرا فى البلاد .

ومن دراسة نصوص بوغاز كوى وقف العلماء على الكثير من أساليب إدارة البلاد ، كما عرفوا أيضا الكثير عن ديانة هذا الشعب واقتصادياته .

لم يكن الملك رئيس الدولة فحسب ، بل كان أيضا الكاهن الأكبر ، ورئيس الجيش الذى يقوده فى المعارك ، وكان القاضى الأكبر الذى يحكم بين الناس فى منازعاتهم ، وكان لأمه الحق فى تولى مهام منصبه عند غيابه .

وكان يحيط بالملك مجلس استشارى من النبلاء ، وكان حكام الأقاليم يقومون بالحكم باسم الملك ، ومن أهم واجبات كل حاكم منهم أن يمد الجيش الامبراطورى بما يلزمه من جنود عند الحاجة مع الاحتفاظ بحامية ثابتة لصيانة الأمن والنظام .

ونعرف مما وصل إلينا من قوانينهم أنه كانت توجد طبقتان ، طبقة الأحرار وطبقة الأرقاء ، ولكن الجميع كانوا مكلفين بحكم القانون بالعمل فى إنجاز المشروعات العامة .

ومعلوماتنا عن دياناتهم قليلة نسبيا ، ولكن من الحقائق المعروفة أن بعض المعبودات السورية والحورية ، وربما بعض الآلهة التى كان يعبدها سكان آسيا الصغرى قبل قدومهم ، وجدت لها مكانا بين معبوداتهم . وكانت لهم معابد ، ومع ذلك فكانوا يقيمون كثيراً من احتفالاتهم الدينية ومراسيم الديانة وطقوسها فى الهواء الطلق وعلى الأخص إلى جانب مجارى الأنهار .

وكانت لهم مدن محصنة تحصينا قويا ومحاطة بأسوار ضخمة ، ومن مظاهر عمارتهم زخرفة الجدران بأحجار منقوشة وعمل بوابات كبيرة على جانبيها تماثيل ضخمة .

كان المجتمع الحيثى مجتمعا يقوم على الزراعة وتربية الحيوان ، وكان فى قوانينهم ما يكفى لحماية هذه الثروة مثل تحديد أثمان المحاصيل ، كما نعرف أيضا أن قوانينهم حددت أجور بعض فئات الصناع .

ولكن ثروة الحيثيين لم تكن مستمدة من الزراعة أو تربية الحيوان ، بل كانت فى الواقع من المعادن التى تحتوى عليها بلادهم والتى كانوا يستخرجونها وعرفوا طرق صنعها ، ومنها النحاس والفضة والرصاص . وعلى الأرجح أنهم عرفوا أيضاً صنع الحديد ، وكان لهذا المعدن أثر كبير فى حياتهم ، ويعتقد كثير من الباحثين فى تاريخ الصناعة أن الحيثيين هم أول من عرفوا صناعة الحديد ، وأنهم جمعوا ثروة من الأسلحة المصنوعة منه التى كانت تفضل الأسلحة المصنوعة من النحاس أو من البرونز .

يكفينا هذا القدر عن الحيثيين ، ولنعد الآن إلى استئناف سرد قصتنا عن سوريا .

سوريا فى الألف الأول قبل الميلاد :

أوضحت فى الفصل السابق ما تعرضت له مصر من أخطار ، عندما تقدمت شعوب البحر لمهاجمتها من الغرب فى البر ومن البحر ، وكيف استطاع الملك رمسيس الثالث أن ينقذها من خطر لم يقل عن خطر غزو الهكسوس .

وعلى أية حال ، فقد كان لهذا كله أثره المباشر على سوريا ، إذ انتهت سيطرة كل من خيتا ومصر السياسية ولم تكن أشور أو بابل قوية إلى درجة تسمح لها بانتهاز الفرصة ، وكانت النتيجة الطبيعية أن جميع البلاد السورية انقسمت إلى دول وولايات ، كان بعضها الذى يقع على الشاطىء تحت رحمة الشعوب المهاجرة التى استقرت فيها واختلطت بباقى السكان ، وكان البعض الآخر مستقلا بنفسه . وفى هذا الوقت أيضاً ، أى عند انهيار سلطة الدول الكبرى ، هاجرت شعوب سامية أخرى وأخذت تحارب وتستقر هناك .

وخير ما يمثل لنا ضعف سلطة مصر فى نهاية الأسرة العشرين وبداية الأسرة الواحدة والعشرين (أى حوالى ١٠٩٠ ق.م.) قصة الكاهن المصرى « ونأمون »

الذى قام برحلة إلى جبيل لإحضار أخشاب الأرز اللازمة لتجديد سفينة أمون وما لاقاه هناك من متاعب وسخرية . ولكن هذه القصة نفسها ترينا أنه بالرغم من زوال النفوذ السياسى لمصر واستقلال أمراء البلاد عنها فإن نفوذها الثقافى والدينى كان سائدا هناك .

عثر على هذه البردية فى خرائب قرية الحيبة[1] فى محافظة المنيا عام ١٨٩٩ ، وهى محفوظة حاليا فى متحف الأرميتاج فى مدينة ليننجراد بالاتحاد السوفيتى[2] ، ونظراً لأهميتها فى توضيح ما كانت عليه حالة كل من مصر والشاطئ السورى فى ذلك العهد ، وحقيقة الصلات التى كانت بينها ، فإنى أقدمها كاملة وتترك الكاهن « ونأمون » يحدثنا بأسلوبه السلس عن رحلته وما صادفه فيها مع المعذرة لركاكة بعض التعابير وذلك لاجتهادنا فى المحافظة التامة على روح النص المصرى ، وإذا احتاج الأمر لإيضاح ما ، فإن القارئ يجده موضوعا بين قوسين :

نص قصة « ونأمون » :

العام الخامس اليوم السادس عشر من الشهر الثالث من الصيف .(كان قدماء المصريين يؤرخون بحكم كل ملك على حدة كما أنهم كانوا يقسمون العام إلى ثلاثة فصول وهى الصيف والفيضان والشتاء وكل من هذه الفصول أربعة شهور وهى الشهور القبطية التى ما زالت مستعملة إلى الآن . والحكم المشار إليه هنا هو حكم « حريحور » الذى كان رئيساً للكهنة وملكا فى آن واحد) . فى هذا اليوم قام « ون آمون رئيس إدارة معبد الإله أمون بالكرنك » برحلته لكى يحصل على الخشب اللازم لسفينة الإله آمون ملك الآلهة وهى التى فى النهر والمسماة « أوسرحات آمون » .

---

(١) الحيبة قرية صغيرة فى الوقت الحاضر ولكنها كانت مدينة هامة فى الأسرة الحادية والعشرين وكانت مقر ولى العهد فى ذلك الوقت .

(٢) اشتراها العالم الأثرى جوليشف فى ذلك الوقت ، وقد قام الكثيرون بترجمتها ونجد بيانا بأهم المراجع عنها فى كتاب **Pritchard, *Near Eastern Texts*** **(1955) p. 25.** كما ظهرت حديثا ترجمة جديدة باللغة الروسية نشرها « كروستوفستف » ولكنى لم أرها بعد .

فى اليوم الذى وصلتُ فيه إلى «صان الحجر» مقر «سمندس» و «تنت آمون» (الملك الذى كان يحكم القسم الشمالى من مصر وزوجته) أبلغتهما رسالة «أمون رع» ملك الآلهة فأمرا بقراءتها فى حضرتهما وقالا «سنقوم بأداء ماطلبه أمون رع ملك الآلهة» وبقيت فى صان الحجر حتى الشهر الرابع من أشهر الصيف حتى مهد لى «سمندس» و «تنت أمون» السفر على مركب بقيادة القائد «منجيت» (الاسم سورى) . وفى أول يوم من الشهر نزلت إلى بحر سوريا الكبير (يقصد البحر الأبيض المتوسط) . وعند ما وصلنا إلى «دُر» إحدى مدن «زكار» قدم لى أميرها «بدار» خمسين رغيفا ، وقدرا من النبيذ وفخذ ثور ولكن أحد رجال السفينة فر وسرق معه الآتى بيانه :

ذهب — أوانى زنتها ٥ دبن

فضة — ٤ أوانى زنتها ٢٠ دبن

فضة — داخل كيس زنتها ١١ دبن

فيكون مجموعها ٥ دبن ذهب و ٣١ دبن فضة .[١] وفى الصباح ذاته نهضت وذهبت إلى حيث يجلس الأمير وقلت له «لقد سُرِقت فى مينائك وأنت أمير هذا البلد وقاضيه فابحث عن نقودى . إنها فى الحقيقة تخص أمون رع ملك الآلهة وسيد الممالك ، إنها تخص «سمندس» وتخص «حريحور» سيدى كما تخص كبار رجال مصر . إنها تخصك أيضا وتخص «أورت» و «مكمير» و «زكر بعل» أمير «جبيل»[٢]. فأجابنى «هل أنت آت لكى تتشاجر أم آت لتتفاهم ؟ إنى لا أفهم شيئا مما تقول ، ولو كان أحد رجال إمارتى هو الذى صعد إلى ظهر سفينتك وسرق نقودك لدفعت لك من خزانتى قيمة ماضاع منك حتى أعثر عليه ، ولكن اللص الذى سرقك هو رجل من رجالك وتابع لسفينتك فإزاء ذلك ابق معى بضعة أيام حتى

(١) الدبن وزن قديم قيمته ٩١ جراما .

(٢) كانت مصر فى ذلك الوقت كما أسلفنا منقسمة إلى دويلات صغيرة ودفع كل منهم جانبا من هذه النقود كما أنه يقصد أن يقول للأمير أن هـذه النقود كانت ستعطى للأمراء الذين أسماهم .

أبحث عنه » . وعلى ذلك بقيت تسعة أيام راسيا فى ميناته ثم ذهبت إليه وقلت له « إنك لم تجد نقودى وسأرحل مع القائد والراحلين . . . . . » (لسوء الحظ أن جزءاً من الملف البردى تحطم من تأثير القدم وفقد الكثير من كلماته ولكن مما بقى منها نستطيع أن نفهم أنه قد اشتد الجدل بين الاثنين وفى إحدى الجمل يذكر « ون أمون » أن الأمير قال له « يجب ألا تفوه بكلمة » ثم يقص بعد ذلك أنه غادر تلك الميناء ووصل إلى ميناء « صور » وواصل رحلته إلى « زكر بعل » أمير « جبيل » ولكن حدث أن قابل أثناء السفر بعض أفراد من قبيلة « زكار » فهاجمهم انتقاما منهم لأن اللص كان ينتمى إليهم واستولى على ما معهم وكان يبلغ ٣٠ دبن من الفضة فلما شكا هؤلاء ما أصابهم إلى الأمير أجاب « ون أمون » « إنها نقودكم حقيقة ولكنى سأبقيها وديعة عندى حتى تردوا لى نقودى » .

لم يكن بعد ذلك مناص من نشوب العداوة بينه وبين رجال شعب « زكار » ولقد فضل الأمير « زكر بعل » ألا يجلب على نفسه عداوة قوم أقوياء ولذلك آثر أن يتنكر للكاهن «ون أمون» مرضاة لهم فأمره بمغادرة البلاد ولكن «ون أمون» كان يريد الخشب وفى الوقت ذاته يخشى على نفسه إذا هو غادر الميناء أن يفتك به أعداؤه . بعد ذلك يستقيم النص المصرى ويستمر «ون أمون» فى سرد قصته : « وقضيت تسعة عشر يوما فى مينائه وكان يرسل لى يوميا من يقول لى غادر مينائى» وقد حدث أثناء تقديمه القرابين لبعض آلهته أن أخذت أحد أشراف بلاده نوبة عصبية فنطق أثناء غيبوبته قائلا « أحضروا الإله هنا ، أحضروا الرسول الذى أتى معه . إن أمون هو الذى أرسله وقدر عليه المجىء » وقضى الشاب ليلته يقول ذلك. وحدث أن سفينة كانت ذاهبة إلى مصر وكنت منتظرا إلى أن يرخى الليل سدوله حتى أتمكن من نقل تمثال الإله دون أن تقع عليه عين إنسان . وحضر إلىّ رئيس الميناء قائلا « ابق حتى الصباح حسب إرادة الأمير » فقلت له « ألست أنت الذى كنت تجىء إلىّ كل صباح قائلا غادر مينائى والآن تقول لى ابق ؟ ربما يجعل الأمير المركب التى وجدتها ترحل ثم يطلب منى بعد ذلك أن أغادر بلده » فذهب وقال ذلك للأمير فأرسل إلى قائد المركب يأمره أن ينتظر حتى الصباح

بأمر الأمير . فلما حل الصباح أرسل فى طلبى فتركت الإله (فى مخبئه) حيث كان على شاطىء البحر وذهبت إلى الأمير فوجدته جالسا فى حجرته العليا وظهره إلى الشباك وأمواج بحر سوريا الكبير تتلاطم وراء قفاه فبادرته قائلا «رحمة أمون» ، فأجابنى «كم مضى عليك من الزمن منذ غادرت مقر أمون ؟» ، فأجبته «خمسة شهور كاملة حتى الآن» فقال لى «هل أنت صادق فى قولك ؟ أين إذن خطاب الكاهن الأكبر الذى أرسله معك ؟» . فرددت قائلا أعطيته إلى «سمندس» و «تنت أمون» فثار ثائره وقال «انظر ! ليس لديك كتب أو خطابات ، أين إذن السفينة التى أعطاها لك «سمندس ؟» وأين بحارتها السوريون ؟ إنه لم يسلمك إلى قائد السفينة لكى تقتل ويلقى بك إلى البحر ، من أين أمكنهم الحصول على الإله ؟ وقل لى أنت من أين حصلوا عليك ؟» كان هذا هو قوله لى ، أما أنا فأجبته «ولكنها سفينة مصرية وبحارتها مصريون ، تلك التى يسيرها «سمندس» إنه ليس لديه بحارة سوريون» . فأجابنى «ولكنه يوجد عشرون سفينة هنا فى مينائى على «خبر»[1] مع سمندس . وفى صيدا التى اجتزتها يوجد أيضا خمسون سفينة على «خبر» مع «بركات إيل[2] وتذهب إلى حيث يقيم» .

فصمت فى هذه اللحظة الرهيبة ولكنه عاد قائلا «لأى غرض أتيت إلى هنا ؟» فقلت له «أتيت فى طلب الخشب لسفينة أمون رع ملك الآلهة . لقد اعتاد أبوك أن يفعل ذلك ، وكذلك كان يفعل جدك ، وستفعل أنت أيضا» . فلما قلت له ذلك أجابنى «لقد فعلوا ذلك حقيقة فإذا أعطيتنى شيئا فعلت أنا أيضا . لقد كان أهلى حقيقة يلبون هذا الطلب ولكن فرعون كان يرسل ستة سفن محملة من خيرات مصر وكانوا يفرغونها فى مخازنهم ، فعليك أنت بإحضار شىء لى» . وأمر بإحضار دفاتر القيد اليومى ، وأمر أن تقرأ بصوت مرتفع أمامى ووجدنا أنها كانت ألف دبن من كل نوع من أنواع الفضة ، تلك التى قيدت فى دفتره . ثم قال لى

---

(١) كلمة فينيقية معناها «اتصال» أو «مصاحبة» استعملت فى اللغة المصرية القديمة فى ذلك العهد .

(٢) ربما كان أحد كبار التجار السوريين المستوطنين فى مصر إذ ذاك .

«لو كان حاكم مصر هو المتصرف فيما أملكه وأنا عبد له لما أرسل ذهبا ولا فضة عندما أرسل قائلا «لبوا طلب أمون» كما أنها لم تكن هدية ملك أرسلها إلى أبي (يقصد بذلك أن يقول له دون أمون، أن المسألة لم تكن في الماضي جزية أو هدية ولكنها كانت تجارة) ، وأنا لست خادما لك كما أني لست خادما لمن أرسلك . إني إذا وجهت القول إلى لبنان تفتحت السماء ووجدت الأشجار على شاطىء البحر . أرني القلوع التي أحضرتها معك لكي تستعين بها لتسيير سفنك التي تحمل الخشب . أرني الحبال التي سترتبط الخشب بها لأنه بدون ذلك لا يمكن أن تصل الأخشاب سالمة إلى مصر . بل ربما كان هناك خطر أن تتحطم سفنك في وسط البحر لأن أمون يرسل الصواعق من السماء ويأمر «ستخ» بأن يثور في الفصل المعين له . لأن أمون هو الذي أنشأ الأراضي . أنشأها جميعاً . ومصر التي أتيت منها هي التي بدأ بها . لقد أتتنا الصناعات عن طريق مصر حتى هنا كما وصلتنا حضارتها في هذا البلد ولكن ما هذه الرحلة الصبيانية التي جعلوك تقوم بها ؟ »

فرددت عليه قائلا «لا تقل ذلك ! إن ما قمت به ليس رحلة صبيانية ، وليس هناك سفينة فوق الماء لا يملكها أمون . إنه هو البحر ويمت لبنان التي تدعى بأنها ملكك وما هي في الحقيقة إلا حقل لأجل الخشب اللازم لسفينة «أوسرحات - أمون» سيدة السفن جميعا . لقد نطق أمون رع ملك الآلهة بالحق عندما قال لحريحور سيدي أن يرسلني وجعلني أسافر، ونصحني هذا الإله العظيم . ولكن أنظر ! لقد جعلت هذا الإله العظيم يقضي تسعة وعشرين يوما منذ أن رسا في ميناءك وأنت تعلم حق العلم بأنه هنا . إنه باق كما هو . بينما أنت تقف تناضل . تناضل في أشياء هي له. وأن لبنان ما هي إلا ملك لسيدها أمون وأما ما قلته بشأن الملوك السابقين وما أرسلوه من ذهب وفضة فإن أمون أمرهم بإرسال هذه الأشياء بدلا من أن يمنح أجدادك الحياة والصحة . وهو السيد الأعظم المانح للحياة والصحة ، وكان سيد آبائك الذين نالوا حياتهم بتقديم قرابينهم له وما أنت أيضاً إلا خادما لأمون . فإذا قلت «حسنا سأفعل هذا» وتجيب ما طلبه فستحيا وتكتب لك الصحة والسعادة وستكون شخصا مباركا لأرضك ولقومك ، ولكني أحذرك

من أن يطمع قلبك فى شىء يخص آمون رع فإن الأسد لا يترك ما يملكه لغيره .
وأضفتُ قائلا « ادع كاتبك إلىّ لكى أوفده إلى « سمندس » و « تنت آمون »
سيادة أرض آمون الشمالية حتى يرسلوا لك ما تريده . سأكتب إليهم قائلا
« أرسلوا ما أطلبه حتى أصل إلى الجنوب وأرد لكم ما أخذته » . فأخذ كتابى
وسلمه إلى رسوله وأمر بالبحث عن الأخشاب اللازمة ومجموعها سبع كتل لكى
تحمل إلى مصر . وانتظرت عودة رسوله . فلما رجع من مصر إلى سوريا فى أول
أشهر الشتاء أحضر ما أرسله سمندس وتنت آمون إلىّ وهو كالآتى :

ذهب : أربع أباريق وإناء من نوع « كاكمنت » .

فضة : خمس أباريق .

ملابس من الكتان الملكى	—	١٠ قطع
كتان من نسيج الصعيد	—	١٠ لفات
ملفات بردى	—	٥٠٠ ملف
جلود ثيران		٥٠٠ جلد
عدس		٢٠ جوال
سمك		٣٠ سلة

وأما ما أرسلاه إلىّ شخصيا فهو :

ملابس كتان من نسيج الصعيد	—	٥ قطع
كتان من نسيج الصعيد	—	٥ لفات
عدس	—	١ جوال
سمك		٥ سلات

وقد سر قلب الأمير وأمر فى الحال بتخصيص ثلاثمائة رجل وثلاثمائة ثور
وعلى رأسهم الملاحظون لكى يقطعوا الأشجار . وقد قطعوها وبقيت طيلة الشتاء
وفى الشهر الثالث من شهور الصيف جروها إلى شاطىء البحر

وخرج الأمير ووقف بجوارها وأرسل من يدعونى قائلا «تعال»، فلما أحضرونى إليه اقتربت منه حتى وقع ظل مظلته علىّ فتقدم «بنامون» ساقيه ووقف بيننا قائلا . «لقد وقع عليك ظل فرعون سيدك»[1] . فغضب الأمير من ذلك وصاح به : «اتركه وشأنه» . فقربونى منه وقال يخاطبنى : «انظر ! إن المهمة التى كان يقوم بها آبائى فيما مضى قد قمتُ بها رغم أنى لم آخذ ما كانوا يأخذون . لقد وصلت آخر قطعة من الخشب وتجده كله هناك فنفذ رغبتى الآن . حملها لأنها صارت لك ولا تخف من البحر ، فإذا خفت منه فلا تنس الخوف من غضبى . إنى تسامحت معك ولم أفعل بك ما فعلوه مع رسل «خعمواس» عندما قضوا سبعة عشر عاماً فى هذه البلاد حتى ماتوا . وصاح بساقيه قائلا : «خذه وأره مقابرهم حيث يرقدون»[2] . فأجبته : «لا ترينها ! فأما خعمواس فلم يكن إلا إنساناً ، ورسله رجال مثله ، وأنا لست واحداً منهم ، ومع ذلك تقول اذهب والق نظرة على زملائك . أليس الأجدر بك أن تفرح وأن تأمر بلوحة يكتب فيها «أن أمون رع ملك الآلهة أرسل إلى رسوله «أمون سيد الطريق» مع «ون أمون» رسوله الإنسانى فى طلب الخشب اللازم لسفينة أمون رع العظيمة . لقد قطعته وأعددته وحملته بواسطة سفنى وبحارتى حتى وصلت إلى مصر لأحصل لنفسى من أمون على عشرة آلاف سنة زيادة عن عمرى المقرر لى . وهكذا سيكون» فإذا جاء يوما ما فى مستقبل الأيام رسول من مصر يعرف القراءة وقرأ اسمك على اللوحة فستنتعش روحك ويصلك ماء الشرب فى العالم الآخر كالآلهة الذين يقيمون هناك» . فقال لى : «هذه بينة كبيرة على ما قصصته على» (المعنى الذى يقصده الأمير غامض ولكن من إجابة الكاهن يتضح أنه لا يهمه أمر الدين كثيراً) . فأجبته «عندما أصل إلى مقام كاهن أمون الأكبر ويرى ما قمت به فستصلك أشياء أخرى ، وهذا رد على ما جاء على لسانك ، وطلبته» .

---

(١) قد استخدم الأمير ساقيا مصريا كما يتضح من اسمه وهذا الساقى يريد أن يحيى تقاليد البلاط المصرى التى كانت لا تسمح لأى فرد من الرعية أن يقترب من الجالس على العرش .

(٢) يشير إلى قصة رسل أرسلهم أحد ملوك الرعامسة ، وربما كان رمسيس التاسع ، وهى قصة لا نعرف شيئا عنها إلا ما هو مذكور هنا .

وذهبت إلى الشاطئ حيث وضعوا الخشب ورأيت أحد عشر سفينة آتية من البحر وهى تخص أهل « زكر » آتية ومعها الأمر : « حدوه أسيراً ولا تجعلوا أى سفينة له تصل مصر » فلم يسعنى إلا الجلوس والبكاء .

فجاءنى كاتب الأمير وسألنى : « ماذا أصابك » ، فأجبته : « وأيم الحق لقد رأيت الطيور تعود للمرة الثانية ميممة نحو مصر . أنظر إليها طائرة نحو البحيرة المنعشة ، ولست أعلم كم أبقى من الوقت هنا ، وها أنت تراهم أتوا لأخذى أسيرا » .

فذهب وأخبر الأمير بذلك فحزن الأمير وبكى لهذه الأخبار المحزنة ، وأرسل إلى كاتبه ومعه دنان من النبيذ وخروف ، كما أرسل « تنت نوت » ، وهى مغنية مصرية كانت عنده وقال لها : « غنى له ولا تجعلى الحزن يتطرق إلى قلبه » ، وأرسل رسوله يقول لى : « كل واشرب ولا تجعل للهم سبيلا إلى قلبك وستسمع رأيى غدا » . فلما أصبح الصباح دعا أصحاب سفن « زكار » ، ووقف فى وسطهم قائلا : « ما معنى مجيئكم ؟ » فأجابوه : « لقد جئنا فى طلب السفن التعسة التى سترسلها إلى مصر مع زملائنا » . فقال لهم : « أنا لا يمكننى أخذ رسول أمون أسيرا فى بلادى . دعونى أرسله بعيدا ويمكنكم أن تتبعوه وتأسروه » .

ومكننى من السفر من الميناء إلى البحر ، وساقنى الريح إلى بلاد « أرسا »[1] ، فخرج أهل المدينة لذبحى فجريت منهم حتى وصلت إلى مسكن « حتب » ملكة البلدة والتقيت بها عندما كانت خارجة من أحد بيتيها ذاهبة إلى الآخر . فحييتها وقلت للذين حولها : « أليس فيكم من يفهم اللغة المصرية ؟ » فأجاب أحدهم « أنا أفهمها » فقلت له : « قل لسيدتك بأنى سمعت الناس يقولون فى كل مكان حتى وصل قولهم إلى طيبة مقر أمون ، بأن الظلم يرتكب فى كل بلد إلا فى مدينة أرسا حيث يسود العدل ، ولكنى أرى الظلم يصيب الناس كل يوم » . فأجابت « ماذا يعنى قولك

---

(١) « أرسا » هى قبرص ولم يوضح « ون أمون » السبب الذى دعا أهل الجزيرة لأن يقفوا منه هذا الموقف العدائى .

هذا ؟ » فقلت لها : « إذا ثار البحر واضطرنى الريح أن أرسى على البلد الذى تقيمين فيه فأرجو ألا تقبضى علىّ لتقتلينى ، علما بأنى رسول الإله أمون . تدبرى جيدا فإنى شخص سوف يبحث قومه عنه . وأما بحارة أمير جبيل الذين سيذبحونهم أيضا فإن سيدهم سوف يثأر لهم ، وإذا وجد عشرة من بحارتك فسيقتلهم » . عند ذلك دعت الناس لحضروا إليها فخاطبتهم قائلة « اذهبوا لتناموا . . . . » . هنا ينتهى النص لفقد باقيه لسوء الحظ . وقد بقيت القصة دون أن نعرف ماذا حدث له وكيف تغلب على صعوبته الجديدة ولو أننا على ثقة أنه وصل إلى مصر ورفع تقريره .

الآن وقد انتهينا من ترجمة هـذه القصة ترجمة حرفية ورأينا لونا من ألوان الأدب المصرى القديم فى سرد الحكاية والمحاورة وروح الدعابة التى فيها ، وجب علينا أن نتحدث قليلا عما احتوته .

ليست هذه القصة فى حقيقة الأمر غير جزء من التقرير الذى رفعه الكاهن « ون أمون » عن رحلته غير الموفقة . لقد صادفه النحس من البداية وظل ملازماً له ، وكان ذلك بسبب سوء تصرفه إذ أنه هو الذى بدأ بالعدوان . وتكشف لنا هذه القصة أيضا عن حوار ممتع بين شخص لا يعتمد على شىء إلا على حسن منطقه ويريد أن يلقى فى روع كل إنسان أنه موفد من قبل الإله أمون وأن رحلته لها ميزة إلهية . ولكننا نلمس من حديث « ون أمون » نفسه أن هذه الدعوة لم تلق سامعا ، كما أن التمثال الذى كان معه لم يفده شيئا ، بل كان على العكس مصدر تعب له ليقظته المستمرة عليه وحرصه على ألا تقع عليه عين إنسان أثناء نقله . ولكن مهما قلنا عن عدم توفيق الرحلة فإنا لا يسعنا إلا الإعجاب بفصاحة « ون أمون » وحسن تصرفه وسرعة بديهته فى كل المواقف التى مرت عليه وجلده الذى لم يخنه إلا مرة واحدة عندما جلس ليبكى على شاطئ البحر لما رأى سفن أعدائه آتية لأخذه أسيراً والاستيلاء على ما معه فى اليوم الذى تحقق فيه غرضه وكان على وشك الإقلاع بسفنه عائداً إلى مصر .

إننا نلمح فى ثنايا هذا التقرير أو هذه القصة الكثير من نفوذ مصر الأدبى فى فينيقيا رغم أنه قد مضت نحو مائتى عام على الوقت الذى كان يرى فيه أهالى تلك البلاد الجنود المصرية تروح وتغدو بينهم كان الأمير يتكلم اللغة المصرية كما أن ساقيه كان مصريا وكاتبه كان مصريا وفى قصره مغنية مصريه ، وهى التى أرسلها إلى الكاهن لتسرى عنه همومه بغنائها ورقصها . كانت الموسيقى المصرية ذائعة فى جميع الأمم القديمة ، واعترف اليونان بأنهم نقلوا عن مصر أصول هذا الفن فليس من المستغرب أن نجد أمير لبنان لا يرى سبيلا إلى إشباع نفسه من هذه الموسيقى إلا بإحضار مغنية تقيم فى بلاطه .

كان موقف هذا الأمير مع الكاهن « ون أمون » مملوءا بالمتناقضات ، ولكنها متناقضات يفسرها أمر واحد ، وهو حب هذا الأمير للمال . كان غرضه الأساسى هو الحصول على الثمن ، فلما وصله لم يعد يهمه الكاهن فى شىء ، وأراد التخلص منه لئلا يجلب عليه عداوة أناس ربما كان فى حاجة إلى صداقتهم ، ولكنه ساعده فى اللحظة الأخيرة على الإفلات من يدهم ، وعطف عليه فى محنته وساعدت الأقدار هذا الكاهن السيء الحظ فيما بعد فنجا من أعدائه الذين يريدون هلاكه .

لقد رأينا من كلمات الأمير أنه رغم عدم اعترافه بسلطة الإله أمون رع على بلاده فإن حديثه ينم على معرفته التامة لمصر وآلهتها . ويجب ألا يغيب عنا أن هذه القصة ترينا أن سكان الشاطىء السورى فى هذا العصر كانوا على كثير من الحضارة وكان لأمرائهم قصور تطل على البحر ، كما أنه كان لهؤلاء الأمراء دواوين منظمة تحفظ فيها جميع الأوراق الهامة لمئات السنين ، كما يجب ألا ننسى أيضا أن هذه الأوراق كانت تحرر على البردى الذى كان يأتى من مصر كما ينص هذا التقرير على وجود خط ملاحى منتظم بين جبيل وصان الحجر فى ذلك الوقت ووجود تجار سوريين أغنياء فى الموانىء المصرية .

وإن هذه القصة ، ولو أنها لا تعد فى المرتبة الأولى بين ما وصل إلينا من الأدب المصرى القديم، ليست إلا صورة لتقرير رفعه مصرى عن مهمة أداها، ونحن

لا يسعنا الآن عند قراءتها إلا العطف على « ون أمون » لما لاقاه من صعاب كما نحس فى كل جملة من جملها روح الدعابة الغالبة على أسلوبه ، واعتماده على حسن منطقه . وهى تصور لنا فى الوقت ذاته جانبا من جوانب التاريخ المصرى وصلة مصر بالشاطئ السورى قبل ثلاثة آلاف سنة .

ضعف الإمبراطوريات الثلاثة وازدهار بعض الدول السورية :

كان لضعف كل من العراق ومصر وخيتا أثره المباشر ، كما قلنا ، كما كان لأحداث القرنين السابقين اللذين أعقبا ضعف الإمبراطورية المصرية تأثيرهما المباشر أيضاً ، إذ حدثت أثناءها هجرات سامية جديدة . فإذا ما انقشع الغبار نجد أن ثلاثة شعوب قد بدأت توطد أقدامها فى البلاد السورية ، وربما كانت هناك شعوب أخرى ولكن هذه الشعوب الثلاثة احتلت مكان الصدارة ، وكان لكل منها شأن كبير فيما بعد . وهذه الدول الثلاثة هى : الآراميون والفينيقيون والعبرانيون ، ولم تكن هذه الشعوب جديدة على المنطقة بل كانت فيها منذ قرون كثيرة ، ولكنها بدأت فى هذا الوقت بالذات تدخل فى أدوار جديدة هامة من تاريخها .

ويحسن بنا الآن ، وقد وصلنا إلى هذا الحد ، أن نتناول كلا منها أو بعضها على حدة ، ولكن قبل أن نفعل ذلك يجب أن نقف وقفة قصيرة لنلقى نظرة عامة على حالة البلاد . فمنذ فجر التاريخ أى حوالى عام ۳۰۰۰ قبل الميلاد أخذت الهجرات السامية تتوالى على هذا الجزء من بلاد الشرق كما توالت أيضا على العراق وإلى حد قليل على مصر . وليس معنى ذلك أن البلاد السورية كانت خالية من الساميين فى ذلك الوقت بل كان فيها دون شك أقوام ساميون اختلطوا بسكانها الأصليين الذين كانت لهم لغات وديانات غير سامية الأصل ، ولكن سرعان ما طغت اللغات السامية على غيرها . ويتضح لنا ذلك من دراسة تاريخ كل من الأموريين

(ويكتبها البعض العموريين فى بعض المؤلفات) والكنعانيين . ومما عثر عليه فى البلاد التى تم حفرها فى فلسطين فى الجنوب ، وفى راس الشمرة فى الشمال وفى تل الحريرى فى الشرق وفى كثير من مدن الشاطىء فى الغرب . ومنذ هذا الوقت أيضا حتم موقع سوريا الجغرافى عليها أن تتصل بالمدنيات الكبيرة التى كانت حولها ، فكان لكل من مدنيات مصر والعراق بنوع خاص أثرهما الكبير ، كما كان للمدنية المينوية وبلاد الأناضول أثرهما أيضا . ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك فإن هجرات الشعوب الهندو ـ أوروبية واستيطانها فى كثير من المناطق السورية كان لها هى الأخرى أثر غير قليل . ولكن جميع هذه التأثيرات لم تؤثر إلا أثراً محدوداً على قوة العنصر السامى ، وإن كان اتصالها بكل هذه المدنيات ترك فى المدنية السورية أثره فى الدين وفى الصناعة وفى العادات ، بل أن التقاء هذه المدنيات فى سوريا وامتزاجها فيها جعل لها طابعا خاصا تميزت به فى بعض عصورها ويتضح ذلك بجلاء منذ الألف الأول قبل الميلاد بنوع خاص .

الأراميون :

ولن يتسع نطاق هذا البحث لذكر الكثير عن الأراميين أو غيرهم ولكن تكفينا بعض لمحات قليلة للتعريف بهم . لقد ظهر اسم « أرام » فى المصادر التاريخية منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد[1] ، كما ورد أيضاً فى وثائق مدينة مارى وفى وثائق أوجاريت فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد ، وفى الوثائق الأشورية المبكرة فى القرن الرابع عشر عندما تحدث الملك الأشورى « اريك ـ دين ايلو » (١٣١٧ — ١٣٠٦) عن انتصاره على الأراميين وما ذكره تيجلات بلسّر الأول (١١٢٠ — ١٠٧٤) عن الأراميين ـ الأخلامو الذين جاءوا من الصحراء وبثوا الفوضى على شواطىء الفرات[2] .

---

(١) ورد ذكر « أرام » المرة الأولى فى نصوص من عهد الملك نرام سين حفيد سرجون الأول .

(٢) جاء ذكر الاخلامو فى رسائل تل العمارنة ومعناها الرفاق ، وربما كان هذا هو الاسم الذى أطلقه الأشوريون على بعض قبائل كونت من نفسها اتحادا فأصبحوا يسمون بهذا الاسم .

أخذ الآراميون يقيمون «دول ـ مدن» تجارية فى بلاد الفرات الأوسط ، وفى منطقة سوريا الوسطى منذ نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وكان اسم إحدى دولهم « أرام ـ نهرايم » أى أرام النهرين . ولكن الأشوريين قضوا على هذه الدولة فى القرن التاسع قبل الميلاد . من هذه الدول أيضاً كانت دولة أخرى عاصمتها فى حران[1] وتسمى فدان أرام . ولكن الدولة التى أصبح لها شأن كبير كانت مملكة دمشق « أرام دمشق » التى تأسست فى أواخر القرن الحادى عشر قبل الميلاد أى فى وقت تأسيس مملكة العبرانيين على الساحل ، وأصبحت لها مكانة كبيرة واتسعت رقعتها .

كانت عاصمة الآراميين فى ذلك الوقت فى مكان يسمى صوبا (زوباه) ويرجح أن مكانها الآن بلدة عنجر فى البقاع جنوبى زحلة[2] . وقامت حروب كثيرة بينهم وبين العبرانيين ، وقد استولى الملك داوود أثناء هذه الحرب ، لفترة قصيرة ، على مدينة دمشق ولكنها سرعان ما تخلصت من ذلك . وبعد موت سليمان وتفرق كلمة العبرانيين استطاع الآراميون الاستيلاء على بلادهم وأصبحت مملكة إسرائيل نفسها تحت حمايتهم ، وكان ذلك حوالى عام ٨٧٥ ق . م . كما نعرف من رواية التوراة[3] .

وعندما بدأت الدولة الأشورية فى توسعها فى القرن التاسع قبل الميلاد . واصطدمت بالآراميين وهددت جميع البلاد السورية ، كون ملك دمشق اتحاداً من اثنى عشر ملكاً كان على رأسه ملكها « بن ـ هدد » ، وكان من أشهر الذين انضموا إلى هذا الاتحاد آخاب ملك إسرائيل ، وملك حماة وبعض المدن الفينيقية وبلغ عدد جيشهم ٦٠,٠٠٠ فقابلوا الأشوريين فى معركة القرقار على نهر العاصى .

(١) نعرف من قصص التوراة أن اسحق بن سيدنا ابراهيم تزوج من رفقة وكانت حرانية كما أرسل ابنه يعقوب ليتزوج من حرانية أيضا (سفر التكوين ٢٤ : ٤ ، ٢٩ : ٢١).

(٢) Kraeling, *Aram and Israel*, *p. 40*

(٣) سفر الملوك الأول ١٥ : ١٨ وسفر الأيام الثانى ١٦ : ٢ — انظر أيضا سفر الملوك الأول ٢٠ : ١ .

ولم يكتب النصر الكامل لأحد الجيشين وانسحب الأشوريون . واتسع نفوذ مملكة دمشق فى عهد « بن هدد » ويسمى أيضاً « حزائيل » فهاجم مملكة إسرائيل ووسع سلطانه جنوباً حتى ضم شرق الاردن ووصل إلى سهل فلسطين الساحلى وتمكن بذلك من السيطرة على طرق التجارة التى كانت تسير فى ذلك الوقت بين بلاد العراق ، والساحل ، ومصر ، وبلاد العرب ، وأصبحت مملكة إسرائيل تحت رحمتها ، كما قبلت مملكة يهوذا دفع الجزية لها . ولكن حروب حزائيل المستمرة أضعفت مملكة دمشق فاستطاع يربعام الثانى أن يستقل ثانية ، بل استطاع مهاجمة بعض بلاد المملكة الارامية نفسها ، ومن بينها دمشق وحماة ، حوالى عام ٧٥٨ ق . م .

وأخيراً انتهز أحد ملوك أشور العظام وهو تجلات - بلسر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ قبل الميلاد) فرصة النزاع بين ممالك دمشق وإسرائيل ويهوذا فاستطاع ذلك الملك الأشورى أن يهزم الاراميين ، وصب غضبه ونقمته على دمشق فخربها وأحالها إلى حطام ، وحرق بساتينها وأجلى عنها أهلها[1] . سقطت دمشق فى عام ٧٣٢ ق . م . ولكن مملكتى إسرائيل ويهوذا اللتين ساعدتا على ذلك جاء دورها فيما بعد ، وانتهتا على يد الملك الأشورى نفسه ، ومن جاء بعده ، وخصوصا سرجون الثانى .

ولم تقم للمملكة الارامية بعد ذلك قائمة ، وأصبحت المنطقة كلها منذ ذلك الحين حتى ظهور الإسكندر الأكبر تدور فى فلك الدول الكبرى التى أخذت تتصارع ، فظهر الكلدان ثم جاء الفرس وأخيراً الإسكندر الأكبر . ولكن إذا كانت المملكة الارامية قد زالت كقوة سياسية فقد بقيت آثارها الثقافية فى بلاد الشرق وقتا طويلا بعد زوالها ويتمثل ذلك فى ديانة الاراميين ولغتهم .

كان الاراميون أهل تجارة فانتشرت معهم اللغة الارامية ، وكانت بين اللغات التى انتشرت مع التوسع الأشورى ، وزاد انتشارها حتى أصبحت لغة التجارة

(١) جاء وصف أعمال تيجلات بلسر الثالث و نقوشه — انظر تفاصيلها Luckenbill *Ancient Records* I, 777

الرسمية فى جميع بلاد الهلال الخصيب قبل القرن الخامس قبل الميلاد . وكانت اللغة شبه الرسمية فى عهد الفرس ، وكانت اللغة التى يستخدمها يهود فلسطين فى جميع البلاد التى تفرقوا فيها بعد سبي بابل ، وبعد استقرارهم فى كثير من البلاد فى عهد الفرس . بل يذهب بعض الذين عنوا بتاريخ الآراميين إلى أنها كانت منتشرة من الهند حتى بلاد الحبشة ، كما كانت اللغة التى يتحدث بها الناس فى كل من سوريا وفلسطين عند ظهور المسيحية ، وكتبت بها الأناجيل . وانتشرت مع اللغة الآرامية الكتابة الآرامية أيضا فاستخدم اليهود من الآراميين ، بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، الكتابة الآرامية وكانوا قبل ذلك يستخدمون الكتابة الفينيقية . كما أخذ العرب الشماليون من الأنباط كتابتهم التى كانوا يستخدمونها ، وهذه بدورها مشتقة من الكتابة الآرامية . ومن المعروف أن أقدم نسخ القرآن كتبت بهذا الخط وأن الكتابة العربية الحديثة قد تطورت عن تلك الكتابة ، كما نعلم أيضاً أن الكتابة الآرامية قد انتشرت بين الفرس والأرمن والهنود . أما اللغة الآرامية فقد بقيت ـ كما قلنا ـ فترة طويلة من بعدهم، وظلت فى مملكة شمأل (فى سنجرلى بين أنطاكية ودمشق) وفى حماة ، وفى تدمر بل وفى فلسطين ، وفى الجنوب بين الأنباط ، وقد ظلت حتى اليوم اللغة الرسمية فى الكنيسة السوريانية ، بل وما زال بعض أهل سوريا يتحدثون بها الآن ، وليست السوريانية إلا إحدى اللهجات الآرامية[1] .

أما عن ديانتهم فإنا نعرف أنه كان لهم إله رئيسى يسمى « هدد » (ويكتب أحيانا حدد ، أو أدد) ويرجح أنه انتقل منهم إلى الأموريين وإلى البابليين كما انتقل أيضاً من الأموريين إلى الكنعانيين . وكان من ألقابه « رمون » أو « رمان » ومعناها المرعد وكان مختصا بالزوابع والرعد والأمطار وكان معبده الرئيسى فى

---

(١) من أفضل المراجع عن تاريخ الآراميين الكتاب الذى وضعه A. Dupont-Sommer, *Les Araméens, Paris* 1949, وقد عرض فيه ديبون — سوميه لتاريخ الآراميين وثقافتهم وديانتهم وأثرهم فى بلاد الشرق عرضا مختصرا يتسم بالدقة وسعة الاطلاع ، وفيه أهم المراجع الهامة ، كما يجد القارىء أيضا بعض النقط الهامة و الفصل الخاص بالآراميين فى كتاب *Moscati, Geschichte und Kultur der Semitischeu Völker* (1955), *p.* 148-168.

فى المدينة التى كانت تسمى فى العصور اليونانية ـ الرومانية باسم « هيرابوليس » وذكرت فى المصادر العربية باسم « منبج » .

ولم تكن عبادته قاصرة على هذه المدينة بل انتشرت فى مدن كثيرة فى بقاع مختلفة من سوريا ، وقد توحد مع عبادة الشمس، ومن المحتمل أنه أصبح فيما بعد الإله جوبتر الذى كان يعبد فى دمشق وفى بعلبك

وجاء ذكر معبد « هدد » فى دمشق فى التوراة (الملوك الثانى : ٥ ، ١٨) وكان يشغل المكان الذى أقيم فيه المسجد الأموى ، وقد ذكر الاصطخرى (فى منتصف القرن العاشر الميلادى) أن هذا الهيكل كان يتعبد فيه الصابئة ثم اليونان واليهود. وكان لهدد زوجة تعبد إلى جانبه وذكرت فى المصادر اليونانية الرومانية باسم « أترجاتيس » (Atargatis) وتقابل الإلهة « عشتر » . ونعرف أيضاً من أخبار التوراة أن معبد « هدد » فى عهد الآشوريين كان معبدا فخما أعجب به الملك الآشورى تيجلات بلسر وأمر بأن تؤخذ أبعاده ليقام معبد مماثل له فى أورشليم ، كما نعرف أيضاً أن هذا المعبد كان معبدا هاما فى العهد الفارسى ، وقد أرسلوا إليه تمثالا للإلهة « عنت » . ولم يكن « هدد » وزوجته « أتارجاتيس » هما الإلهين الأوحدين لدى الأراميين بل عبدوا معهما آلهة أخرى أخذوا عبادتها من الشعوب المجاورة لهم مثل الإله « ايل » والإله « ركاب ـ ايل » أو « ركاب » فقط ، والإله « شمش » ، والإله « رشف » الذى يعرف أيضا باسم « بعل شمين » أى رب السماوات .

ومن دراسة الآثار السورية نعرف أن الإله « هدد » كان المعبود الأكبر فى منطقة حلب وزنجرلى ، وقد حلت عبادته محل إله آخر كان معروفا فى شمال سوريا وهو الإله « خمانى » (Hamani) وقد اشتهرت عبادته فى حلب منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد . وكان لهذا المعبد وحى يقصده جميع سكان المناطق المجاورة التماسا للمشورة ، وقد توقف شلمناصر الثالث ملك أشور فى حلب ليقدم له القرابين . وعثر فى مدينة زنجرلى على نقوش بالكنعانية (من القرن التاسع ق . م .) وبالأرامية (القرن الثامن ق . م .) وكلها تشير إلى احتلال هذا الإله للمكان الأول كإله لتلك المناطق الشمالية . ومن أهم ما عثر عليه فى زنجرلى

تمثال من عهد ملك يسمى « بنامو » نرى فيها هذا الإله واقفا وله لحية وقد حلى رأسه بقرنين ، وقد جاء فى النقوش التى أمر الملك بنقشها على هذا التمثال « لتأكل روح (نفش) بنامو مع هدد وتشرب روح (نفش) بنامو مع هدد » .

ولكن فى العصور المتأخرة ، كان معبده فى هيرابوليس (مدينة منبج) هو المركز الرئيسى لعبادته . وقبل مجىء الإسكندر إلى سوريا كانت عملة تلك المدينة فى عهد ملكها « عبد هدد » تصك وعلى أحد وجهيها اسم هذا الملك وعلى الوجه الآخر اسم الإلهة أتا (عنت) أو أتاعرتا ، التى كتبها اليونان « اتارجاتيس » أو « در ـو » ويكمل ثالوث هدد وزوجته ابنهما سيميوس ، وقد كان لهذا الثالوث شأن كبير فى جميع البلاد السورية فى العصور المتأخرة

الفينيقيون :

كثيرا ما أشرت إلى مدن الشاطىء وصلتها القديمة بمصر منذ أبعد العصور ، وسواء أطلقنا عليه اسم الشاطىء السورى أو أرض فينيقيا أو بلاد الكنعانيين[1]،

---

(١) سكان هذه المنطقة كانوا يسمون الكنعانيين وقد سماهم اليونان فيما بعد باسم الفينيقيين، وهم من قبيلة سامية كبيرة نزحت على الأرجح خلال الهجرة السامية الكبرى، وكان منها الأموريون الذين استوطنوا فى داخل سوريا وتأثرت ثقافتهم تأثرا كبيرا ببلاد الرافدين ، ومنها أولئك الكنعانيون الذين استوطنوا الشاطىء وتأثرت ثقافتهم تأثرا واضحا كبيرا بحضارة مصر . وقد حاول بعض أساتذة الساميات تفسير أصل اسم كنعان بأنها مشتقة من أصل سامى « خنع » قنع » كنع » اشارة إلى الضعة ومنها مجازا إلى الأرض الواطئة لسكناهم على الساحل . ولكن الرأى المقبول الآن من أكثر المشتغلين بهذه الدراسات هو أن أصل كلمة . . كنعان . . غير سامى ويرجعون اشتقاقه من كلمة هندو ـ أوروبية (فى اللغة الحرية) تعنى الصبغة القرمزية إذ كانت هذة المنطقة تشتهر بهذه الصبغة عندما اتصل الحريون بتلك البلاد فى القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد. وفى اللغة البابلية كتبوا اسمها « كنغى » ووردت فى اللغة الفينيقية نفسها تحت اسم « كينع » وفى العبرانية « كنعان » ومنذ القرن الثانى عشر قبل الميلاد أصبحت كلمة « كنعانى » مرادفة لكلمة « فينيق » . أما أصل اسم « فينيقيا » *phoinix* فهى مشتقة على الأرجح من كلمة يونانية تعنى القرمز أو اللون الأرجوانى ، وذلك لشهرة هذا الساحل بصناعة الأصباغ القرمزية والملابس الأرجوانية اللون. ومن يريد التفصيل عن هذا الموضوع فليرجع إلى كتاب PH. K. Hitti, *History of Syria* (*London, 1951*), *p. 79-81* وما ذكره من مراجع .

فإن الحقيقة الواضحة فى تاريخ هذه البقعة من مناطق العالم هى كثرة اشتغال أهل مدنها الساحلية بالتجارة، وأنها كانت تعتمد اعتمادا أساسيا على صلاتها التجارية بغيرها من البلاد، وبخاصة مصر، عن طريق البحر وبالبلاد الواقعة فى داخل آسيا عن طريق البر .

ولو خلفنا وراءنا كلا من الألف الثالث قبل الميلاد وكذلك الألف الثانى ووصلنا إلى أوائل الألف الأول نجد أنه قد نشأت فى كثير من موانى هذا الشاطىء دويلات كانت مستقلة عن بعضها البعض وإن جمعت بين البعض منها، من حين إلى آخر، اتحادات أو كتل متحالفة . لم يعد هناك خطر على استقلال تلك المدن من ناحية مصر، ولكن الخطر كان متوقعا من ناحية أخرى، من ناحية أشور، ولكن أشور لم تدخل فى دور توسعها إلا حوالى عام ٨٠٠ قبل الميلاد، أى بعد مائتى سنة تقريبا من بداية الألف الأول قبل الميلاد . وفى هذه الفترة بالذات أى فى القرنين الأولين من الألف الأول كانت مدن الشاطىء بوجه عام تجتاز فترة ازدهار، وبخاصة مدينة صور التى تمتعت إذ ذاك بعصر ذهبى فى تاريخها ووصلت إلى قمة مجدها فى التجارة، ولم تقتصر أساطيلها التجارية على نقل التجارة بين الموانى المعروفة فى البحر الأبيض المتوسط، بل أسست مستعمرات تجارية جديدة فى مناطق نائية كما خرجت من المضيق الذى نسميه الآن جبل طارق إلى عرض الأطلسى لنقل التجارة إلى الشواطىء الغربية من كل من قارتى أوروبا وأفريقيا .

كان ملك صور فى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد يسمى « أبى - بعل » ثم خلفه على العرش ابنه أحيرام (ويكتب أحيانا حيرام) الذى حكم بين عامى ٩٨٠، ٩٣٦ ق . م . وكان معاصرا للملك سليمان بن داوود . اهتم أحيرام بتجميل مدينة صور وتوسيع رقعتها، وشيد فيها عددا من القصور والمعابد الجديدة، كما اهتم بترميم بعض المعابد القديمة . ومن أهم أعماله ما قام به من تحسينات وإنشاءات لتوسيع الميناء إذ جعل لمدينته ميناءين إحداهما فى شمالها والثانى فى جنوبها كعادة الفينيقيين كما أقام جسرا يوصل بين الشاطىء وبين الجزيرة الصغيرة التى أمامه .

كان عهد أحيرام عهد نهضة كبيرة فى شتى النواحى ، وأشهر الأعمال التى اقترنت باسمه صداقته للملك سليمان بن داوود وقبوله عن طيب خاطر مده بالمهاريين والعمال الفنيين ومواد البناء اللازمة لإقامة هيكل أورشليم ، وإقامة قصر له ، وقد استغرق بناؤهما عشرين عاما . وظل أحيرام وسليمان صديقين حميمين وشريكين فى التجارة ، وساعد سليمان أيضا فى إنشاء أسطول تجارى فى البحر الأحمر وأمده ببحارة فينيقيين للعمل على السفن مع بحارة سليمان ولم يقتصر نشاطه التجارى فى البحر على مشاركته لسليمان بل اتسعت صلاته البحرية وازدادت فى البحر الأبيض المتوسط وبخاصة مع جزيرة قبرص وأسبانيا .

وبعد موت أحيرام تولى ابنه الحكم من بعده ولكنه لم يحكم غير سبع سنوات ثم تلاه آخرون من العائلة ، كانوا يتنازعون فيما بينهم إلى أن جاء الوقت الذى اشتد فيه النزاع بين أفراد البيت المالك واضطرت ابنة أحد الملوك وكانت تسمى « إليسا » إلى الهرب إلى قبرص ثم تركتها إلى شمال أفريقيا حيث أسست مدينة جديدة وهى مدينة « قرطاجنة » Carthage على الشاطىء القريب من مدينة تونس الحالية ، وقد ساعدها فى ذلك مؤيدوها السياسيون من أهل مدينة صور ، وكان ذلك حوالى عام ٨١٤ قبل الميلاد .

ويمكننا أن نسمى الفترة بين عامى ١٠٠٠ ، ٥٠٠ ق . م . فترة الاستقلال فى تاريخ فينيقيا إذ ظهرت فى تلك الفترة كثير من دويلات ـ المدن وكان أهمها صور وصيدا ثم جبيل (بيبلوس) وأرواد ، وكان لكل منها أسطولها وعرشها المستقل . ولكن هذه الفترة لم تكن فترة هدوء وطمأنينة فى جميع الأوقات . لم تتعرض فينيقيا خلال هذه المدة لأى غزو مصرى ، اللهم إلى مرة واحدة وذلك فى أيام الأسرة الثانية والعشرين عند ما قام الملك شاشنق الأول بحملته فى القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكن الامبراطورية الأشورية كانت من حين لآخر سببا فى تعريض الموانى الفينيقية للغزوات والحروب ونعرف مثلا أن الملك الأشورى « تجلات بلسر الأول » استولى على « أرواد » حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد لتكون منفذا له إلى البحر ولكن هذا الاحتلال لم يستمر وقتا طويلا .

وفى عام ٨٧٦ ق . م . فرض « أشور بانيبال » الجزية على صور وصيدا وبيبلوس وأرواد ، وذكر فى نقوشه أنها أرسلت إليه كميات من الفضة والذهب والرصاص والبرونز وخمسة وثلاثين إناء من البرونز وملابسا من أقمشة زاهية الألوان ، وكذلك كمية من العاج وحيوانا من حيوانات البحر وهو الدرفيل . نجد هذه الإشارات إلى جزية المدن الفينيقية فى نقوش ابنه « شلمنصر الثالث » (٨٦٠ — ٨٢٥ ق . م .) ، كما نجدها أيضا فى نقوش « تجلات بلسر الثالث » عام ٧٤١ ق . م . لم تطأطىء المدن الفينيقية رأسها لأشور ، وتستكين ملقاة تحت أقدامها بل كانت تندلع فيها الثورات من حين لآخر ويجد ملوك أشور أنفسهم مضطرين لإرسال جيوش وحملات لإخضاعها . حدث فى عهد « شلمنصر الخامس » مثلا أن مدينة صور قامت بثورة جامحة فاستطاع شلمنصر أن يجمع من الموانى الأخرى ، صيدا وجبيل وأرواد ستين سفينة كبيرة وحاول أن ينزل جنوده فى الجزيرة التى أمام الشاطىء ولكن أهل صور استطاعوا أن ينزلوا الهزيمة بأسطوله بالرغم من أنه لم يكن لديهم إلا إثنتا عشرة سفينة فقط ، فحطموا الأسطول الآخر وأخذوا من المهاجمين ما يقرب من خمسمائة أسير .

وفى أيام الملك سرجون الثانى (٧٢٢ — ٧٠٥ ق م .) كانت فينيقيا بأكملها خاضعة للحكم الأشورى ما عدا مدينة صور .

لم تقف مصر مكتوفة الأيدى أمام ما كانت تراه يجرى على حدودها لأنها كانت تخشى على نفسها إذا ما استقر الحكم الأشورى فى فلسطين وعلى الشاطىء السورى ، ولهذا كانت تشجع هذه الثورات . كانت مصر فى هذه الفترة بالذات تجتاز فترة من فترات القوة النسبية إذ كانت تحكمها الأسرة الخامسة والعشرون ، وهى الأسرة الكوشية ، وكان يجلس على عرش البلاد حاكم قوى . حدث عند موت « سرجون الثانى » أن ابنه « سنحريب » قرر غزو فلسطين فاجتمعت مدنها وعقدت بينها حلفا لمقاومته وأرسلت مصر تساعدهم وتشد أزرهم وأرسلت جيشا إلى الحدود كان على رأسه أخو الملك نفسه ، وقام الجيش الأشورى بمحاصرة

أورشليم ولكن تفشى وباء الطاعون أجبر « سنحريب » على التقهقر بفلول جيشه عائدا إلى بلاده

وفى عام ٦٨١ ق . م . مات « سنحريب » مقتولا بيد أحد أبنائه فخلفه ابنه أسرحدون على العرش . وفى العام نفسه مات ملك مصر فخلفه أخوه « طهرقا » الذى كان على رأس الجيش الذى ذهب لمؤازرة ثورة فلسطين قبل ذلك بسنوات قليلة .

واصل طهرقا جهوده فى خلق المتاعب أمام الحكم الأشورى فى فينيقيا وفلسطين وذلك بمعاونة المدن على القيام بالثورات وكان المحرض على ثورة كبيرة قامت بها مدينة صور (عام ٦٧٢ ق . م .) سببت للأشوريين الكثير من المتاعب ، واضطر « أسرحدون » أن يأتى بنفسه على رأس جيش لحاصرها ولكنه لم يستطع التغلب عليها لمناعتها . وقرر « أسرحدون » أنه لا بد من وضع حد لتدخل مصر فقرر مهاجمتها ، وترك مدينة صور محاصرة وتقدم بجيشه إلى وادى النيل . وساعده بدو سيناء ، وكانوا أدلاءه فى الطريق ، وأمدوه بآلاف الجمال لنقل المؤن والمياه اللازمة لجيشه حتى وصل إلى وادى الطميلات فى شرق الدلتا . وبالرغم من المناوشات التى صادفته فى الطريق فإنه وصل إلى منف بعد خمسة عشر يوما فحاصرها واستولى عليها ونهب ثرواتها ووقعت عائلة « طهرقا » أسيرة فى يده ، واعترفت البلاد كلها بسيادته فترة من الزمن حتى تخلصت مصر من الحكم الأشورى عندما استطاع أمير صا الحجر طرد الحامية الأشورية ثم وحد البلاد وأسس الأسرة السادسة والعشرين عام ٦٦٣ ق . م .

ولكن بالرغم من استئصال شأفة الأشوريين من مصر فإن نفوذهم فى فينيقيا وفى فلسطين ظل على ما كان عليه وظلت الثورات تقوم بين حين وآخر فى مدنها ، وعاد ملوك مصر أيضا إلى حماية أنفسهم وحماية حدودهم بمؤازرة تلك الثورات ، وكانت أهم مدينتين فينيقيتين حملتا لواء المقاومة هما مدينتا صور وصيدا . وانتهت أيام دولة أشور وتلتها فى حكم بلاد الرافدين دولة الكلدانيين التى استمرت أيضا فى محاولة فرض سيطرتها السياسية على فينيقيا ، ولكن حدث فى عام ٥٣٩ ق . م .

أن مدينة بابل عاصمة دول الكلدان سقطت فى يد الفرس فأصبح للدولة الظافرة السيادة على فينيقيا

كانت مدينة صور طيلة القرون الخمسة الماضية أهم مدن فينيقيا وأقواها ، وكان من أهم أسباب قوتها تبعية مدينة قرطاجنة لها . ولكن منذ بداية الحكم الفارسى تعرضت هذه المدينة للكثير من المصاعب ، فضعفت وقل شأنها وانفصلت عنها قرطاجنة سياسيا عام ٥٢٠ ق . م . وعند تقسيم الفرس لامبراطوريتهم الواسعة ضموا فينيقيا إلى سوريا وقبرص وجعلوا منها سترپية واحدة ، وهى السترپية الخامسة ، وأصبحت صيدا بعد ذلك من أهم مدن فينيقيا وعاصمتها .

ولم تنج مدن فينيقيا من ويلات الحروب التى استعرت بين الفرس واليونان ، إذ كثيرا ما هوجمت مدنها وبخاصة صور وصيدا . بل وصل الأمر إلى احتلال اليونانيين لها لفترات قصيرة .

وأقام الحكام الفارسيون فى مدينة صيدا كثيراً من القصور والمبانى ، وقد عُثر فى أواخر سنى القرن الماضى فى قلب المدينة عند حفر أساسات المدرسة الأمريكية هناك على أجزاء من أعمدة ومن تيجان الأعمدة وهى فارسية الطراز ، وتوجد الآن فى متحف بيروت ،هى والتوابيت الشهيرة التى كانت ضمن مجموعة الدكتور فورد .

وفى عام ٣٤٦ ق . م . شبت ثورة جديدة قام بها ملك صيدا (وكان يسمى تنّس Tennes) ضد الحكم الفارسى ، وبدأوا بحرق قصر السترپ الفارسى (الحاكم باسم الإمبراطور الفارسى) ونهب ما فى حدائقه وملحقاته ، فأثار هذا العمل غضب « أرتاركسيس الثالث » ملك الفرس ، فسار على رأس جيشه وأحرق مدينة صور ، وقد ذكرت المصادر القديمة أن أكثر من أربعين ألفاً من سكانها قد ماتوا فى هذا الحادث . وكان السبب المباشر فى هذه الكارثة ما قام به ملك صيدا الوطنى من خيانة شعبه ، ومحاولة إرضائه لملك الفرس لينجو بحياته .

ولكن الحوادث كانت تسير فى اتجاه آخر ، إذ سرعان ما دخل الصراع بين الفرس واليونان مرحلة جديدة حاسمة عندما قرر الإسكندر الأكبر القيام بغزواته التى انتهت بانتصاره على الملك الفارسى « دارا » فى معركة (إيسوس Issus) عام ٣٣٣ ق . م . وبدلا من أن يتابع عدوه فى هزيمته ويوطد أركان ملكه الجديد فى آسيا نراه يقرر ضرورة استيلائه قبل كل شىء آخر على سوريا وعلى مصر حتى يقطع على الفرس كل إمدادات محتملة عن طريق البحر . ورحب أمراء المدن الفينيقية بالإسكندر ، ولكن عند وصوله إلى صور رفضت هذه المدينة أن تقبل التسليم أو تسمح لحامية يونانية بالإقامة فيها ، وقاومت ببسالة كبيرة كلفت الإسكندر جهداً عظيما لم ير مثيلا له فى مدينة أخرى فى حروبه فى آسيا .

وبعد موت الإسكندر عام ٣٢٣ ق . م تقاسم قواده ملكه الواسع فيما بينهم ، وكانت مصر من نصيب واحد منهم ، وسوريا من نصيب قائد آخر ، ولكن فينيقيا وفلسطين اللتين كانتا دائماً فى جميع عصور التاريخ جسراً يربط بين مصر وآسيا أصبحتا ، وبخاصة فينيقيا ، مصدراً للنزاع بين البطالمة والسلوقيين ، وكانت المدن الفينيقية المختلفة تتبع هؤلاء فترة من الزمن ، لينتزعها الآخرون فترة أخرى . ولكن دراسة هذا العصر خارجة عن نطاق موضوع دراستنا ، ولهذا نكتفى بهذا القدر من تاريخ فينيقيا السياسى . ولكن قبل أن نتحدث عن بعض مظاهر حضارتها يجدر بنا أن نقف قليلا لنعرف شيئاً عن المستعمرات الفينيقية ، لأنها بالرغم من أنها بعيدة عن أرض فينيقيا إلا أنها جزء متمم لها ، ولا يمكن إغفالها ، سواء عند الحديث عن التاريخ أو عن الأثر الحضارى للفينيقيين .

المستعمرات الفينيقية[1] :

لم تقتصر المراكز التجارية التى أسسها الفينيقيون خارج بلادهم على منطقة

---

(١) ليس المقصود بكلمة المستعمرات الفينيقية أنها ممتلكات اغتصبها الفينيقيون من أهلها بعد أن هزموهم واحتلوا بلادهم كما يفهم الآن من مدلول الكلمة لارتباطها بالاستعمار الأوروبى=

معينة ، بل نراها منتشرة فى جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط ، بل وفى خارجه ، ويطلق على هذه المحلات أو المراكز اسم المستعمرات ، ولنبدأ بما كان منها فى شمالى أفريقيا .

فأقدم مستعمرة فينيقية فى شمالى أفريقية ، حسب ما وصل إلى علمنا حتى الآن ، هى مستعمرة « أوتيكا Utica » (أو عوتيقة ، بمعنى القديمة أو العتيقة ، تمييزاً لها من قرطاجنة ، ومعناها المدينة الحديثة وسماها ابن خلدون وطاقة) التى أسسوها حوالى عام ١١٠٠ ق . م . وقام بذلك أهل مدينة صور ، وكانت قريبة من مصب نهر « مجردة » ولكنها تخربت وهجرها أهلها وغطتها الرمال . وهناك أيضاً مستعمرات أخرى مثل بنزرته ، وسرته . ولكن أهم مستعمرات أفريقيا الشمالية هى مستعمرة قرطاجنة على مقربة من موقع مدينة تونس ، واسمها الفينيقى مشتق من كلمتى « قرت جدشت » أى المدينة (القرية أو البلدة) الحديثة . ونعرف من قصة إنشائها ، أو أسطورة إنشائها ، التى سبق أن أشرنا إليها ، أن مؤسستها هى الأميرة « إليسا » إبنة « متّان » ملك صور عندما هربت من ظلم أخيها « بيجاليون » ، وقد ذكرتها بعض الروايات تحت إسم « ديدون » ، أى اللاجئة ، ولم يعثر حتى الآن فى أطلال قرطاجنة أو فى مدينة صور على ما يؤيد أو ما ينفى هذه الأسطورة .

ومنذ تأسيس هذه المدينة الجديدة عام ٨١٤ ق . م . اعتبرت نفسها جزءاً من مدينة صور ، أو بعبارة أخرى تابعة لها ، وكانت ترسل كل عام رسولا ليقوم بتقديم القرابين فى صور فى معبد « ملك — قارت » ، وكان الرسول فى بدء الأمر يحمل معه أيضاً هدية أخرى هى عشر دخل المدينة الجديدة .

ولم يبدأ التاريخ الحقيقى المدون لمدينة قرطاجنة إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد عندما بدأت صور تضمحل ويقل شأنها تحت تأثير ضربات بختنصر (٦٠٤ — ٥٦١ ق . م) .

= الحديث ، ولكن المقصود منها تلك المحلات أو المراكز أو المدن التى أسسوها على شواطىء البلاد الأخرى لتكون مراكزا للتجارة مع أهل تلك البلاد دون أن تكون فى ذلك مساس بهم أو استيلاء عليهم أو اغتصاب لممتلكاتهم .

لعبت قرطاجنة دوراً هاماً فى تجارة البحر الأبيض المتوسط ، وانهالت عليها الثروة وأخذت بدورها تؤسس لها مستعمرات جديدة ، مثل المستعمرة التجارية التى أسسوها فى جزيرة « إيفيشا » بين سردينيا وأسبانيا ، حوالى عام ٦٥٠ ق . م . كما أسسوا مستعمرة أخرى على شواطىء مينوركا فى جزر البليار . وكانت قرطاجنة تصطدم دائماً بمنافسيها فى التجارة من اليونانيين ، ولم تكن هناك مندوحة من قيام الحرب بين الشعبين ، وكان ذلك حوالى عام ٥٥٠ ق . م . عندما استطاع القائد « ملخوس » طرد اليونانيين من جزيرة صقلية ، ولكنه هزم شر هزيمة فى سردينيا ، فنفاه القرطاجنيون من المدينة عقاباً له . فانقلب على قومه ، وعاد مع من تعاون معه لحاصرتها واستولى عليها وأصبح حاكما لها . وفى عام ٥٣٥ ق . م . تمكن القرطاجنيون من طرد اليونانيين من جزيرة كورسيكا ، كما ثبتوا أيضاً أقدامهم فى هذه الفترة من توسعهم التجارى فى أكثر من موضع على شاطىء أسبانيا .

وكانت روما قد بدأت تظهر كقوة ذات شأن فى بداية القرن السادس ، ويرجع تاريخ أول معاهدة صداقة بين روما وقرطاجنة إلى عام ٥٠٩ ق . م . وقضت قرطاجنة القرنين الخامس والرابع وهى تسير فى طريقها الذى رسمته لنفسها فى التجارة ، وكانت أكثر الحروب التى خاضتها من أجل جزيرة صقلية .

وكان القضاء على قرطاجنة على أيدى الرومان عندما دخلت معها فى الحروب الطويلة القاسية المعروفة باسم الحروب البونية التى بدأت فى القرن الثالث قبل الميلاد . كانت الحرب البونية الأولى بين أعوام ٢٦٨ ، ٢٤١ ق . م . وانتهت بانتصار قرطاجنة ، ولكن لم تلبث الحرب البونية الثانية (٢١٩ — ٢٠٢ ق . م .) حتى اندلعت وظهرت فيها مواهب القائد القرطاجنى « هانيبال » الذى اشتهر بغزوته الشهيرة التى سار فيها بجيشه الكبير عبر أسبانيا وبلاد الغال ونقل ميدان الحرب إلى إيطاليا نفسها ، ولكنه لم يحقق أمنيته باحتلال روما ، إذ اضطر لترك الجيش تحت قيادة أخيه وقفل راجعاً إلى قرطاجنة عندما علم بمهاجمة الرومان لها . وكانت النتيجة انتصار روما على قرطاجنة ، وعقد الإثنان معاهدة صداقة أعقبها سلم جلب الخراب على قرطاجنة .

وأخيراً جاء اليوم الذى استعرت فيه الحرب البونية الثالثة التى استمرت ثلاثة أعوام ، وانتهت فى عام ١٤٦ ق . م . بانتصار روما واحتلالهم لقرطاجنة وحرقها حرقاً تاماً بعد نهبها وتخريبها ، فلم تقم لها بعد ذلك قائمة .

ولكن قرطاجنة لم تكن المستعمرة الفينيقية الوحيدة ، وإن كانت أهم المستعمرات ، فقد أشرنا إلى بعضها فى شمالى أفريقيا ، ولكن لا يمكن ترك هذا الموضوع دون الإشارة إلى المستعمرات الأخرى التى أسسها الصوريون فى جزيرة قبرص فى « كيتيون » ، ومنها أسسوا مستعمرة أخرى فى « إيداليون » ، وفى « تمساسوس » وغيرها . وأسسوا مستعمرات أخرى فى كيليليا وفى جزيرة رودس ، كما كانت لهم مراكز تجارية ، وليست مستعمرات ، عند مصبات النيل فى الدلتا ، وكان لتجارهم حى خاص فى مدينة منف اسمه « معسكر الصوريين » وأقاموا فى هذا الحى معبداً باسم الالهة عشتر .

ولم يقف نشاطهم عند هذا الحد ، بل أسسوا مستعمرات تجارية أخرى فى صقلية وجعلوا منها مركزاً لتجارتهم خارج أعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) ، كما أسسوا مستعمرة هامة فى بالرمو فى صقلية ، وفى مالطة ، كما ثبتوا أقدامها فى أسبانيا فى أكثر من موضع ، وبخاصة فى قادس ، وبعبارة أخرى انتشرت مستعمراتهم التجارية فى جميع أرجاء البحر المتوسط ، ولهذا لم تكن هناك مندوحة من اصطدامهم باليونانيين ثم بالرومان بعد ذلك .

بعض مظاهر الحضارة الفينيقية :

ولن يتسع مجال هذا البحث عن الفينيقيين لذكر أى تفصيلات عن مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية أو المظاهر الحضارية الأخرى لأن الهدف منها قبل أى شىء آخر هو التاريخ السياسى العام ، ولكن مهما حاولنا الوقوف عند حد معين فلا يمكن ترك موضوع الفينيقيين دون ذكر شىء مختصر عن نقطتين ، وهما الحروف الهجائية الفينيقية ، ثم أثر الفينيقيين فى نشر الحضارة ، وبخاصة الحضارة المصرية القديمة فى مختلف أرجاء العالم

الحروف الهجائية الفينيقية :

للفينيقيين مآثر كثيرة على التقدم الإنساني ، ولا شك أن نشرهم للحروف الهجائية فى أرجاء العالم القديم هو أهم ما قاموا به . كان قدماء المصريين ، وكذلك قدماء سكان بلاد الرافدين ، يكتبون وثائقهم بكتابات مكونة من مئات من العلامات والمقاطع وكل علامة منها صورة لشىء فى الطبيعة سواء أكان نباتا أو حيوانا أو جمادا . . . الخ ، ولهذا كان الإلمام بها يحتاج إلى تخصص ودراسة ، وقد حالت هذه الصعوبات دون انتشار الكتابة .

ولكن اليوم الذى اهتدى فيه البشر إلى مبدأ استخدام الحروف الهجائية ، أى الذى يمثل كل منها صوتا معينا دون نظر إلى موقعه فى الكلمة أو أصله أو معناه ، إن كان له معنى ، كان يوما من الأيام العظيمة فى تاريخ الإنسانية لأن هذا الاختراع كان من أعظم ما عرفه الإنسان فى تاريخه الطويل .

وحدث فى عام ١٩٠٥ أن « فلندرز بترى » الأثرى البريطانى الشهير ، كان يعمل فى منطقة سرابيط الخادم فى سيناء عندما عثر على كتابات غريبة على جوانب بعض مناجم الفيروز القديمة وعلى بعض النصب المقامة فى المعبد . كانت هذه الكتابات مكتوبة بحروف يشبه بعضها الكتابة المصرية القديمة ، وبعضها الآخر لا يشبهها . وحدثت محاولات كثيرة لفك رموزها ، ولكن منذ البداية أطلق عليها علماء الدراسات اللغوية اسم الكتابة السينائية وأدركوا الصلة بينها وبين بعض ما كان معروفا من الكتابات الفينيقية واليونانية القديمة . وليس يعنينا الآن سرد المحاولات الكثيرة لفك رموزها ولكن يكفى القول بأن آخر محاولة للوصول إلى ترجمتها هى المحاولة الناجحة التى قام بها العالم الأمريكى « أولبريت » عام ١٩٤٨ .

وتاريخ هذه النقوش السينائية هو منتصف الألف الثانى قبل الميلاد أى حوالى عام ١٥٠٠ — ١٤٠٠ ق. م. وأن الذين استخدموها هم بعض العمال أو الأسرى السوريين الذين كانوا يعملون مع المصريين فى تلك المناجم ، ولا يوجد أى دليل على الإطلاق بأن الفينيقيين بالذات هم الذين حققوا هذا الاختراع دون غيرهم من الشعوب ، بل الأرجح هو أن هذه الخطوة ، أى خطوة الوصول

إلى استخدام الحروف الهجائية للكتابة قام بها شعب أو أكثر من الشعوب السامية فى داخل سوريا فى أوقات متقاربة إذ عثر على كتابات مختلفة فى مناطق متعددة من أهمها ما عثر عليه فى أوجاريت (رأس الشمرة) من كتابات بالطريقة المسمارية ولكنها حروف هجائية عددها ٢٩ حرفا ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب .

وهناك أيضا كتابة أبجدية أخرى كتبت بها نقوش « أحيرام » ملك مدينة جبيل (بيبلوس) ، وكانت مكونة من ٢٢ حرفا هجائيا ، ويرجع تاريخها إلى حوالى عام ١٠٠٠ ق. م. وكانت أنجح الطرق ، ويرجح أنها كانت الأصل الذى اشتقت منه الكتابات السامية الهجائية الأخرى وأهمها الفينيقية والعبرية القديمة والآرامية والسبأية (العربية الجنوبية) . وكان للفينيقيين الفضل الأول فى نشر هذه الطريقة فى الكتابة فى العالم القديم ، فقد كانت الحروف الفينيقية هى الأصل الذى أخذ الإغريق عنه أبجديتهم ، وعنهم أخذ الاتروسكيون ، وعن هؤلاء جاءت الحروف اللاتينية التى أصبحت حروف الكتابة لأكثر الدول الأوروبية منذ القرون الوسطى . وعن الخط الآرامى تفرع الخط الهندى ، وكذلك التدمرى والسوريانى والنبطى ، ومن النبطى تفرع الخط العربى . وتفرع أيضا من الآرامى الخط البهلوى والأفستى والأرمنى والجورجانى (نسبة إلى إقليم جورجيا فى جنوبى الاتحاد السوفيتى) وغيره من الخطوط . أما الثمودى واللحيانى والصفوى والحبشى فهى متفرعة كلها من الخط العربى الجنوبى .

ومن المعروف أن الكتابات السامية بوجه عام تسقط حروف العلة ولا تكتب إلا الحروف الصحيحة ، وقد أدخل الإغريق تحسيناً كبيراً على الكتابة الفينيقية فأخذوا بعض الحروف السامية المعروفة باسم الحروف الصحيحة الضعيفة وجعلوها حروفا للعلة واستخدموا ذلك منذ القرن التاسع قبل الميلاد أى منذ انتقال الكتابة الفينيقية إليهم كما اعترفوا هم بذلك .

فضل الفينيقيين فى نشر الحضارة :

لم يكن نشر الكتابة الأبجدية هو الفضل الأوحد للفينيقيين ، ولكنه كان أهمها دون شك ، ولنلق الآن نظرة سريعة على بعض النواحى الأخرى .

لقد أحب سكان هذا الجزء من العالم (كنعان أو فينيقيا) البحر والتجارة الخارجية ، وإقامة المستعمرات البعيدة ، وسرعان ما أصبحوا من اقدر الشعوب الملاحية التى عرفها العالم القديم ، بل ربما كانوا أقدرهم جميعاً ، وإن كان البعض يريد أن يترك المكان الأول للمينويين ، ذلك الشعب العظيم الذى كان فى جزيرة كريت وازدهر ازدهارا كبيرا بين عامى ٢٠٠٠ ، ١٥٠٠ قبل الميلاد ، وكان لهم دون شك فضل غير قليل على حضارة الكنعانيين .

ولم يهمل الفينيقيون أمر الزراعة بل استغلوا كل شبر يمكن زراعته فى بلادهم كما أحدثوا تطورا غير قليل فى بعض الصناعات وأتقنوا صناعة بعض المعادن إذ عرفوا تعدين النحاس والبرونز منذ بداية الألف الثانى قبل الميلاد ، وبدأوا يستخدمون الحديد منذ الألف الأول قبل الميلاد ، كما نعرف أنهم كانوا يحصلون أيضا على الذهب والفضة والقصدير من أسفارهم البعيدة ، وأنهم تقدموا تقدما غير قليل فى صناعة الحلى وفى صنع أدوات الزينة أو صنع القطع الفنية من العاج ، كما تفوقوا تفوقا كبيرا فى صناعة الزجاج .

وبرع الفينيقيون فى صناعة النسيج ، وكانوا يصنعون الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ، وعرفوا المنسوجات القطنية بعد ذلك بوقت طويل ، وربما فى القرن السابع أو السادس قبل الميلاد ، كما يرجح بعض المشتغلين بتاريخ الصناعات أن مدينة صور كانت تعرف صناعة الحرير فى القرن السادس قبل الميلاد .

ومما ساعد على رواج النسيج الفينيقى إتقانهم لصبغه بالألوان الزاهية ، وبخاصة اللون الأرجوانى .

عرف الفينيقيون كثيرا من هذه الصناعات من مصر على وجه الخصوص ، ولهذا لم يكتف الفينيقيون بحمل السلع والحلى المصرية وأدوات الزينة من مصر لبيعها والكسب منها فى مختلف أنحاء العالم ، بل نراهم يقلدون الكثير من الأشياء المصرية ويكتبون عليها ما يشبه اللغة الهيروغليفية ، ويبيعونه على أنه سلع مصرية

الراغبين فيها . وفى جميع متاحف العالم الكبيرة كثير من الجعارين والتماثيل الصغيرة من القاشانى والتمائم والخرز المصنوع من الزجاج أو القاشانى بل والتماثيل الصغيرة البرونزية وأدوات مصنوعة من العاج ، ومعروف عنها أنها صنعت فى فينيقيا تقليداً للصناعة المصرية . والأماكن التى عثر فيها على تلك الأشياء مرتبطة تمام الارتباط بنشاطهم البحرى ، فأينما وصلت سفنهم للتاجرة ، وصلت الأشياء المصرية الحقيقية أو المقلدة ، وكانت سبباً مباشراً فى كثير من الأحيان ، لإدخال بعض مظاهر الفن المصرى القديم على فنون تلك البلاد . ويكفى القول بأن هذه الآثار الصغيرة الحجم عثر عليها فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وفى كثير من بلاد البلقان ، وفى جنوبى الاتحاد السوفيتى ، وفى انجلترا ، وعلى الساحل الغربى لإفريقيا ، ومازال يوجد حتى الآن لدى بعض الأهالى فى غربى إفريقيا حبات من خرز الزجاج المصرى أو المصرى - الفينيقى يحتفظون به حتى الآن يستخدمونه للزينة أحياناً ، وكتمائم ضد قوى الشر أحياناً أخرى ، لأنهم يعرفون أنه قديم جداً ولهذا ترتبط به قوة سحرية خاصة .

وهناك كلمة أخيرة . لقد أطلت الحديث بعض الشىء عن فينيقيا منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد ، وذلك لأهمية ما قدمته هذه المنطقة من سوريا إلى الحضارة البشرية فى تلك الفترة ، ولكن قبل الانتهاء من موضوع الفينيقيين أحب أن أضيف بضع كلمات أخرى عن أصل حضارة الكنعانيين أو الفينيقيين والعناصر التى كونتها .

تتكون هذه الحضارة من عناصر متعددة أهمها أربعة وهى : السامية والمصرية والإيجية وإلى حد ما البابلية ، وذلك بالإضافة إلى حضارة سكان المنطقة الأصليين الذين كانوا فى هذا الجزء من سوريا قبل الهجرة السامية الكبرى .

ومهما كان أصل أولئك السكان الأصليين فإنهم من جنس البحر الأبيض المتوسط - كما ذكرنا من قبل - وكانت لغتهم الأصلية لغة غير سامية نجدها فى كثير من أسماء البلاد والأنهار والجبال ، إذ ظل الكثير منها محتفظاً بتلك الأسماء

القديمة ، بينما نجد بعضها قد غلبت عليه الأسماء الكنعانية السامية الأصل (انظر صفحة ٤٩) .

ركب الفينيقيون البحر ونشروا الثقافة والتجارة فى جميع أرجاء البحر الأبيض المتوسط،وأسسوا لهم مستعمرات تجارية على الشواطىء فى شماله وجنوبه ، ولم يكونوا حملة تجارة فحسب ، بل كانوا حملة ثقافة وعلم ،وبخاصة الثقافة السورية ، إلى جميع الأرجاء . وكانت أكبر خدمة أدوها هى نشرهم الحروف الهجائية الفينيقية التى كانت سبباً مباشراً لنشر العلم فى أوروبا الجنوبية ، وكان لهم أثر مباشر على نهضة بلاد اليونان فيما بعد .

ونعرف من دراسة تاريخ كل من مصر والعراق وإيران ما مر من أحداث على تلك البلاد ، والدور العظيم الذى لعبته سوريا فى تلك الأيام حتى جاء الإسكندر الأكبر فقضى على الفرس .

والواقع أن تاريخ سوريا فى الألف الأول قبل الميلاد ليس إلا تاريخ دويلاتها المختلفة وصراعها فيما بينها ثم صراعها أيضاً مع مصر وأشور ، وتنافس كل من هذين البلدين على بسط نفوذه على بعض مناطقها . ولا شك أن تاريخ تلك الفترة هو من أهم ما مر على سوريا خلال تاريخها الطويل .

والآن وقد انتهينا من هذا العرض السريع،ورأينا تصارع المدنيات وامتزاجها فوق أرض سوريا ، ورأينا أيضاً ما استطاع أن يحققه الساميون فى تلك البلاد ، وما استطاعوا أن ينقلوه من مدنيتهم إلى مختلف بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ، يكفى أن نضيف إلى ذلك أن أثر الآداب والديانات السورية على التوراة أثر عظيم لا يمكن التقليل من أهميته ، بل أنه لا يمكننا أن ندرس الديانات السماوية دراسة علمية إلا إذا درسنا الحضارة السورية دراسة صحيحة وافية .

كانت سوريا كما أشرنا أكثر من مرة ملتقى مدنيات وديانات كثيرة ، اختلطت فيها مع الديانات والحضارات السامية القديمة ، وكانت معينا استقت منه

مدنيات البحر الأبيض المتوسط ، وعلى أرضها وتحت سمائها نشأت ديانات وأساطير كان لها الأثر الأكبر على الفكر الإنسانى فيما تلا ذلك من عصور .

كانت سوريا مهد كل من الديانتين اليهودية والمسيحية ، ولكن الديانة السماوية الثالثة وهى الإسلام ظهرت فى مكان آخر من بلاد الشرق ، وهو الجزيرة العربية ، التى سيكون تاريخها القديم موضوع الفصلين القادمين

الفصل الرابع

اليمن

مختصر تاريخ اليمن منذ أقدم العصور حتى تاريخ ظهور الإسلام

عصر ما قبل التاريخ :

تكاد تنحصر معلوماتنا عن عصر ما قبل التاريخ فى بلاد العرب فيما قامت به كل من مس كيتن ـ تومسون Miss Caton-Thompson والدكتور سليمان حزين من أبحاث فى مناطق محدودة من جنوبى الجزيرة ، وقد نشرت المس كيتن تومسون نتائج أبحاثها ، ومن رأيها أن انفصال جنوب غربى بلاد العرب عن إفريقيا الشرقية حدث فى حقبة البليستوسين ، أى قبل مليون عام على أقل تقدير ، وإنها تعتقد أن آلات الظران (حجر الصوان) التى عثرت عليها فى حضر موت تشبه كثيراً آلات الظران التى عثر عليها الباحثون فى شرقى إفريقيا[1] . وفى رأيها أنه كانت توجد فى شرقى إفريقيا ثقافة مركزية تفرعت منها ثقافات متعددة ليس فى إفريقيا وحدها بل وفى آسيا أيضا . وتدلل مس تومسون على نظريتها فى انفصال إفريقيا عن آسيا بأنه لا يوجد بين أدوات الظران التى عثر عليها فى جنوبى بلاد العرب بعض الأدوات المعروفة من العصور الحجرية القديمة (باليوليتية) والتى كانت منتشرة فى تلك الأيام على طول إفريقيا الشرقية من الشمال إلى الجنوب .

ولم يقبل الدكتور حزين[2] هذه النظرية ، وهو يرى أنه إذا كان ولا بد لنا من البحث عن أى الجهتين ، شرقى إفريقيا أو جنوبى بلاد العرب ، أقدم ثقافة

---

(١) Caton - Thompson, *Climate, Irrigation and Early Man in the Hadhramaut*, Geographical Journal 93 pp. 18-19 and 29-35 January 1939.

(١) S. A Huzayin, *Nature*, Vol. XI, pp. 513-514, (1937)

فإنه يميل إلى اعتبار بلاد العرب هى الأقدم ، وأن الثقافة قد انتقلت منها فى العصور الحجرية القديمة إلى شرق افريقيا . وسواء أصحت نظرية حزين أو نظرية كيتن ـ تومسون ، فإن أمامنا حقيقة ثابتة وهى وجود ثقافة من العصر الحجرى القديم فى بلاد العرب ، وأن هذه الثقافة تشبه إلى حد كبير ما عثر عليه فى إفريقيا ، كما تشبه أيضاً ـ مع وجود اختلافات غير قليلة ـ ما عثر عليه الباحثون من رجال عصر ما قبل التاريخ فى سوريا والعراق .

أقدم الحضارات فى بلاد العرب :

ولا تسمح لنا معلوماتنا الحالية بتحديد التاريخ الذى ينتهى فيه العصر الحجرى القديم فى بلاد العرب ، والتاريخ الذى يبتدىء فيه العصر الحجرى الحديث أو العصر التاريخى ، فإن ذلك ما زال رهينا بالأبحاث الأثرية المقبلة . ولكن هناك حقيقة هامة وهى إنه فى الألف الرابع قبل الميلاد وصلت هجرات من جنوبى بلاد العرب إلى مصر ، وكان هؤلاء المهاجرون على قدر غير قليل من الثقافة . كما أننا نعلم أيضا إنه ابتداء من حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، بدأت بعض القبائل السامية تهاجر إلى العراق ، واستقرت فى بلاد بابل ، ولم يمض عليها إلا قرون قليلة حتى أصبحت صاحبة الأمر فى البلاد . وأسس الملك سرجون الأول حوالى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد مملكة أكد السامية التى اتسعت فتوحاتها حتى وصلت إلى آسيا الصغرى .

وليس من المعقول أن يتمكن المهاجرون من فرض أنفسهم على شعب ذى حضارة مثل الشعب السومرى ، إلا إذا كان هؤلاء المهاجرون قد وصلوا إلى مرحلة من التقدم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم ، وتصبح لهم السيطرة على البلاد ، وأن تظل لغتهم الأصلية وكثير من مظاهر ثقافتهم ملازمة لهم قرونا طويلة . فإن فى هذا التماسك وهذه المحافظة على المميزات دليل على أن الساميين الذين وصلوا إلى العراق قبل خمسة آلاف عام من جزيرة العرب لم يكونوا قوما بدائيين ، بل كانوا ذوى ثقافة خاصة ولهم نظمهم وحياتهم الاجتماعية .

وعلينا أن ننتظر حتى تكشف لنا الأبحاث عن أسس هذه الحضارة ،فإنه فيما عدا إشارة قدماء المصريين إلى بلاد بونت (وهى بلاد تشمل الشاطئين الإفريقى والآسيوى حول باب المندب) وتجارة البخور والعطور من بلاد العرب ، والإشارة إلى بعض آلهتهم التى جاءتهم أيضاً من بلاد العرب لم نعرف أخباراً تاريخية صحيحة إلا بعد فترة طويلة . ونحن فى غير حاجة إلى التدليل على معرفة قدماء المصريين ، وقدماء سكان بلاد الرافدين لسكان بلاد العرب ، فإن هؤلاء كانوا التجار الذين اعتادوا على نقل البخور من بلادهم إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط ، بل أنهم كانوا فى الحقيقة همزة الوصل بين إفريقيا والهند من ناحية والعراق وسوريا ومصر من ناحية أخرى ، إذ أن البخور كان مادة أساسية لطقوس العبادة فى جميع الديانات القديمة .

أقدم التواريخ المعروفة :

ومنذ قرن واحد من الزمان كانت معلوماتنا عن تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام تعتمد فقط على ما جاء فى التوراة ، وما كتبه كتاب اليونان والرومان عنهم ، وكان هذا كله شيئاً قليلا لا يشفى غليل العلماء ، حتى لو أضفنا إليه بعض ما كتبه العرب عن تاريخهم قبل الإسلام ، أو ما نستطيع أن نحصل عليه من معلومات إذا درسنا الشعر الجاهلى . ولكن الأمر أخذ يتغير منذ بدأت النقوش اليمنية تصل إلى أيدى العلماء ، وقد أصبح عددها الآن أكثر من ٥٠٠٠ نقشاً فيها معلومات كثيرة عن ممالك الجزيرة العربية فى الجنوب ، كما وصل أيضاً إلى أيدى العلماء عشرات الآلاف من الخربشات القصيرة على واجهات الصخور فى شمالى بلاد العرب بين ثمودية ولحيانية وسبأية وغيرها ، جعلتنا نعرف الشىء الكثير عن شعوب الشمال .

وأقدم ما وصل إلى أيدينا من هذه النقوش يساعدنا فى الحصول على صورة واضحة إلى حد ما عما كان جاريا فى تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد حتى

ظهور الإسلام أى مدى ألف وخمسمائة سنة ، سواء من الناحية السياسية أو الدينية أو الاقتصادية .

فقد كانت هناك عدة دويلات تعاصر بعضها البعض فى جنوبى بلاد العرب ، وبخاصة فى البلاد التى أطلق عليها فيما بعد اسم « بلاد العرب السعيدة» Arabia Felix وكان أهم هذه الدويلات سبأ ومعين وقتبان وحضرموت . ولكن كانت هناك دويلات أقل أهمية من هذه الأربعة مثل أوزان وسمعاى وأربيع . ولكن هذه الدويلات الصغيرة لم تترك أثرا هاما فى حياة البلاد ، وآل أمرها إلى انضمامها إلى غيرها من الدول القوية . وكانت هناك قبيلة قوية وهى قبيلة « حمير » التى كان لها نفوذ كبير فى آخر أيام دولة سبأ ، وقبيل ظهور المسيحية ، ولهذا ظل اسمها يتردد دائما فى كتابات المؤرخين الرومان ، وفى كتابات العرب . وأصبح اسمهم صفة لكل ما يعثر عليه فى جنوبى جزيرة العرب ، وصار اسم النقوش التى بدأ العلماء فى حل رموزها هى النقوش الحميرية ، بل أن كلمة الحضارة الحميرية أصبحت علما على كل شىء فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام .

ونحن نعرف أن ممالك سبأ وقتبان وحضرموت كانت تعاصر بعضها البعض ، وأنه كان يحكم كلا منها رئيس اسمه « مكرب » كان يجمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية ، أى أنه كان الكاهن الأكبر وكان الحاكم المطلق . وكان آخر هؤلاء المكربين معاصرا للملكين الاشوريين سرجون الثانى وسنحاريب . وقد ورد ذكر « إى ـ ثى ـ إم ـ را » بين زعماء القبائل العربية التى هزمها سرجون حوالى عام ٧١٥ ق . م ، كما نعرف أيضاً من الوثائق الأشورية أن « كا ـ رى ـ بى ـ ايلو » ملك سبأ دفع الجزية إلى سنحاريب وهذان السبأيان ليسا إلا المكربين « يثع ـ أمر ـ وتار » و « كريب ـ ايل ـ بين » (١) .

---

(١) هناك رأى حديث له مؤيدوه بأن اسمى هذين الملكين اللذين وردا فى الوثائق الأشورية غير الملكين المعروفين لنا من الآثار السبأية ، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد ، ويكفى أن نقول هنا أن هذه النظرية الجديدة تميل إلى حمل حكم كل من «يثع أمر» و « كريب إيل» بعد مائتى سنة أو أكثر ، وبعبارة أخرى حفض التاريخ السبأى قرنين من الزمان .

ونعرف أيضا من النقوش السبأية أن دولة معين هزمتها دولة سبأ فى أواخر عهد المكربين الذين يبلغ عددهم المعروف حتى الآن اثنى عشر مكربا ، وكان آخرهم « كريب - إيل - وتار » بن « يثع - أمر - بين » الذى اتخذ لنفسه لقب « ملك » بعد أن هزم « معين » ، كما سنرى عند حديثنا عن نقش النصر فى معبد صرواح . واتسعت مملكة سبأ حتى شملت أوزان وقطبان وحضرموت . واستمرت هذه المملكة تقوى حينا وتضعف حينا آخر ، وتتسع تارة وتنكمش تارة أخرى حتى إذا ما حل القرن الثالث الميلادي نجد مملكة كبيرة فى جنوبى بلاد العرب كانت تشمل بلاد نجران وعسير واليمن الحالية وحضرموت وجميع الحميات ، وكذلك جميع البلاد التى على شاطىء المحيط الهندى والخليج الفارسى . ولكن هذه المملكة لم تلبث إلا قليلا حتى بدأت تتطلع إليها أنظار مملكة أكسوم فى الحبشة . وأخذ الأحباش منذ أواخر القرن الثالث يضعون أقدامهم فى جنوبى الجزيرة وانتهى الأمر باحتلالهم لليمن عام ٥٢٥ ميلادية . أما فى الجزء الشمالى من الجزيرة ، فإنا نعرف أنه منذ القرن الأول قبل الميلاد ، بدأت كثير من المدن الواقعة على طرق القوافل تزدهر وتنشأ فيها المعابد والقصور ، وكان أهم تلك المدن هى التى كانت محطات هامة على الطريق الرئيسى للقوافل ، ذلك الطريق الذى كان يمر بصنعاء ومأرب ثم يمر بمكة والمدينة ثم بمداين صالح إلى بصرى (فى جنوبى سوريا) ومنها يأخذ طريقه شمالا حتى غزه .

وعاشت فى الشمال شعوب وقبائل ، اشتهر من بينها الثموديون الذين خلفوا وراءهم آثارا هامة فى الحجر (مداين صالح) ، كما خلفوا وراءهم نقوشا فى كثير من دروب نجد والحجاز . كما اشتهر أيضا اللحيانيون الذين عاشوا فى المنطقة التى حول بلدة « العلا » القريبة من مداين صالح ، وتركوا أيضاً نقوشاً كثيرة وخلفوا وراءهم آثاراً غير قليلة منها بعض التماثيل واللوحات وغيرها . وقد اختلف علماء الساميات فى تحديد تواريخ هؤلاء الثموديين واللحيانيين وغيرهم ممن كانوا إلى الشمال منهم مثل الصفويين (أهم مراكزهم فى حوران فى جنوبى سوريا) ، ورأى بعضهم أنهم عاشوا وازدهرت ثقافتهم قبل ظهور المسيحية ببضع قرون من

الزمان، كما رأى البعض الآخر أنهم لم يظهروا إلا فى القرن الأول المسيحى ، ورأى فريق ثالث أنهم لم تكن لهم أى ثقافة إلا قبل الإسلام بقليل ، ولم يتفقوا إلا فى أمر واحد ، وهو أنهم كانوا وثنيين وعاشوا قبل ظهور الإسلام ، وأن لغتهم تنتمى إلى مجموعة اللغات السامية .

ونرى أثر السبأيين فى أكثر من مكان فى شمالى الجزيرة ، فإنهم كانوا أهل تجارة ، وكان تفوقهم عن البدو فى الحضارة يجمع بين أيديهم كثيراً من أسباب القوة والنفوذ . ولكن مع ذلك فإننا نعرف أيضاً من دراسة التاريخ أن القبائل العربية إذا هاجرت من أوطانها، استقرت على حافة بلاد ذات مدنية ، فإنها سرعان ما تبدأ فى الاقتباس ، فتتحضر ولكنها تظل متماسكة فلا يمضى عليها إلا أجيال قليلة حتى تكوّن دولا ذات نفوذ . وقد أشرت إلى الساميين الأكديين فى العراق ، وأشير هنا إلى إمارة اللخميين فى الحيرة التى نشأت على نهر الفرات ، وإمارة الغساسنة فى الشام فإن كلا القبيلتين كانت أصلا من جنوبى الجزيرة طوح بهما طلب العيش إلى الشمال . وربما كانت هذه الهجرات بعد سنوات من الجفاف أو عقب تهدم السدود العظيمة أمثال سد مأرب التى كان يتوقف عليها رخاء بعض المناطق ، فأسست إمارات فى أماكن هجرتها الجديدة وكان لزعمائها منزلة وقوة ، ولعبت إحداهما دوراً كبيراً مع الفرس ولعبت الأخرى دوراً ذا شأن مع الروم .

المسيحية واليهودية فى بلاد العرب :

ومن الثابت أيضاً أن كلا من المسيحية واليهودية وصلت إلى بلاد العرب فأما اليهودية فإنها جاءت حتماً من الشمال ، ومن المرجح أن يكون أول مهاجرين جاءوا فى القرن الأول قبل الميلاد ، وقد استقرت جاليات كثيرة منهم على طريق القوافل وبخاصة فى المدن التى كانت حولها أرض زراعية مثل يثرب ، وكانت أهم مراكزهم فى اليمن حيث زاد عددهم وأصبحوا ذوى نفوذ تجارى وصناعى فى البلاد .

وأخذت المسيحية تفتح لها طريقاً فى شبه الجزيرة ، ومن المرجح جداً أن تكون قد وصلتها عن طريق سوريا ، وأصبح عدد كبير من العرب يعرف

ويؤمن بالدين الجديد . كما أنه من الجائز أيضاً أن تكون قد وصلت إلى جنوبي الجزيرة من طريق ثان وهو طريق الحبشة . وأخذت الديانة الجديدة تنتشر ، وشيدوا الكنائس في مدن كثيرة من اليمن ، وكانت أهمها جميعاً كنيسة القليس في صنعاء التي قصد من بنائها أن تنافس الكعبة في مكة لتحويل السوق التجارية إلى الجنوب . وازدهرت المسيحية كثيراً في بلاد نجران ، وكان من الطبيعي أن يتنافس المسيحيون واليهود وأن يحدث بينهما العداء ، فلما قويت شوكة اليهود باعتناق أحد ملوك الحميريين لهذا الدين ، وبدأ ذو نواس في اضطهاد المسيحيين لإجبارهم على ترك دينهم واعتناق اليهودية ، كانت أكثر اضطهاداته لنصارى نجران الذين حفر لهم أخدوداً ملأه بالنار وكان يلقيهم فيه ، ولم ينته ذلك إلا بعد أن تدخل البيزنطيون وطلبوا من نجاشي الحبشة أن يهب لإنقاذ إخوانه في الدين .

كان هذا كله قبيل ظهور الإسلام ، ولم يمض غير بضع عشرات من السنين حتى ظهر دين جديد قضى على كل ما كان في بلاد العرب من أديان ووحد بين قبائلهم وبلادهم ، وكون منهم للمرة الأولى والأخيرة مملكة متحدة تخضع لحاكم واحد .

ديانات بلاد العرب :

إذا فحصنا ديانة السبأيين أو غيرهم من شعوب الجزيرة العربية لوجدنا أنها تقوم في أساسها على عبادة الكواكب فقد كانت الديانة الرئيسية تقوم على أساس ثالوث من الكواكب ، فكان الإله الأب هو القمر ، وكانت الإلهة الأم هي الشمس ، أما الإله الابن فقد كان نجم الزهراء ، وهذا الثالوث هو الموقاه وذات حميم (وأحيانا ذات بعدان حسب الصيف أو الشتاء) وعشتر . ولكن إلى جانب هؤلاء الآلهة الثلاثة كانت توجد آلهة عديدة أخرى . فقد كان لأكثر البلاد أو القبائل آلهة محلية ، كما كانت هناك معبودات أخرى للمطر أو المحاصيل أو غير ذلك ، مثل العناصر الجوية . بل أنه كان لبعض العائلات آلهة خاصة يقدمون لها

القرابين ويبنون لهـا الهياكل . وكان كل إله من الآلهة هو السيد الحاكم لمعبـده والمسيطر على أملاك هـذا المعبد . وكان الكهنة ذوى نفوذ كبير ولهم امتيازات خاصة ، وكان هناك أرقاء يعملون فى حقول المعبد وحدائقه ، كما كان يقيم فى المعابد طائفة خاصة من النساء للقيام ببعض الطقوس المعينة مثلما كان يحدث فى معابد بابل ، وكانت هـذه المعابد ــ وخاصة ما بنى فى العصور القديمة ــ على درجة عظيمة من الفخامة ، وهى جديرة بمقارنتها بما خلفته الحضارات الأخرى من آثار .

فإذا نظرنا إلى بقايا المعابد العظيمة فى صرواح ، أو فى مأرب ، أو فى براقش ، أو معين ، أو الحزم ، فإننا نؤمن فى الحال أنه كان يعيش فى جنوبى جزيرة العرب قوم ذوو حضارة وذوو ثروة ، ويزداد إيماننا بهذه الحقائق إذا رأينا بقايا آثار أعمالهم فى استخدام مياه السيول وبخاصة سد مأرب العظيم . ولكن حضارة العرب القدماء لم تقتصر فقط على فن البناء بل أن دراسة النقوش بدأت تنير أمامنا الطريق لمعرفة حياتهم الاجتماعية وطرق معاملاتهم وعاداتهم ، وصلة القوم برؤسائهم وصلة القبائل بعضها البعض .

ولهذا أصبح لزاماً علينا أن ندرس بإمعان هـذه الحياة الاجتماعية فى جنوبى الجزيرة ، وندرس أيضاً ما كان سائداً فيها من أديان وآداب لأن هـذه الحضارة وتلك الآراء والعادات والتقاليد ، هى التى كونت عقلية ونفسية العرب قبل أن ينتشر بينهم الإسلام . ولن يستطيع مؤرخ منصف أن يقول إنه من الميسور لأى باحث أن يوفى هذا الدين الجديد ، وهذا النبى العربى ، وهذا الشعب الذى كون إمبراطوريته العظيمة فى زمن قصير ، لا يمكن للباحث أن يوفى ذلك كله حقه إذا لم يلم بما كان فى بلاد العرب من ديانات وتقاليد وحضارة قبل ظهور الإسلام ، بل من الواجب علينا لكى ندرس حياة النبى العربى الكريم ، ونقف على مواطن القوة والعظمة فى خلقه وفى دعوته ، أن نلم بشىء عن الحياة الاجتماعية والدينية التى نشأ فيها وتفتحت عليها عيناه قبل رسالته الكريمة . ولهذا فإن دراسة تاريخ وآثار

بلاد العرب قبل الإسلام ليست دراسة عادية لبلد من البلاد ، بل أن هذه الدراسة كبيرة الأهمية لا للعرب فقط بل ولجميع المسلمين فى العالم .

أقدم العلاقات بين اليمن والحضارات القديمة :

أصل الآن إلى نقطة هامة فى تاريخ اليمن ، وهى موضوع الصلات التى كانت بين تلك البلاد ومراكز الحضارات الأخرى فى بلاد الشرق القديم .

فلو ألقينا نظرة على خريطة الشرق لوجدنا أن شبه الجزيرة العربية تتوسط أقدم حضارات العالم ، وهى حضارات مصر وبلاد ما بين النهرين وحضارة وادى السند فى الباكستان . ففى الألف الرابع قبل الميلاد ـ وربما قبل ذلك ـ أخذ الإنسان فى كل بلد من هذه البلاد يسير نحو المدنية بخطى ثابتة مستقلا عن الآخر ، ولكن لا بد لتقدم المدنية من مظاهر ، ومن أهم هذه المظاهر الاتصال بالبلاد المجاورة ، فاتصلت تلك الحضارات ببعضها البعض فى ذلك العهد البعيد ، واستفادت من هذا الاتصال الشعوب التى كانت على الطريق أو الطرق التى بينها .

وتنقسم بلاد العرب إلى وحدتين جغرافيتين أولاهما فى الشمال وتشمل الحجاز ونجد ، وأكثر أهلها يفضلون حياة البداوة ولا يؤثرون شيئا على استقلال الفرد وحريته ، ولهذا لم يتهيأ لسكان هذا الجزء من جزيرة العرب أن يصبحوا قوة متماسكة ذات نفوذ إلا عند ظهور الإسلام . أما سكان الجنوب فيختلفون عن سكان الشمال ، فهم سكان سهول ومدن ، وهم متباينون عن جيرانهم الشماليين فى أصل جنسهم وفى مظاهرهم وعاداتهم ، وبين الإثنين تنافس قديم فسكان الشمال هم بنو عدنان ومن العرب المستعربة ، أما سكان الجنوب فهم بنو قحطان ومن العرب العاربة .

ونجح سكان الجنوب ـــ أى اليمنيون ـــ فى التجارة وأسسوا مراكزا تجارية كانت تقيم فيها جاليات من اليمنيين على طرق القوافل ، فى وسط الجزيرة

وشمالها ، وكانت جنسيتهم تلاحقهم فكانوا يعرفون فى مواطنهم الجديدة باسم المعينيين أو السبأيين ، كما عبر بعضهم منذ أقدم العصور إلى الشاطىء الإفريقى ، وتاجروا واستقرت جاليات منهم فى إريتريا والصومال ، إذ أن عبور البحر الأحمر عند بوغاز باب المندب لا يمكن أن يقف عقبة دون هذا الاتصال لأنه لا يزيد عن ٢٤ كيلو مترا فى عرضه ، ويستطيع كل من يقف على أحد الشاطئين أن يرى جبال الشاطىء الآخر .

ولو رجعنا إلى الآثار المصرية والبابلية لوجدنا أدلة واضحة على صلة مصر ببابل عن طريق البحر من الجنوب قبل صلتها بها عن طريق البر من الشرق ، وسنرى بعد قليل أن سكان جنوبى الجزيرة — وهم ملاحون موهوبون — هم الذين قاموا بهذا الاتصال على الأرجح ولم يكونوا هم الذين أوصلوا بابل بمصر فقط، بل هم الذين أوصلوا حضارة وادى السند ببابل وبمصر عن طريق التجارة[1] ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أن اليمنيين القدماء كان لهم نصيب من المدنية وربما وصل منه شىء إلى بابل وإلى مصر[2] .

الطرق التجارية :

كان البحر الأحمر منذ أقدم العصور هو الطريق الذى حمل إلى العالم القديم أول مبادىء الاتصال الفكرى والتجارى ، إذ كانت تمخر عبابه منذ عصر ما قبل الأسرات المصرية (أى قبل عام ٣٢٠٠ ق. م.) سفن ترتفع مقدمتها ومؤخرتها ، سفن لم تكن معروفة فى وادى النيل ،ولكنها كانت معروفة فى بلاد ما بين النهرين وفى شواطىء المحيط الهندى . ووفد إلى مصر قوم فى هذه السفن ، ووصلوا إلى وادى النيل من الجنوب ومن الشرق واتخذوا طريق القصير — قفط فى رحلاتهم ،

(١) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (3 rd. ed 1946) p. 32.

(٢) لدراسة أقدم الصلات بين مصر وبابل وتأثير الحضارتين على بعضهما — انظر مقال الأستاذ شارف — A. Scharff, *Neues zur Frage der Altesten Agyptisch babylonischen Kulturbeziehungen*, A. Z 71, p. 89-106.

وترك لنا هؤلاء الوافدون رسوماً لسفنهم على صخور بعض دروب الصحراء الشرقية ، وعلى الكثير من الصخور المطلة على النيل ، كما توغل بعضهم فى ذلك العهد البعيد فى الصحراء الغربية وتركوا لنا صوراً على بعض صخور الدروب وبخاصة فى الواحات الخارجة ، فى جبل الطير ، وعلى صخور درب الغبارى بين الخارجة والداخلة ، إذ كانت هذه السفن فى نظرهم رمزاً لحياتهم السابقة فى موطنهم سواء فى جنوبى الجزيرة العربية ، أو فى بلاد العراق أو غير ذلك .

وثانى الطريقين هو الطريق البرى ، وكان لهم فى ذلك طريقان : فإما أن تسير القوافل مخترقة البادية رأساً من بابل إلى الشام فتتعرض للمصاعب الكثيرة وأولها نهب البدو لهم ، وإما أن تنقل التجارة فى البحر إلى عدن ، وهناك يشتريها تجار ويحملونها بقوافلهم مخترقين الجزيرة العربية من جنوبها إلى شمالها حتى يصلوا إلى الشام (غالبا فى غزة) ، ومن هناك يحملها تجار آخرون إلى مختلف أرجاء العالم القديم .

وكان الطريق البحرى هو الطريق المفضل منذ أتقن الإنسان فن الملاحة ، وكان أكثر أمنا وأقل نفقة . وكان ملاحو اليمن القدماء هم الذين يحملون التجارة فى سفنهم فيعبرون البحر الأحمر إلى الشاطىء الإفريقى ، كما يفعلون اليوم ، ثم يسيرون حذاء الشاطىء من ميناء إلى آخر حتى يصلوا إلى القصير ، ومن هناك تنقلها القوافل إلى النيل . ومنذ الأسرة الثانية عشرة على الأرجح (أى منذ أربعة آلاف سنة) أوصل الفراعنة النيل بالبحر الأحمر بواسطة قناة ، فانتظمت أحوال التجارة أكثر من ذى قبل .

أقدم العلاقات بين اليمن وبلاد الرافدين :

وإذا رجعنا إلى تاريخ بلاد الرافدين لوجدنا أن السومريين قد اتصلوا ببلاد العرب منذ فجر تاريخهم ، وهذا أمر متوقع لأن بلاد العرب هى الجار الغربى للعراق ، وليس هناك حواجز طبيعية تعوق الاتصال غير البادية ، وهذه لم تعق ولن

تعوق البدو يوما من الأيام . فعلى أحد تماثيل الملك « نرام - سين » (حوالى ٢٣٠٠ ق . م .) يقص الملك أنه أخضع بلاد « ماجان » وهزم زعيمها « ماينوم » ويرد ذكر « ماجان » فى نص آخر عندما ذهب إليها « جوديا » كبير كهنة « لجش » وحاكمها ، ليحضر منها ومن بلدة « ملوخا » خشباً وحجارة لبناء معبده . وليس هذان البلدان إلا اسمين لبلدين من البلاد التى أسسها اليمنيون على الطريق التجارى فى شمالى الجزيرة العربية فى ذلك العهد البعيد [١] .

وبالرغم من أن أهل اليمن ميالون بطبعهم إلى السلم ، وسياستهم هى المسالمة وحسن الصلة بالناس ، فإن ذلك لم يمنع الجاليات اليمنية فى شمالى الجزيرة من قيامهم بما يفرضه عليهم حب الكسب ، وربما أيضاً واجبات الصلة بالجار والدفاع عن الوطن الجديد . فعندما أغار الملك الأشورى « شلمنصر » على دمشق عام ٨٥٤ ق.م هب إهاب وجندب ، وهما زعيمان لقبيلتين عربيتين من الجنوب ، ووقفا إلى جانب ملك دمشق فى الموقعة الفاصلة عند « قرقر » شمالى حماة . وتوالت الإشارات إلى الجزية والهدايا التى كان يقدمها السبأيون فى القرن الثامن قبل الميلاد إلى ملوك أشور ، ولكن هذه الأشياء المذكورة لا يمكن إلا أن تكون هدايا أرسلها ملوك سبأ فى اليمن لتوطيد صلات الصداقة ، ومحافظة على العلاقات التجارية ، أو أن تكون جزية حقيقية فرضها ملوك أشور المنتصرون على الجاليات السبأية التى كانت مستقرة على طول الطرق التجارية فى شمالى الجزيرة وسوريا ، لأنه لا الجيوش الأشورية ولا الجيوش الكلدانية استطاعت أن تخترق الجزيرة العربية وتغزو بلاد اليمن .

أقدم العلاقات بين مصر واليمن :

اختلفت آراء العلماء فى أصل قدماء المصريين ، وأكبر الظن أنها ستظل مختلفة إلى حين . ولكن مهما كان اختلافها فإن هناك حقائقا لا يمكن إنكارها ، وإحدى

---

(١) F. Thureau - Dangin, *Les Inscriptions de Sumer et d'Akkad* pp. 238, 239

وهناك رأى آخر بأن مدين السكانين فى منطقة الخليج العربى (الفارسى) .

هذه الحقائق أن المصريين فى جميع عصورهم كانوا يظهرون احتراما كبيرا لذكرى الـ « شمسو ـ حور » أى أتباع حور أو حورس . وروى قدماء المصريين فى العصر المتأخر لبعض الرحالة أنهم جاءوا من الشرق ومن الجنوب ، وأنهم علموا الحضارة لمن كانوا فى البلاد وأخضعوها لسلطانهم . ويصفون الطريق الذى جاءوا منه وصفا غامضا لا نعرف عنه شيئا على وجه التحقيق فى بدايته ولكنهم استخدموا الطريق الموصل بين البحر الأحمر والنيل مارا بوادى الحمامات بعد ذلك ، وقد ظل هذا الوادى إلى آخر عهد الفراعنة يتمتع بشىء من التقديس يشبه تقديس العبرانيين لجبل سيناء(١) .

ولكن من هو الإله حورس وما أصله ؟ الجواب على ذلك أن هذا الإله ، لم تكن له فى الأصل أية صلة بعبادة الشمس ، وأنه كان رمزاً اتخذته إحدى القبائل كمعبود لها على هيئة الصقر وأنه جاء مع الفاتحين كما أسلفنا . وفى نصوص الأهرام (وهى من أهم وأقدم المراجع الدينية ٢٥٠٠ - ٢٢٥٠ ق . م .) يصفون هذا الإله تارة بكلمة « أختى » وتارة بكلمة « أبتى » و « أبت » معناها الشرق و « أخت » معناها أفق الشمس وكلا الكلمتين تشير إلى المشرق .

ولسنا الآن فى مقام الإفاضة فى مثل هذا البحث الطويل ، ولكن يكفى أن أشير إلى ثلاث نقط :

الأولى أن هناك إشارات كثيرة إلى أن الموطن الأصلى لحورس هو بلاد پونت .

والنقطة الثانية أن اسم حورس غريب على اللغة المصرية ولكنه موجود فى اللغة السامية ، وبعبارة أدق فى اللغة العربية . وقد نقل الدميرى عن ابن سيده بأن : « الحر طائر صغير أنمر أصقع قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس ، وقيل إنه

---

(١) Charles Kuentz, *Autour d'une Conception Egyptienne méconnue L'Akhit ou soi - disant Horizon, B. I. F. A. O. T, XVIII, p.* 183.

يضرب إلى الخضرة وهو يصيد » ، وأما الصقر فهو كلمة عامة لكل طير يصيد من البزاة والشواهين [1] . وما زالت كلمة « حر » مستعملة إلى الآن فى كثير من جهات الجزيرة العربية وشمال أفريقيا لهذا الطير .

والنقطة الثالثة أن هؤلاء الوافدين — أتباع حورس — عبروا من جزيرة العرب إلى الشاطىء الأفريقى فى إريتريا ثم ساروا مخترقين البلاد حتى وصلوا إلى صحراء مصر الشرقية ودخلوها عن طريق وادى الحمامات [2] .

وهنا يحق لنا التساؤل إذا كان الباحثون قد وجدوا ما يثبت أن عبادة حورس كانت معروفة فى جزيرة العرب ، أو ما يثبت على الأقل أن حضارة اليمن ترجع إلى هذا العهد البعيد ؟ وإنى أجيب على ذلك بأن الإله حورس لم يكن الإله الوحيد الذى قال المصريون بأن أصله من بلاد العرب، بل هناك آلهة أخرى منها الإله « بس» [3] . أما معلوماتنا عن تاريخ اليمن القديم فهو قليل نادر لأن أطلال المدن الأثرية فى اليمن ما زالت باقية كما تركتها عوادى السنين ولم يفحصها أحد ، وإذا كنا نعرف مما عثر عليه الرحالة من نقوش أن تاريخ بعض المعابد يرجع إلى القرن الثامن أو السابع أو الخامس قبل الميلاد ، فإنا نكون محقين إذا قلنا إن هناك أملا كبيراً فى العثور على آثار من عصور أقدم عهداً من ذلك ، عند ما يتم حفر المناطق الأثرية وبخاصة فى بلاد الجوف والمشرق .

---

(١) كتاب حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميرى (طبعة صبيح) ، الجزء الأول مادة حر ، ص ـ ٣٢٢ ؛ والجزء الثانى مادة صقر ص ٩١ .

(٢) V. Loret, *Quelques idées sur la forme primitive de certaines religions égyptiennes, Revue Egyptologique, T. XI, p. 69 ff.*

(٣) Ballod, *Prologomena zur Geschichte der bartigen zwerghaften Gotheiten in Agypten*, Ahmed Fakhry, *Bahria Oasi. Vol. 1* (Cairo 1942), *p.* 166.

بلاد پونت :

لم يوجد فى يوم من الأيام حاجز طبيعى يفصل بدو شرق مصر عن بدو سيناء أو بدو فلسطين أو شرق الأردن أو شمالى الجزيرة العربية . ولهذا كان طبيعياً أن يتصل المصريون منذ بدء تاريخهم ببدو سيناء ، ونرى أثر هذه الصلة فى بعض التماثيل التى عثر عليها پترى فى أبيدوس وهى بلا شك لبدو من سكان شبه الجزيرة ، كما نراهم أيضاً فى أقدم الرسوم فى وادى المغارة فى سيناء حيث يضرب الملك زعيم البدو تأديباً له ، أو رمزاً لسيادته على المنطقة ، ولكن إلى جانب صلة مصر ببدو سيناء وشمالى الحجاز ، كانت هناك صلة أخرى أهم وأبعد أثراً وهى صلة المصريين ببلاد پونت .

وأقدم ما ورد مسطراً على الآثار عن مصر وصلتها ببلاد پونت هى البعثة التى أمر بإرسالها الملك ساحورع من الأسرة الخامسة (حوالى عام ٢٥٥٠ ق.م.) إلى تلك البلاد وبقيت بعض مناظرها على بقايا جدران معبده فى أبو صير[١]. ثم جاء ذكرها مرة ثانية على حجر پالرمو وفيه تفصيل لما عادت به الحملة من خيرات پونت مثل جلود الحيوانات والعاج وريش النعام وبعض الأحجار نصف الكريمة ، وذلك إلى جانب البخور وبعض أنواع العطور التى كانت السبب الرئيسى للقيام بهذه الرحلة [٢] . وزادت الصلة بين مصر وبلاد پونت فى الأسرة السادسة إلى حد كبير ، وفى إحدى مقابر أسوان يذكر أحد الموظفين أنه ذهب مع سيده إحدى عشرة مرة إلى تلك البلاد [٣] .

وفى الأسرة الحادية عشرة (حوالى عام ٢١٠٠ ق . م .) بلغ من اهتمام الملوك بالتجارة مع پونت أن الملك منتوحوتب الرابع أرسل مديرخزانته واسمه «حننو» لإحضار البخور ، فذهب ومعه ثلاثة آلاف رجل عن طريق وادى الحمامات

---

(١) L, Borchardt, *Das Grabdenkmal des Konigs Sahure, Vol II, PL 19 ff*

(٢) Schaefer, *Palermostein, R, Z, 4 No, 1,*

(٣) Sethe, *Urkunden I, 140*

والبحر الأحمر ونجح نجاحاً عظيماً فى مهمته . وتكررت الحملات فى الأسرة الثانية عشرة وما بعدها . ونرى فى قصة الملاح الغريق (ويرجع تاريخها إلى الأسرة الثالثة عشرة) صدى لما كان يلاقيه البحارة المصريون فى البحر الأحمر من مصاعب ومتاعب عند سفرهم إلى بلاد پونت [1] .

وأشهر رحلات المصريين إلى تلك البلاد هى الرحلة التى أمرت بها الملكة حتشپسوت فى الأسرة الثامنة عشرة (حوالى ١٤٩٠ ق . م.) تحت قيادة الوزير « نحسى » ونقشت مناظرها على جدران معبد الدير البحرى فى طيبة . أعدت حتشپسوت سفناً كبيرة لهذه الرحلة غادرت طيبة فى النيل وربما وصلت إلى البحر الأحمر عن طريق القناة التى كانت مستخدمة فى ذلك العهد مخترقة وادى الطميلات ، ثم عادت إلى مصر محملة بخيرات پونت من بخور وعطور وأخشاب وحيوانات ، كما أحضرت إحدى وثلاثين شجرة لزرعها فى حديقة معبد أمون بالدير البحرى . واهتم المصريون بتدوين تفاصيل هذه الرحلة ، فنرى استقبال مندوب الملكة لزعماء پونت والهدايا التى قدمها إليهم ، كما رسموا أيضاً القرية الساحلية التى رسوا عندها . وعنوا عناية خاصة برسم جميع أنواع الأسماك التى رأوها فى البحر الأحمر .

وقبل أن نحدد موقع پونت يجب أن نضع نصب أعيننا الحقائق الآتية :

(ا) إن مناظر أهل پونت فى معبد ساحورع فى الأسرة الخامسة ، ومناظرهم على جدران الدير البحرى وبعض مقابر طيبة فى الأسرة الثامنة عشرة تبين أنهم من جنس يشبه كثيراً جنس المصريين ويتفق معهم فى أكثر الملامح والملابس .

(ب) جميع ما ذكره المصريون كخيرات پونت يمكن الحصول عليه من الشاطىء الأسيوى وأكثره محلى ، وبعضه يأتى إليها بوساطة التجارة .

---

(١) *Pap. Petersburg 1115; ERMAN, The Literature of the Ancient Egyptians, p. 29.*

(ج) إن خير أنواع البخور واللبان لا تنبت فى الشاطىء الإفريقى بل فى بلاد الشحر والمكلا وظفار وجزيرة سوقطره ، وكلها على الشاطىء الجنوبى لجزيرة العرب .

(د) فحص الإخصائيون رسوم الأشجار المرسومة على جدار معبد الدير البحرى ووجدوا أنها من نوعين أحدهما ذو أوراق كثيفة من نوع Boswellia Carteri ويقول الأستاذ « شُف Schoff » أنه من نوع أشجار ظفار ولا يمكن أن ينبت فى الشاطىء الإفريقى[1] . أما النوع الآخر فهو قليل الأوراق بل يكاد يكون عارياً منها ، ويشبه أشجار اللبان التى تنبت فى بلاد الصومال[2] .

(هـ) بدأت هجرة سكان جنوبى الجزيرة إلى الشاطىء الإفريقى منذ أقدم العصور ، وانتشروا هناك وأصبحوا بحكم ذكائهم وتقدمهم فى الحضارة أهل النفوذ بين السكان الزنوج .

وهناك نقطة أخرى جديرة بالاعتبار . فى المناظر التى تسجل صلة المصريين بأهل بونت مثل رحلة حتشبسوت ، ومناظر الجزية فى بعض المقابر ، نرى بعض الأهالى يرتدون ملابسهم التقليدية ، ونرى فيها شبها كبيراً بين الإزار الذى كان البونتيون القدماء يلفونه حول وسطهم ، وبين ذلك الإزار نفسه الذى ما زال يستخدمه حتى يومنا هذا بعض رجال القبائل فى جنوبى اليمن ، وعلى الأخص فى مناطق الساحل الجنوبى ، وإنى أرجو أن تكون هذه الملاحظة موضع دراسة جدية فى المستقبل .

فإذا وضعنا فى ذهننا جميع هذه الحقائق ، وأردنا أن نحدد مكان بلاد بونت ، لوجدنا أن رأى علماء القرن الماضى وصدر القرن الحاضر ، وهو أن بونت هى بلاد اليمن الجنوبية ، لا يخلو من القيمة والصدق . ولكن مع تقدم الزمن ظهر معارضون لهذه الفكرة وأخذوا يشككون فيها بانين نظريتهم على اعتراضين ، أولها أن كثيراً من الأشياء التى ذكر المصريون أنهم أحضروها من بلاد بونت لا يكثر

(١) H. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea*, p. 218

(٢) A. Lucas, *Ancient Egyptian Materials and Industries*, p. 93.

وجودها إلا فى أريتريا والصومال . أما الاعتراض الثانى ، فهو أن بعض الأشجار المرسومة فى الدير البحرى يكثر وجودها فى الصومال ويخالف فى مظهره النوع الذى ينبت فى ظفار . وأول هذين الاعتراضين لا يقوم على أساس ، لأن كل ما أحضرته البعثات المصرية من پونت من نباتات أو أشجار أو حيوانات يوجد فى الشاطىء الآسيوى ، كما يوجد فى الشاطىء الإفريقى ، وفضلا عن ذلك فإن التبادل التجارى بين الشاطئين عن طريق باب المندب كفيل فى حد ذاته بجعل هذا الاعتراض لا قيمة له لأن تجار العرب كانوا يجوبون بحار الهند والبحر الأحمر منذ أقدم وأبعد العصور . أما عن الاعتراض الثانى ، فإنه قد ثبت أيضا أن شجر اللبان ذا الأوراق القليلة ينبت أيضاً ـ ولو بكميات قليلة ـ فى الشاطىء الآسيوى. ومهما كان الأمر فنى رأيى أن بلاد پونت اسم عام على المنطقة التى تنبت البخور فى جنوبى البحر الأحمر على مقربة من باب المندب ، وتشمل كلا من الشاطئين الإفريقى والآسيوى . أى أن هذه البلاد تشمل ما نعرفه الآن باسم جنوبى جزيرة العرب والصومال وإرتيريا [1] .

أقدم العلاقات بين اليمن وبين اليونان :

غزا الإسكندر الأكبر بعض بلاد آسيا ، وبعد أن هزم الفرس سارعت الشعوب بإرسال الهدايا لتخطب وده ، مقدمة ولاءها له ما عدا سكان الجزيرة العربية فإنهم أنفوا من ذلك فأثر عملهم فى نفسه وتوعدهم بغزو بلادهم ، ولكنه مات قبل أن ينفذ ما قاله[2] .

وبقى كثير من رجال الإسكندر فى آسيا وعلى الأخص فى فارس وسوقطره ، وبعض البلاد الأخرى على المحيط الهندى ، وكونوا جاليات كبيرة تزوجت من

---

(١) قارن ذلك بما ورد فى ,Erman The literature of the Ancient Egyptians p. 33 footnote 6 Philip K. Hitti, History of the Arabs (3rd ed., 1946) p. 34.

(٢) Strabo, Geography, Book XVI Ch. 4 § 27.

أهل البلاد ، فلما عنى البطالمة المصريون بتشجيع التجارة فى البحر الأحمر والهند ، اشتغل أكثر هؤلاء اليونانيين بالتجارة جنباً إلى جنب مع أهل البلاد [1] .

وأخذ نجم الرومان يعلو بعد ذلك فثبتوا أقدامهم فى مصر وسوريا ، وأخذوا يشجعون التجارة فى البحر الأحمر لنقل حاصلات الهند ، ولكنهم رأوا فى عرب جنوبى الجزيرة منافساً قوياً إذ كانت تجارة الطريق البرى فى أيديهم يتحكمون فيها كما يريدون ، كما كانوا أيضاً منافساً خطراً شديد الوطأة يعمل له الملاحون الرومان ألف حساب عند اجتيازهم باب المندب أو عندما يرسون على بعض الموانى فى تلك المناطق .

وأراد « إليوس جالوس » الحاكم الرومانى فى مصر أن يغزو بلاد العرب مستعيناً بالأنباط حلفاء الرومان ، فأخذ معه الوزير النبطى « سيليوس » وجيشاً مكونا من ١٠,٠٠٠ جندى بينهم ١٠٠٠ من البدو ، و ٥٠٠ من اليهود ، كما صحبهم الجغرافى الرومانى الشهير « سترابون » الذى كان صديقاً حميماً لقائد الحملة .

كان ذلك فى عام ٢٤ ق . م . ومن الوصف الذى تركه « سترابون » نعرف ما تعرض له الجنود الرومانيون من صعاب ، مات بسببها أكثرهم ، إذ قضوا أكثر من ستة شهور حتى وصلوا إلى نجران . وأرادوا التقدم إلى مأرب ، وهناك حدثت معركة حطمت جميع أطماع الرومان فعادوا أدراجهم ، أما القليلون الذين وصلوا إلى مصر ، فقد عادوا إليها وهم مرضى منهوكو القوى . وتوالت بعد ذلك كتابات مؤرخى الرومان ورحالهم عن بلاد البحر الأحمر وجنوبى الجزيرة ، وإنى أخص بالذكر ثيو فراست وسترابون وإراتوستينس وأرتميدور وأجاثار شيدس وبلينى ومؤلف كتاب بريبلوس والجغرافى بطليموس [2] إذ خلف لنا هؤلاء المؤلفون معلومات كثيرة عن الممالك التى كانت فى جنوبى الجزيرة مع وصف لها ، كما ذكروا

---

(١) *ED. GLASER, Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens, Vol. II. p.* 183-184.

(٢) راجع أسماء هؤلاء المؤلفين وتعليقات جلازر فى كتابه السالف الذكر ص ١٤ وما بعدها .

الكثير عن حاصلاتها وتجارتها . ولا شك أن بعض موانى جنوبى اليمن مثل عدن كانت تدخل تحت النفوذ التجارى الرومانى ، ولكن الرومان لم يحتلوا جنوبى الجزيرة فى يوم من الأيام[1] .

اليمن والحبشة :

فى القرن الأول الميلادى استقر بعض المهاجرين اليمنيين والحضارمة فى إفريقيا فى « أرض كوش » حيث وضعوا أساس الحضارة الحبشية ، ثم المملكة الحبشية التى بلغت شأناً كبيراً بين القبائل الزنجية فى تلك المناطق .

عبر اليمنيون بحضارتهم الحميرية إلى الحبشة ، وغرسوا النواة التى ترعرعت منها مملكة أكسوم ، ومنذ ذلك العهد لم تنقطع صلة الحبشة باليمن بل أن لغتهم وكتابتهم ليستا إلا الكتابة واللغة الحميرية اللتين كانتا منتشرتين فى جنوبى اليمن عند الهجرة . ومن المحتمل أن تكون هجرة اليمنيين إلى الحبشة جاءت عقب اضطرابات داخلية فى مملكة حمير ، وكان أحد المطالبين بالملك على رأس أولئك المهاجرين ، أو أن ملكا غلب ملكا آخر على أمره ، فهاجر إلى الحبشة لأنه بمجرد استقرار الأمر فى مملكة أكسوم الجديدة بدأت توجه نظرها إلى غزو اليمن ، وذلك فى القرن الثانى الميلادى ، وأصبحت ألقاب هؤلاء الملوك : « ملك أكسوم وحمير وريدان وسلحين » .

ووصلت الديانة المسيحية إلى الحبشة عن طريق مصر . وأصبح الأحباش مسيحيين متعصبين لدينهم ، بينما لم تجد المسيحية بين أبناء عمومتهم فى اليمن إقبالا كبيراً ، وظل أكثر الناس يعبدون القمر والشمس والكواكب الأخرى . وأخذت بيزنطة ترسل مبشرين بالديانة الجديدة إذ وجدت فى نشر المسيحية نشراً لنفوذها السياسى وسيادتها على الشعوب ، فشجعت إرسال المبشرين . وفى منتصف القرن الرابع كانت هناك كنيسة فى عدن وكنيستان فى أرض حمير ، ولكن لم تصل

---

(١) أحدث الأبحاث وأوفاها عن الصلة بين اليمن وبلاد اليونان هو كتاب جاكلين بيرين Jacqueline Pierenne, *La Grece et Saba*, (Paris, 1955).

المسيحية إلى داخل البلاد إلا بعد ذلك بوقت طويل، إذ ظلت نجران وثنية إلى آخر القرن الخامس ، ولم ينجح فى التبشير بها هناك إلا راهب سورى اسمه « فميون » .

وفى نفس الوقت بدأت الديانة اليهودية تنتشر فى الجزيرة العربية إذ لجأ كثير منهم ، بعد أن حطم الإمبراطور « تيتوس » هيكل أورشليم عام ٧٠ ميلادية ، إلى هذه البلاد ، وبدأوا ينشرون ديانتهم هناك . وكان لا بد من تصادم الديانتين الجديدتين ، وأخذت المنافسة بينهما طابعاً خطراً عندما تهود الملك الحميرى « ذو نواس » وأعلنها حربا لا هوادة فيها على المسيحيين الذين كانت تربطهم بالحبشة وبيزنطة صلات روحية . فأمر « ذو نواس » باضطهاد المسيحيين وبخاصة فى نجران وحدثت إذ ذاك مذبحة الأخدود الشهيرة فى عام ٥٣٣ ميلادية . واهتمت بيزنطة بالأمر وأرسل الإمبراطور جوستنيان إلى النجاشى لمساعدة مسيحيي اليمن ، فأرسل ملك الحبشة جيشاً تعداده ٧٠,٠٠٠ مقاتل حسب رواية مؤرخى العرب . وبعد حرب دامت عامين ، وجد الملك « ذو نواس » أنه لا أمل له فى التغلب على أعدائه ففضل أن يتخلص من حياته على الوقوع فى أيديهم ، فنزل بجواده إلى البحر وأغرق نفسه .

وبقى الأحباش فى اليمن ، وحكمها القائد أبرهة باسم حكومة أكسوم ، وبدأ يصلح البلاد وأهم أعماله إصلاحه لسد مأرب عندما تهدم عام ٥٤٣ ، وبناؤه كنيسة عظيمة فى صنعاء ، ذكرها العرب باسم « القليس » (وهى محرفة عن كلمة اكلسيا بمعنى كنيسة) وبالغ فى نقشها وزخرفتها ووضع فيها التماثيل ، وأراد أن يجعل منها مكاناً شبيهاً بكعبة مكة ليحج إليها العرب فيقلل من شأن كعبة الحجاز ، ويجعل من صنعاء سوقاً تجارية ، ويساعد فى انتشار المسيحية بين القبائل .

ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن اهتمام بيزنطة بأمور اليمن وغزو الأحباش لتلك البلاد ، لم يكن إلا للاستيلاء على أهم طريق تجارى بين الهند والبحر الأبيض المتوسط ، وهو الطريق الذى كان دائما فى أيدى اليمنيين . ولم يكن هذا التحمس لنصرة الدين إلا ذريعة استتر وراءها الرومان لنيل ما عجزوا عن الحصول عليه عن طريق حملتهم فى القرن الأول قبل الميلاد .

لم تكن بيزنطة وحدها فى الميدان ، بل كان لها منافس قوى فى فارس فلما هب أحد الأمراء الحميريين وهو « سيف بن ذى يزن » يريد تخليص بلاده من الحكم الحبشى لم يتردد ملك الفرس فى مساعدته ، وأرسل معه أحد كبار قواده على رأس جيش عظيم ، فتمكن من هزيمة الأحباش واستئصال شأفتهم ، ثم انسحب الفرس تاركين « سيف بن ذى يزن » ملكا على البلاد ومعه حاكم فارسى ، ولم يمض غير قليل حتى ظهر الإسلام وانتشر فى اليمن ، ودخلت البلاد فى عهد جديد .

القبائل اليمنية :

رأينا فى مستهل هذا البحث ، كيف كانت القبائل اليمنية تهاجر وتستقر خارج اليمن وبخاصة على الطرق التجارية الهامة . ولم تقتصر هذه الهجرات على العصور الأولى ، بل استمرت على الدوام . وسواء أكانت هذه الهجرات راجعة إلى اضطرابات داخلية أو نتيجة لتهدم سد مأرب وغيره من السدود بين حين وآخر ، أو أنها ترجع إلى غير ذلك من الأسباب ، فإننا نعرف أنه قبل ظهور الإسلام بوقت غير قليل ، كان بنو غسان يعيشون فى حوران فى سوريا ، وبنو لخم يعيشون فى الحيرة فى العراق ، وكون كل منهما مملكة ذات شأن . وكانت هناك أيضاً قبيلة طيء وقبيلة كندة ، وقد استقرتا فى شمال ووسط الحجاز ، وهذه القبائل كلها يمنية ، هاجرت من جنوبى الجزيرة .

جاء بنو غسان متخذين الطريق الموصل بين مأرب ودمشق ، واستقروا فى الجنوب الشرقى منها فى أواخر القرن الثالث المسيحى ، وسرعان ما كونت هذه القبيلة لنفسها مركزاً ممتازاً . ودارت الأيام واتصلوا ببيزنطة فلم يمض غير قليل حتى انتشرت بينهم المسيحية ، وتركوا حياة البداوة وعاشوا فى القصور . ورأت بيزنطة فى بنى غسان خير معوان على حماية طرق التجارة وإيقاف البدو عند حدهم ، كما وجدت فيهم أداة صالحة لحماية حدودهم ضد توسع الفرس . وأدى بنو لخم المهمة نفسها لحلفائهم الفرس ، وبلغت المملكتان العربيتان أوج ازدهارهما فى القرن الثالث الميلادى وبخاصة فى منتصفه عند ما كان الحارث بن جبلة يحكم غسان

والمنذر بن ماء السماء يحكم الحيرة . ورغم إنهما من موطن واحد فإن السياسة فرقت بينهما ، وكانا يشتبكان — كما اشتبك من سبقهما ومن جاء بعدهما — فى حروب لا يستفيد منها إلا قيصر وكسرى . ولم يلق ملوك غسان من أباطرة الروم ماكانوا يرجونه ، وانتهى الأمر باضطهادهم والقضاء عليهم قبيل ظهور الإسلام . وترك الغساسنة آثاراً لها طابع خاص إذ أن أصولها ترجع إلى الفن اليمنى والفن البيزنطى ، وفيه أيضاً شىء غير قليل من الفن المحلى السورى الذى نشأ وترعرع خلال تاريخها الطويل ، واتصالها بحضارات بابل ومصر والحيثيين . ونعرف من تاريخ الغساسنة أنهم أقاموا قصوراً وكنائساً ، وأنشأوا السدود وبنوا الحامات وأقاموا أقواس النصر ، ولكن زال أكثرها الآن ، وعدت رمال الصحراء فغطت بقاياها ولم يبق فى حوران منها إلا القليل .

إن بلاد المعينيين والسبأيين والحيريين ملأى بالمناطق الأثرية ، وبقايا معابدهم وسدودهم لا تقل عن آثار الحضارات الأخرى . وكم من مرة وقفت أمام الجدران والأعمدة الجرانيتية الذاهبة فى السماء فى صرواح وفى مأرب ، وكم من مرة وقفت أمام بقايا معابد عشتر فى معين ومدينة هرم ، وساءلت نفسى عما تخفيه هذه الأطلال من مفاجآت للتاريخ وعلم الآثار . وسيأتى اليوم — ونرجو ألا يكون بعيداً — عند ما تقص فيه آثار اليمن قصتها الطويلة ، وسيجد فيها العلماء كثيراً مما يودون معرفته .

الفصل الخامس

مأرب وآثارها

أهم الرحالة الذين زاروا بلاد العرب :

يحفل تاريخ الرحالة الذين زاروا بلاد العرب بأسماء وقصص كثيرة لا يمكن الإحاطة بها كلها فى مثل هذا البحث ، ويكفى أن نذكر أن أول اهتمام ببلاد العرب فى العصور الحديثة ، كان بسبب الرغبة فى معرفة ما كان يجرى فى مكة والمدينة ، إذ ألهب ذلك الموضوع خيال الأوروبيين ، وخصوصاً لأن المدينتين محرمتان على غير المسلمين . وأقدم ما نعرفه عن هؤلاء الرحالة هو أن دى فرتما (L. de Varthema) وصل إلى مكة قادماً من دمشق فى أوائل القرن السادس عشر ، وتلاه آخرون . ولكن أكثر الرحالة الذين تركوا لنا وصفاً مسهباً لرحلاتهم ومخاطراتهم ، كانوا رحالة أوائل القرن التاسع عشر ، ويأتى فى مقدمة تلك القصص قصة زيارة المغامر الأسبانى باديا فى لبلخ (Badia y Leblich) الذى وصل إلى جدة عام ١٨٠٧ تحت اسم « على بك العباسى » مدعياً إنه لم يكن مسلماً فحسب ، بل كان آخر أمير من نسل الخلفاء العباسيين . وقد زار مكة وكتب أول وصف دقيق للكعبة وجميع ما كان يجرى أثناء الحج ، ووصف جميع مراسمه ، وكان أول من عين مكان مكة على خريطة العالم .

وكتب هوجارث كتابا عن تاريخ جميع الرحالة حتى عام ١٩٠٤ لخص فيه جميع نتائجهم . ونحن نقرأ فى هذا الكتاب الشىء الكثير عن أمثال نيبوور (Carsten Niebuhr) (١٧٦١ — ١٧٦٤) وهاليفى (Halévy) (١٨٦٩) وجلازر (Glaser) (١٨٨٢ — ١٨٩٢) الذين زاروا آثار اليمن ، وقدموا

للعالم كثيراً من المعلومات عن حضارتها ، كما نقرأ فيه أخبار رحلات مغامرين أذكياء مثل ولستد (Wellsted) (١٨٢٥) وفون فريده (Von Wrede) وهيرش (Hirch) وبنت (Bent) ومايلز (Miles) الذى فحص جميع شواطىء بلاد العرب فى عام ١٨٦٧ موفداً من شركة الهند البريطانية . ويخصص هوجارث صفحات كثيرة لبوركهارت (J. L. Burckhardt) (١٨١٥) الرائد الأول للحجاز ، وبرتون (Burton) وسنوك هورجونيه (Snouck Hurgonje) الهولندى ، وبلجريف (Palgrave) (١٨٦٢ — ١٨٦٣) وغيرهم[١] .

ومن أهم الأسماء وألمعها فى تاريخ اكتشاف بلاد العرب اسم دوتى (Doughty) مؤلف كتاب Arabia Deserta (١٨٧٥) ، واسم بلنت (١٨٨٧ Blunt) ، وهوبر (١٨٨٣ Huber) ، وأيتنج (١٨٨٣ Euting) .

فلما أشرق القرن العشرون بدأت الأبحاث العلمية تزداد ، وأصبح بين أيدينا مؤلفات هامة ، مثل كتاب موزل (Alois Musil) الذى كتبه فى سبعة أجزاء ، وهو تراث خالد فى تاريخ البحث العربى ، وما نشره أيضا كل من جاوسين وسافينياك اللذين نشرا نتائج أبحاثهما فى مؤلفهما الشهير عن آثار الحجاز وبخاصة مداين صالح والعلا[٢] .

وفى الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى كان ديسو (Dussaud) يقوم بأبحاثه وينقل النقوش فى سوريا ، وكان يفعل ذلك أيضا زملاؤه من العلماء الألمان ، فلما نشبت الحرب واضطربت الأمور توقفت الأبحاث إلى حين . ووضعت الحرب أوزارها ، ولكن لم تجر أى حفائر فى شمال بلاد العرب أو فى

---

(١) وظهر حديثا كتاب آخر فى الموضوع ذاته وهو كتاب Jacqueline Pierenne, *A la découverte de l'arabie, Paris* 1958,

(٢) Jaussen - Savignac, *Mission archéologique en Arabie. Tome I, De Jerusalem au Hedjaz, Medain-Saleh,* (1907) · *Paris* 1909, *Tome II El-Ela d' Hegra. à Teima, Harrah et Teboik* (1909 *et* 1910) *Texte et Atlas* (*3 Vol, in 4*), *Paris* 1914.

الحجاز أو فى نجد ، ومع ذلك فقد ازدادت معلوماتنا عن النقوش ، وتمكن كثيرون ومنهم ديسو ، ودينان (Dunand) من نقل كثير من النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية ، وأصبح من الميسور البدء فى عمل سجل جامع لها .

وكان أكثر الرحالة نشاطا فى نجد وأواسط بلاد العرب ، برترام توماس ، ثم هنرى سان جون فيلبى ، الذى قام بكثير من الرحلات ، كانت آخرها رحلته التى قام بها فى صحبة العالم البلجيكى ج — ريكمانز ومساعديه وعادوا منها (كان ذلك فى شتاء ١٩٥١ — ١٩٥٢) ومعهم ١٢٠٠٠ نقشا جديدا أكثرها ثمودية ، ولكن من بينها أيضا نقوش لحيانية وسبأية ، وقد مرت هذه البعثة بنجران وزارت كل ما وجدته من بقايا المدنيات القديمة فى المنطقة الواقعة داخل حدود المملكة العربية السعودية .

أهم الرحالة الذين زاروا اليمن :

تكفينا هذه المقدمة عن الرحالة الذين اهتموا بدراسة الجزء الشمالى من بلاد الجزيرة العربية ، ولنتحدث الآن بشىء من التفصيل عن أولئك الذين ركزوا اهتمامهم فى زيارة اليمن ، وكان هدفهم الأول دراسة ما بقى من مدنيتها القديمة ، وذلك أيام القرن الثامن عشر .

كارستن نيبؤور Carsten Niebuhr ١٧٦١ — ١٧٦٧ :

كانت قصة التوراة عن ملكة سبأ وسليمان ، وما ورد فيها عن أماكن متعددة فى بلاد العرب ، وما حوته من ذهب وأحجار كريمة ، وما كتبه المؤرخون اليونان والرومان من قصص أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، وما ردده بعض كتاب العرب عما يقوم فى بلاد اليمن من قصور وحصون بقيت من عهد الأقدمين كانت كل هذه الكتابات سببا فى إلهاب خيال كثير من الرحالة وحملهم على التفكير فى السفر إلى اليمن . وكانت أولى المحاولات العلمية هى قيام بعثة دانمركية أوفدها الملك فريدريك الخامس عام ١٧٦١ ، وكانت مكونة من علماء عديدين

من علماء الاستشراق والنبات ، وكان من بينهم ضابط صغير اسمه نيبؤور لعمل الخرائط . بدأوا رحلتهم على إحدى السفن الحربية الدانمركية ، فقصدوا أولا إلى أزمير ومنها إلى استانبول ثم إلى مصر ، وكانوا يدرسون ويحققون كل ما يقع تحت أنظارهم ، لأن الشرق كان جديداً على أوروبا فى ذلك الوقت. ولكن ما كادت البعثة تضع أقدامها على أرض اليمن حتى أخذت تحل بها النكبات ، فمات رئيسها فى ميناء المخا بالحمى فى مايو ١٧٦٣ ، ومات فورسكال أخصائى النبات بين المخا وصنعاء فى بلدة يريم ، ولكن الثلاثة الباقين واصلوا رحلتهم إلى صنعاء وعادوا منها ، وأقلعوا من المخا فى طريقهم إلى بومباى . ومرض ثالثهم ومات فى البحر أمام جزيرة سوقطره ، ومات الرابع فى عام ١٧٦٤ فى بومباى ، ولم يبق من الخمسة غير الضابط الصغير نيبؤور الذى صمم على إتمام الرحلة بمفرده حسب البرنامج الموضوع، فوصل إلى ميناء البصرة ثم إلى بغداد والموصل وحلب والقدس وقبرص واستانبول ووصل بعد ذلك سالماً إلى كوبنهاجن . وقد أثبت نيبؤور إنه كان من أكفأ الناس لمثل هذا العمل ، وقام بإخلاص بإعداد جميع الأبحاث والرسوم للنشر ، فكانت نتائج هذه البعثة بفضل ذكائه وإخلاصه وعلمه أفضل نتائج البعثات العلمية فى ذلك العهد ، وما زالت معلوماته التى دونها مرجعاً من المراجع الأساسية عن اليمن حتى الآن ، شأنها فى ذلك شأن جميع ما كتبه فى وصف البلاد التى مرت بها البعثة .

وبالرغم من أن زيارة الآثار وبحثها لم تكن من أهداف البعثة إلا أنه يكاد يكون من المؤكد أن نيبؤور كان أول أوروبى وقعت عيناه على الكتابة العربية من عهد ما قبل الإسلام . فبينما كان مريضا فى المخا فى يوم من الأيام ، جاءه أحد الهولنديين الذين كانوا يقيمون فى ذلك الميناء واعتنق الإسلام ، ومعه حجر من الأحجار عليه كتابات بلغة لم يعرفها نيبؤور ، وذكر هو قصة ذلك الحجر ، وقال إنه كان فى تلك اللحظة يعانى أشد الآلام ، وكان يعد نفسه لاستقبال الموت ، فلم يهتم أو يقو على نقل صورة تلك النقوش . وقد وضع هذا الرحالة الممتاز كتابه بالألمانية بعنوان :

Carsten Niebuhr, *Beschreibung von Arabien. Kopenhagen,* 1772.

وقد ظهر له أكثر من ترجمـــة بالفرنسية كانت الأولى فى عام ١٧٧٣ Description de l'Arabie والثانية فى ١٧٧٩ .

جوزيف توما أرنو Joseph Thomas Arnaud (١٨٤٣) :

منذ اكتشاف نقش حصن الغراب على شاطىء حضرموت فى عام ١٨٣٤ بدأ بعض الرحالة يهتمون اهتماما خاصا بالحصول على نقوش عربيـة قديمة . ونحن نعرف بعض الأسماء لأناس منهم ، ولكن أهم الرحالة فى ذلك الوقت بالنسبة لدراسة تاريخ العرب القديم ، هو شاب فرنسى صيدلى اسمه أرنو ، كان فى خدمة حاكم تركى أرسلته حكومته فى مهمة خاصة إلى اليمن عام ١٨٤٣ ، فانتهز فرصة سفر إحدى القوافل من صنعاء إلى مأرب لخاطر بالسفر معها دون إذن من الحاكم ، فوصل إلى مأرب بعد سفر خمسة أيام . ثم ترك مأرب فى اليوم الثالث من وصوله عائداً إلى صنعاء مع إحدى قوافل الملح فوصلها دون أن يصيبه أى ضرر .

كانت رحلة أرنو إلى مأرب فى يوليـــه ١٨٤٣ ، وقد زار فى طريقه إليها خرائب مدينـة صرواح . وزار سد مأرب ونقل كثيراً من النقوش السبأية التى رآها ، وكان عددها ٥٦ نقشا ، وأخذ مذكرات عما وقعت عليه عيناه ، وبخاصة عند سد مأرب ، فكانت أول نقوش هامة تصل إلى أيدى العلماء . وقد نشر هذه النقوش والمذكرات القنصل الفرنسى فى جـــدة ، وكان يسمى فرزنل Fresnel فى عام ١٨٤٥ [١] . أما أرنو نفسه فقد أثرت عليه رحلته وسببت فقد بصره مدة طويلة ، وكان ذلك بسبب الأمطار الشديدة التى تعرض لها فى سفره عند العودة من صنعاء إلى الشاطىء فى بلاد تهامة .

جوزيف هاليفى Joseph Halévy (١٨٦٩) :

كانت أبحاث فرزنل على نقوش « أرنو » سبباً مباشراً لعناية علماء الاستشراق

(1) *Journal Asiatique 4 Serie 5 Tome, Paris, Relation d'un Voyage a Mareb (Saba) dans L'Arabie Méridionale entrepris en* 1843 *par M. Arnaud, p.* 211-245,309-345,6 *Tom Inscriptions, transcription Arabe et Remarques de M. Fresnel, p.* 169-237.

طرق المواصلات الرئيسية في اليمن

طريق صالحة لمعظم السيارات

عسير

الجوف

صنعاء

الحديدة

بيت الفقيه

إب

حضرموت

عدن

خليج عدن

بلغة بلاد العرب الجنوبية . وقد زاد الاهتمام بها بعد العثور على مجموعة كبيرة من النقوش فى بلاد اليمن اشتراها الضابط كوجلان Coghlan ، وكان من بينها تماثيل وأحجار مكتوبة وألواح من النحاس لا يقل عددها عن الأربعين ، وهى الآن فى المتحف البريطانى[1] . وقد رأت أكاديمية النقوش والآداب الجميلة فى باريس عام ١٨٦٩ (Académie des Inscriptions et Belles Lettres) أن تبدأ فى وضع معجم النقوش السامية (Corpus Inscriptionum Semiticarum) فاختارت هاليفى لنقل النقوش التى فى بلاد اليمن . فسافر فى ذلك العام إلى عدن حيث حصل على معونة الجالية اليهودية فيها ، وخطابات التوصية إلى جميع يهود اليمن ، وسافر إلى داخل البلاد يلبس ملابس يهود القدس . سافر هاليفى إلى لحج ثم عاد إلى عدن وركب سفينة إلى الحديدة ثم سافر منها إلى صنعاء حيث زار بقايا القليس ، وهى التى كانت كنيسة شهيرة فى القرن السادس المسيحى . ثم أخذ يتجول كما شاء فى جميع المناطق مصطحباً أحد يهود صنعاء واسمه « حاييم حبشوش » فزار كل جهات اليمن تقريباً بما فى ذلك بلاد مأرب والجوف ونجران ، وهو عمل لم يستطع القيام به فرد آخر حتى الآن . وفى هذا الوقت البعيد كان تجار الآثار يرسلون رسلهم لإحضار الآثار من اليمن ، وقد قص هاليفى قصة التاجر الهندى الذى كان فى مأرب ليحصل على آثار منها ليبيعها للبريطانيين فى عدن .

ونحن إذ نقرأ الآن قصة رحلته والمصاعب التى لاقاها ، لا يمكننا إلا الإعجاب بهذا العالم الذى تغلب بصبره وشجاعته على كل ما صادفه ، وقد نقل هاليفى أثناء رحلته كتابة ٦٧٦ نقشاً لم يكن من بينها إلا أحد عشر نقشاً سبق أن نقل أرنو كتابتها ونشرها فرزنل ، كما ذكرنا .

ومما يتصل برحلة هاليفى ما حدث بينه وبين حاييم حبشوش رفيقه فى السفر من نزاع ، فإن حبشوش كان يهوديا من صنعاء ، وكان هاليفى يرسله لينقل له بعض

---

(١) المعروف عن هذه المجموعة أنها وصلت إلى عدن ، واشتريت بعد عام ١٨٦٠ ، وإنى أعتقد أنها جاءت من عمران وكان العثور عليها فى عام ١٨٥٤ ميلادية (١٢٧١ هـ) .

نقوش ويدفع له قرشاً عن كل سطر ، فكان حبشوش يقطع السطور الطويلة
يحصل على مبالغ أكثر ، كما كان يخفى عنه بعض النقوش إذا كان المحصول كبيراً
ـ أحد الأيام لأنه كان يعرف أن هاليفى لا يرحب بدفع مبالغ كبيرة ،وكان يخلق
سبباً للتملص من الدفع . وقد أنكر هاليفى على حبشوش أى فضل ، لكن
جلازر قد أنصف حبشوش ، وقام حبشوش نفسه بكتابة مذكرات نشرها
لأستاذ جويتين فى كتاب خاص[١] .

ولم تقتصر رحلة هاليفى على نقل النقوش بل وصف بعض الآثار القائمة التى
آها[٢] ، كما أضافت رحلته معلومات كثيرة عن حياة بعض القبائل داخل البلاد،
ذ أن هاليفى زار مناطق فى نجران لم يصل إليها أحد غيره حتى اليوم[٣] .

إدوارد جلازر Eduard Glaser (١٨٨٢ — ١٨٩٢) :

تمتاز رحلات جلازر إلى اليمن بأنها حتى الآن أهم ما قام به العلماء فى اليمن .
عد جلازر نفسه إعداداً تاما لهذا العمل إذ كان تلميذاً فى فينا للمستشرق المشهور
.. ه . موللر الذى ترجم إلى الألمانية الجزء الثامن من كتاب الإكليل وعلق
عليه . وهو الذى رأى فى الشاب المتحمس خير من يحقق آمال العلماء إذا سافر
إلى بلاد العرب . كان جلازر فى السابعة والعشرين من عمره عندما قام بأولى رحلاته
إلى اليمن ، وكان قد سبقت له الإقامة قبل ذلك فترات قليلة فى شمال إفريقيا والقاهرة

(١) S. D. Goitein, *Travels in Yemen, An account of Joseph Halévy's journey to Najran in the Year 1870 written in Sanaani Aravic by his guide Hayyim Habshush* (Jerusalem, 1941).

(٢) هذه هى أهم الأبحاث التى نشرها هاليفى عن رحلته .
Halévy (J) " *Rapport sur une mission archéologique dans le Yemen, Journal Asialique. vi, pp.* 1 - 98 (*Paris*, 1872). J. *Halévy, Voyage au Nedjran" Bull. Soc. Géogr.* 6 *Serie. Vol. VI, pp.* 5-13, 249-273, 581-606, *Vol XIII* (1877) *p.* 466-79. *J. Halévy " Itineraire d'un voyage dans le Yémen"* (1869-1870) *Bull. Soc, Géogr., Paris July* 1877.

(٣) يجد القارئ تلخيصاً لهذه الرحلة وذكر الأماكن التى زارها فى كتابى
Ahmed Fakhry, *An Archaeological Journey to Yémen, Vol.* 1. (*Cairo,* 1952) *p.* 21-24.

لتمكينه من اللغة العربية ، وقد قام بين أعوام ١٨٨٢ — ١٨٩٢ بأربع رحلات كبيرة ، كانت أهمها رحلته الثالثة فى عام ١٨٨٨ ، وهى التى تمكن فيها من الوصول إلى مارب .

كانت رحلات جلازر كلها خيراً وبركة ، فقد كانت مذكراته الجغرافية فاتحة عهد جديد لمعرفة تلك البلاد ، وكان ينقل الكتابات التى على الأحجار ، ويشترى كل ما يقع عليه نظره من المخطوطات والآثار وغيرها ، كما درب بعض البدو لعمل « إستمباج » أى طبع نقوش الأحجار على أوراق خاصة ، فتيسر له الحصول على مئات من النقوش الهامة دون أن يذهب بنفسه إلى تلك المناطق الخطرة البعيدة . وكانت رحلته إلى مارب فى حماية عائلة الأشراف الذين يقيمون هناك ، وكانوا على صلة حسنة مع العثمانيين ، هى أهم أعماله . وقد رأى جلازر ـ وهو يهودى مثل هاليفى ـ أن يدعى الإسلام ويلبس ملابس العلماء المسلمين ، ويسمى نفسه باسم الحاج حسين . ولكن صداقة جلازر للأتراك والأشراف لم تمنع عنه خطر معارضة قبيلة عبيدة فى وجوده فى مأرب ، فاضطر للهرب ليلا خوفا على حياته .

ولكن قبل أن يضطر جلازر لمغادرة مأرب كان قد زار المنطقة بأكلها ، ونقل أهم النقوش ووصف ما رآه هناك من آثار ، ووضع خريطة تقريبية للمنطقة ورسوماً تقريبية للمعابد التى رآها .

وما زالت نقوش ومذكرات جلازر غير كاملة النشر . وهى الآن ـ أو على الأقل بعضها ـ فى معهد الدراسات الشرقية فى ڤينا ـ وقد كتب كثيرون عن حياة وأعمال جلازر ، ونجد بيانا بأهم نتائجها والمقالات التى نشرها فى الملحق الخاص فى بحث :

J. Werdecker, A contribution to the Geography and Cartography of North-west Yemen in Bull. Soc. Roy. de Geogr. D'Egypte T. XX (1939), pp. 1 – 169.

أما عن الوصف الكامل لرحلته إلى مأرب فإنه لم ينشره فى حياته ، بل قام بنشره بعد وفاته فى مايو سنة ١٩٠٨ كل من : موللر وردوكاناكيس

Müller & Rhodokanakis, Eduard Glasers Reise nach Marib, Vienna. 1913.

وكان ذلك فى عام ١٩١٣ .

الأبحاث الأثرية فى اليمن بعد استقلالها :

منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، ازداد نشاط البعثات العلمية فى بلاد الشرق المختلفة . ومنذ عام ١٩٢١ كانت هناك أبحاث فى مصر وفى العراق ، وما لبثت هذه البعثات أن امتد نشاطها إلى الأناضول وسوريا وفلسطين ، رغم ما كان يسود هذه البلاد من اضطراب سياسى فى ذلك الوقت . ولكن بلاد اليمن ظلت بعيدة عن هذا النشاط كله رغم معرفة العلماء لقيمتها وآثارها ، وكان ذلك راجعاً قبل كل شىء إلى إغلاق اليمن فى وجوه كثير من الزائرين بعد أن حصل اليمن على استقلاله بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . وأول من قام بشىء من النشاط فى البحث عن الآثار فى تلك البلاد هما راتينس وويسمان Carl Rathjens-H. Von Wissmann اللذان قاما فى عامى ١٩٣١ ، ١٩٣٢ برحلات متعددة إلى الحبشة وحضرموت واليمن ، وكان لهما الفضل فى القيام بأول حفائر فى اليمن فى منطقة النخلة الحمرا وغيمان وحقة على نفقة ولى عهد اليمن فى ذلك الوقت . ولكن هذه الحفائر كانت غير منتظمة وعلى نطاق ضيق ، ولقى الباحثان كثيراً من الصعوبات ولم يستطيعا الاستمرار ، كذلك لم يتيسر لهما مطلقاً رغم إقامتهما مدة غير قصيرة فى اليمن أن يزورا آثار مأرب أو الجوف ، إذ لم تسمح لهما السلطات بالسفر إلى شرق أو شمالى صنعاء . وقد نشرا نتائج أبحاثهما الجغرافية والأثرية فى مؤلف من خيرة الكتب عن اليمن ، وهو كتاب فى ثلاثة أجزاء خصصا منه الجزء الثانى للآثار .

Rathjens (c.) und Wissmann (H. von) Südarabien - Reise Band, 2 Vorislamische Altertümer, Hamburg, 1934.

نزيه مؤيد العظم — ١٩٣٦ :

وكان أول من تيسر له زيارة مأرب هو الصحفى السورى نزيه مؤيد العظم الذى اتصل باليمن منذ عام ١٩٢٦ ، ولكنه لم يحصل على تصريح بالسفر إلى مأرب إلا فى عام ١٩٣٦ . وبالرغم من أن وصف الأستاذ العظم للآثار أقل مما ينتظره

الأثريون ، إلا أنه كان لما حصل عليه من معلومات ، نشرها فى كتابه عن تلك الرحلة ، قيمتها وأهميتها لدى الباحثين ، واستحق الشكر بوجه عام . وكتابه اسمه «رحلة فى بلاد العربية السعيدة» من مصر إلى صنعاء - فى جزئين - القاهرة ١٩٣٨ » .

بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن — ١٩٣٦ :

وفى الوقت نفسه كانت هناك بعثة علمية أوفدتها جامعة القاهرة إلى جنوبى الجزيرة العربية تحت رئاسة الدكتور سليمان حزين ، وكانت مهمتها دراسة المنطقة من نواحيها الجغرافية والزراعية والجيولوجية ، وكذلك دراسة النقوش السبأية وغيرها . وكان نشاط البعثة فى عدن وفى حضرموت وفى اليمن أيضاً ، ولكن لم يسمح لها بالبحث عن الآثار إلا حول بلدة ناعط ، وقد نشر الدكتور حزين بعض ملاحظاته فى مجلة :

Nature, Vol. CXI, pp. 513., 1937.

ولكن النقوش التى رآها الدكتور خليل يحيى نامى عضو البعثة ، كانت موضوع رسالة خاصة اسمها : نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها — القاهرة ١٩٤٣ .

محمد توفيق — ١٩٤٥ :

وهناك مصرى آخر اقترن اسمه بتاريخ البحث عن آثار جنوبى الجزيرة العربية،وهو الأستاذ محمد توفيق،الذى كان عضواً فى بعثة الجامعة المصرية عام١٩٣٦ ، وتيسر له أن يعود مرتين بمفرده إلى اليمن فى عامى ١٩٤٤ ؟ ١٩٤٥ لأجل دراسة هجرات الجراد فى الجزيرة العربية . وقد صرحت له حكومة اليمن بزيارة آثار الجوف ، ونقل لحسن الحظ كثيراً من النقوش وأخذ لها صوراً فوتوغرافية ، وقد أخذ منذ بضع سنوات بنشر نتائج رحلته ، وكان أول أبحاثه عن معين :

«آثار معين فى جوف اليمن» واسم الكتاب بالفرنسية Les Monuments de Ma'in, Yemen وقد ظهر منه جزءان أحدهما فى عام ١٩٥١ ، والثانى فى عام ١٩٥٢

رحلتي إلى اليمن – ١٩٤٧ :

منذ أن زار هاليفي جنوبي الجزيرة العربية في عام ١٨٦٩ لم يتمكن رحالة آخر من زيارة جميع البلاد التي زارها وبخاصة مأرب والجوف معا . فقد تمكن جلازر من زيارة مأرب وكذلك فعل نزيه العظم ، ولم يتمكن محمد توفيق إلا من زيارة الجوف ، ولهـــذا ظل هاليفي حتى الآن صاحب الفضل في زيارة أكثر المناطق في بلاد المشرق . وبالرغم من أنني زرت مناطق صرواح ومأرب وما حولها، وكذلك جميع مراكز الحضارة المعينية في الجوف ، فإنني لم أزر بلاد نجران كما فعل هاليفي .

والنتائج العلمية لرحلتي إلى بلاد اليمن تتلخص في العثور على نحو ١٢٠ نقشاً جديداً لم تكن معروفة من قبل ، وأخذ مجموعة من الصور الفوتوغرافية لكل ما رأيته من آثار ، وكانت أول صور فوتوغرافية وافية تنشر عن سد مأرب والمعابد المختلفة ، كما نقلت أيضاً جميع النقوش التي وقعت عليها عيناي ونشرت هذه النتائج في بضع مقالات علمية ، وفي كتاب اسمه :

An Archaeological Journey to Yemen (Cairo, 1952).

وهو في ثلاثة أجزاء ، اقتصر ثانيهما على النقوش التي فحصها وترجمها الأستاذ ج . ريكمانز .

بعثة وندل فيليبس إلى اليمن – ١٩٥٢ :

وفي عام ١٩٥٢ حصل الأمريكي وندل فيلبس Wendell Phillips على تصريح من حكومة اليمن بالحفر في منطقة مأرب بعد أن حفر في الموسمين السابقين في بلاد بيحان في حضرموت .

كانت بعثة فيلبس لسوء الحظ غير موفقة في صلتها باليمنيين وسرعان ما دب الخلاف بين رجالها وبين المسئولين في اليمن ، فلم تتمكن البعثة من إتمام حفر الساحة الأمامية لمعبد محرم بلقيس على مقربة من مأرب ، ولكن الأسابيع القليلة

التى قضتها تلك البعثة هناك كانت كفيلة بإظهار كثير من المبانى والنقوش الجديدة ، وإظهار مدى النجاح الذى ينتظر أى بعثة علمية تقوم بالحفر فى هـذه المناطق البكر . ومن المحزن أن يحدث ذلك من أول بعثة تصرح لها حكومة اليمن بالبحث عن الآثار وأن يترتب عليه حدوث ما كان يخشاه الأثريون ، وهو أن ما اقترفه أعضاء البعثة الأمريكية وما ملأوا به صحافة العالم من مهاجمة اليمن وحكومته جعل اليمنيين يقفلون الأبواب من جديد أمام البعثات العلمية الأجنبية . وقد ظهر عن تلك الحفائر بعض المقالات فى الصحف وكتابان أحدهما للقارىء العادى لوندل فيلبس ، والثانى تقرير علمى واف عن الحفائر(١) .

بعثة جامعة الدول العربية :

تصادف وجود بعثة لجامعة الدول العربية فى صنعاء فى ذلك الوقت لتصوير المخطوطات العربية النادرة فى بلاد اليمن . يرأسها الدكتور خليل يحيى نامى الاختصاصى المصرى فى النقوش اليمنية ، والأستاذ بجامعة القاهرة ، فطلبت منه حكومة اليمن أن يكون ضمن أعضاء لجنة لفحص ما تركه الأمريكيون ، وتقديم تقرير عما قاموا به من حفائر ، فتيسر للدكتور نامى أن يزور المنطقة ، وأخذ لها كثيراً من الصور الفوتوغرافية ، وكان ذلك فى شهر مارس سنة ١٩٥٢ .

فى اليمن مرة أخرى :

كانت أولى زياراتى لليمن فى عام ١٩٤٧ ، وزرتها مرة ثانية فى عام ١٩٤٨ ، ومرة ثالثة فى شهر مايو عام ١٩٥٩ ، وفى هذه الزيارة الأخيرة ذهبت إلى مأرب وزرت ما فيها من آثار ، ورأيت فى مخزن بدار الحكومة آثارا كثيرة لم أرها فى زيارتى الأولى ، جاء بعضها من أعمال التخريب المستمرة ، إذ ما زال موظفو الحكومة يحطمون تلك الآثار ، وجاء البعض الآخر من حفائر البعثة الأمريكية فى عام ١٩٥١ .

---

(١) Wendell Phillips *Qataban and Sheba* (London, 1955).
Richard Le Baron Bowen Jr and Frank P Albright and Others. *Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore*, 1958.

واستطعت فى هذه المرة نقل نقوش أخرى لم تكن معروفة من قبل ، كما كان لى الحظ فى الوصول إلى موقع معبد فى منطقة تسمى بالمساجد ، وهو معبد كبير فى حالة لا بأس بها ومشيده هو « يدع إيل ذريح » مشيد معبد صرواح ومعبد مأرب . وبالرغم من أن اسم هذه المنطقة الأثرية كان معروفا لنا من روايات البدو فإنه ظل أشبه بأسطورة ، ولم يسبق لأحد من الأثريين زيارته أو أخذ صور فوتوغرافية له[1] .

أهم المناطق الأثرية فى صرواح ومأرب :

اليمن ملأى بالمناطق الأثرية المختلفة ، ولا تكاد تخلو جهة فيها من بقايا الحضارات القديمة . وقد تمكن بعض من زاروا اليمن من ذكر بعضها ووصفه وصفا سطحيا مختصرا ، ولا شك أن عشرات منها ، لم تذكر حتى الآن فى أى مؤلف علمى . وسأقتصر هنا على الإشارة إلى أهمها ، وبالأخص ما تمكنت من زيارته بنفسى ، وأبدأ بوصف منطقة صرواح ، التى تقع على مسيرة ثلاثة أيام ونصف بالدواب إلى الشرق الشمالى من مدينة صنعاء .

صرواح :

يكاد يكون وادى صرواح مستديراً ، وهو محاط بالجبال من كل ناحية ، وكان له فى العصور القديمة سد لتخزين مياه الأمطار . أما اليوم فإن سكانه الذين لا يتجاوزون أربعمائة شخصا يعتمدون على مياه الآبار ، ومكان السد القديم يعرف الآن باسم « البنا » وعليه بعض الكتابات القديمة . وتوجد المناطق الأثرية فى صرواح فى ثلاثة مناطق متقاربة واحدة منها هى منطقة البنا التى أشرت إليها ، والثانية هى المنطقة المسماة القصر ، وهى قرية حديثة البناء استخدموا فى تشييد

---

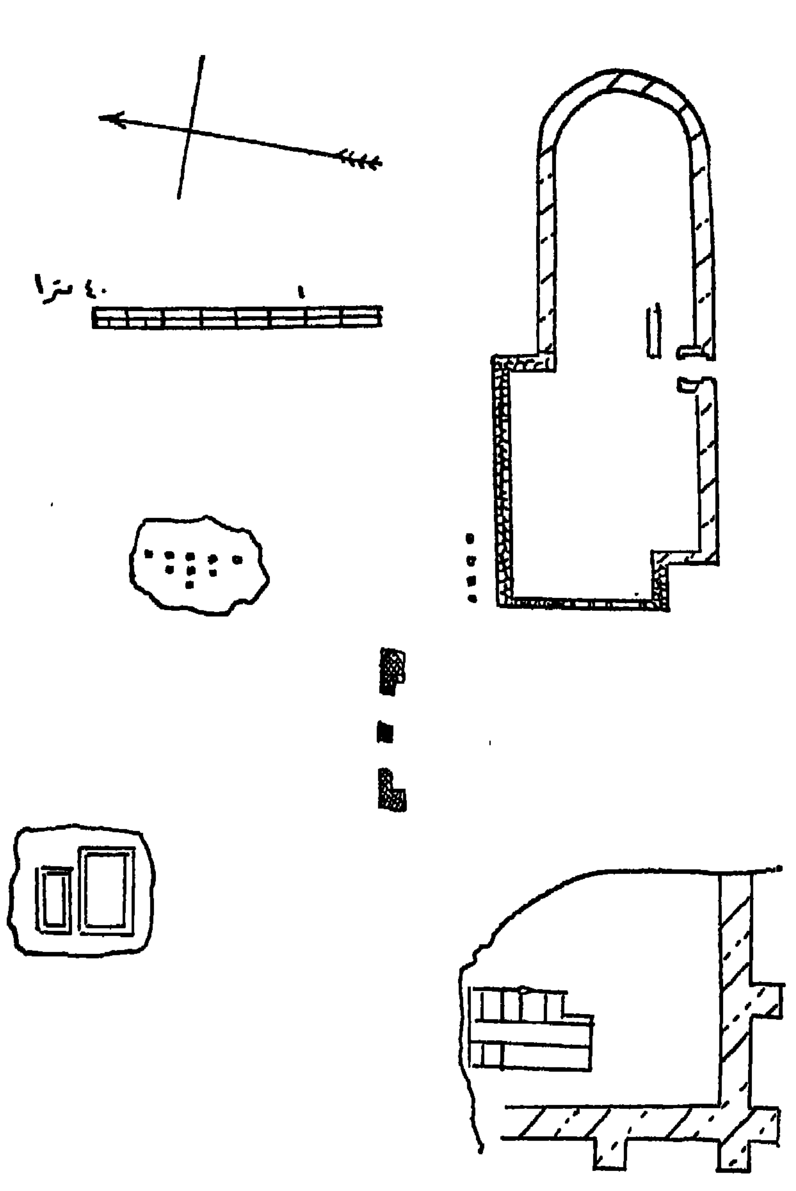
(١) لم أنشر عن هذا المعبد إلا بحثا مختصرا ألقيته فى المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية المنعقد فى مدينة فاس فى المدة من ٨ — ١٨ نوفمبر ١٩٥٩ ، وهو منشور فى كتاب المؤتمر تحت عنوان : أحدث الاكتشافات الأثرية فى اليمن : معبد المساجد ببلاد مراد (القاهرة ١٩٦١) .

بعض منازلها أحجاراً من المعابد ، أما الآثار القائمة المهمة فهى فى المنطقة المسماة بالخريبة .

كانت صرواح عاصمة مكربى « سبأ » قبل مدينة مأرب ، وظلت قروناً طويلة مدينة ذات أهمية ، وعنى كثير من ملوك سبأ بتشييد المعابد الهامة فيها . وكثيراً ما تردد اسم صرواح فى أشعار العرب ، قال عنها أبو محمد الحسن الهمدانى ، الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى ، فى كتابه الإكليل إنه لا يقاس بصرواح شىء من المحافد المختلفة ، وجمع الكثير من الأشعار التى ورد فيها اسمها ، وبخاصة أشعار علقمة بن ذى جدن وعامر بن أحمد بن يزيد القيسى وغيرهما من شعراء خولان .

ويسكن قريتى وادى صرواح قوم من « القرار » يعيشون فى القصر وفى الخريبة ، فأما الذين فى القصر فقد شيدوا لهم قرية أحاطوها بسور ، وأما سكان الخريبة ، فهم يعيشون داخل المعبدالقديم ، وأقاموا لأنفسهم فى داخله بعض منازل صغيرة أخذوا أحجارها من المعبد . وأكثر آثار صرواح فى هذه المنطقة التى يبلغ مسطحها نحو ٢٦٠×٢٤٠ متراً ، وهى مشيدة فوق مكان مرتفع فى الوادى الفسيح ، ويبلغ ارتفاعه فى المتوسط نحو ثمانية أمتار ، ولكن ارتفاع الصخر فى أحد الأركان لا يقل عن ١٨ متراً . وأينما اتجه الإنسان يرى بقايا المعابد ذات الأعمدة الجرانيتية ، وبعض تلك المعابد ، مثل دار بلقيس ، ما زال سليما ويحتفظ بسقفه الحجرى ، ولا يحتاج إلا إلى رفع ما تكدس من أتربة فوق بابه ليصل الإنسان إلى داخله . كما نرى أيضاً معابد أخرى مختلفة نقشت بعض أعمدتها بالكتابات . ولكن أهم تلك الآثار جميعاً هو المعبد الكبير ، وهو معبد إله القمر « الموقاه » الذى استدارت إحدى ناحيتيه فجعلت منه بناء نصف بيضى الشكل .

ولا يمكن معرفة التصميم الأصلى للبناء الذى يبلغ ارتفاع جدرانه أكثر من ١٠ أمتار إلا بعد عمل الحفائر حوله وتنظيف داخله ، لأنه قد استخدم خلال



رسم تقريبي لأهم الآثار الظاهرة فوق سطح الأرض في خربة صرواح

قرون طويلة كحصن فى العصور الوسطى ، وفتحوا فيه بعض المداخل ، كما سدوا بعض أبوابه القديمة ، واستخدموا كثيراً من الأحجار المكتوبة فى تلك الترميات .

أهم النقوش فى صرواح :

وهناك نقوش كثيرة مبعثرة فى كل مكان . صوّرتها جميعاً ، ونقلت ما عليها من كتابات،وهى تمدنا بالكثير من المعلومات عن تلك المدينة القديمة ، وأجدرها بالذكر تلك النقوش الطويلة التى على الجدار الخارجى للمعبد ، ويبلغ طول أحدها ١٢,٥٥ متراً وارتفاع السطر ٢٦ سم ، وهو يذكر اسم « يدع - إيل - ذريح » ابن « سمهو على » مكرب سبأ الذى بنى هذا الجدار . ولا يقتصر على ذكر الإله « الموقاه » فقط بل يذكر أيضاً الإله عشتر والإلهة ذات حميم[1] ، ويكونون معاً ثالوث المدينة القديمة ، وعلى رأسهم الإله الموقاه ، وربما كان معناه «ايل قوى»[2]، أى الله قوى . ويرمز به للقمر ، كما كان الإلهان الآخران يرمزان لنجم الزهراء والشمس .

و « يدع إيل ذريح » بن « سمهو على » هو ثانى مكرب معروف فى مملكة سبأ ، وعاش فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وعلى ذلك يكون هذا المعبد هو أقدم المعابد السبأية الكبيرة التى ظلت قائمة حتى اليوم .

---

(١) فى الديانة البابلية وغيرها من الديانات التى تأثرت بها نعرف أن عشتر كانت الهة ولكن السبأيين القدماء كانوا يعبدون عشتر على أنه إله ذكر ويرمزون به لنجم الزهراء . أما الإلهة ذات حميم فهى إحدى مظاهر الشمس وكانوا يعبدونها ولم تكن عبادة عشتر قاصرة على السبأيين بل كانت منتشرة أيضا بين المعينين والقتبانيين .

(٢) هنالك آراء كثيرة عن تفسير معنى الموقاه ولكن الرأى الأرجح هو التفسير الذى قدمه العالم اللغوى جام فى بحثه :

A. Jamme, *Le Pantheon Süd - Arabe Préislamique" Le Museon, T. LX, p.* 26.

نقش النصر :

وأهم نقوش صرواح هو دون شك ذلك النقش الذى يغطى وجهى جدار مشيد من المرمر قائم فى بهو المعبد ، ويعد من أهم مصادر التاريخ اليمنى القديم ، وذلك منذ أن رآه أرنو ، وحصل جلازر على طبعات على الورق من نقوشه . وقد ترجم هذا النقش ودرس مرات عديدة ، ومن الأسف أن كثيراً من الأجزاء التى كانت سليمة فى أيام جلازر ، أى قبل زيارتى بستين سنة ، قد أصابها التلف الآن، ويعلم الله ماذا حدث لهذا النقش بعد زيارتى فى عام ١٩٤٧ ، لأن أحد جانبيه داخل حظيرة للدواشى ، والجانب الآخر فى وسط المكان ومعرض لعبث الناس .

وأهم دراسة عن هذا النقش هى دراسة رودوكاناكيس التى نشرها منذ وقت بعيد[1] ، وصاحب هذا النقش هو « كريب - إيل - وتار » الذى خلف « يثع - أمر - بين » بانى الجزء الجنوبى من سد مأرب عندما كان مكربا لسبأ ، والذى قام بفتوحات كثيرة فى البلاد المجاورة . يذكر « كريب - إيل - وتار » ما قام بعمله لأجل مدينته وآلهتها ، ويشير إلى مشروعات الرى المختلفة ، ويذكر أسماء خزانات المياه والجسور والقنوات التى أمر بإنشائها ، ويطيل فى ذكر البلاد التى فتحها ودمرها ، ويذكر أنه فى حربه ضد أوزان قتل ١٦,٠٠٠ من أعدائه وأسر ٤٠,٠٠٠ ، ويقول إنه استمر فى فتوحه حتى وصل إلى البحر ودانت أوزان وملكها « مارتو » لسلطانه .

---

(١) Nikolaus Rhodokanakis, *Altsabaische Texte, I, p.* 19 *ff.*

وقد عنى بدراسة المدن المختلفة التى وردت فى ذلك النص كل من هومل Hommel وجلازر Glaser ثم جروهمان Grohmann فى بحثه *Historische Geographische Bemerkungen Zu Gl.* 418/419, 1000 *A. B. in Altsabaische Texte, I. pp.* 110-144.

وأحدث دراسة عن جغرافية بلاد اليمن فى العصور القديمة هو البحث الذى نشره ويسمان وماريا هفنر وظهر فى عام ١٩٥٢ .

Hermann von Vissmann - Maria Höfner, *Beitrage zur historischen Geographie des vorislamischen Südarabien (Abh. d. Sozial. Klasse,* 1952)

وكان السبب فى ذلك الحرب أن قتبان وحضرموت كانتا حليفتين لسبأ ، فتقدم ملك أوزان فاستولى عليهما . فرأى «كريب - إيل - وتار» نفسه مضطراً لمناصرة حلفائه . وبعد أن تم له إخضاع الجنوب ، اتجه ببصره نحو مدن المعينيين فأخضعها واحدة بعد أخرى ، وقبل ملوكها دفع الجزية له ، وأن يكونوا من تابعيه ، وتحققت النبوءة القديمة التى تنص على أن مدينة ناشان (خريبة السودا) سيحتلها السبأيون ، وأنه سيقوم فيها معبد للإله الموقاه . ويشير فى آخر هذا النقش إلى حملته على نجران . وعلى الوجه الآخر للجدار بيان بأعمال التحصينات التى قام بها هذا الملك لجعل مدن مملكته قوية منيعة ، ويذكر ممتلكات الملوك الذين دانوا لطاعته ، كما يذكر أيضاً خزانات المياه التى أصلحها أو شيدها وحدائق النخيل التى غرسها .

وإذا أحصينا عدد القتلى الذين ذكرهم «كريب - إيل - وتار» نجدهم يزيدون على ٣٠,٠٠٠ شخصاً من أعدائه ، وهذا غير من قتلوا من رجاله ، كما نرى أيضاً أن عدد الأسرى الذين استخدمهم بعد ذلك فى تشييد مبانيه أو فى زرع الأراضى المملوكة له أو المعابد لا يقل عن ٧٣,٠٠٠ ، ولم يهتم هذا الملك بذكر ما استولى عليه من الحيوانات ، اللهم إلا مرتين إذ أخـــذ عند استيلائه على مدينة معين ١٥٠,٠٠٠ رأساً من الماشية واستولى من نجران على ٢٠٠,٠٠٠ رأساً .

كانت حروب هذا الملك فاتحة عهد جديد فى تاريخ اليمن القديم ، وأصبح مكرب سبأ . الذى كانت عاصمته فى صرواح ، ملكا على اليمن بأكملها بما فى ذلك حضرموت ونجران ، وما يسمى الآن بالمحميات ، واستمر ذلك الملك الواسع الكبير لسبأ مدى قرون عديدة .

ومن سخرية الزمن أن هذا النقش الهام الذى اتفق العلماء على تسميته بنقش النصر يستخدمه أبناء اليمن الحاليون كجدار لزريبة مواشى تلطخه الأوساخ من ناحية ، ويحطمه الأطفال من ناحية أخرى .

وعلى أحد الأعمدة التى كانت أمام المدخل القديم للمعبد نفسه ، نرى نقشاً هاما آخر لملك يدعى «يكرب - ملك - وتار» بن «يدع - إيل - بين» الذى عاش

فى القرن السادس قبل الميلاد ، وترك عليه مرسوماً بتنظيم البلاد والضرائب ، وتحدث فيه عن طبقات السكان فى بلاد سبأ فى ذلك العهد البعيد[1] .

ومن بين النقوش التى عثرت عليها فى صرواح ذلك النقش الذى على مدخل المعبد المسمى دار بلقيس ، وهو يذكر اسمى ملكين هما « نشا كريب يهعمين يهر حب » و « يازيل - بين » اللذين حكما فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد ، يذكران فيه ما منحاه من حقوق ، وما قاما بعمله لبعض القبائل والعائلات :

ومن بين النقوش التى اكتشفتها أيضا ذلك النقش الذى يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد أقامه الملك « نشا كريب يهعمين » من أكثر الملوك السبأيين نشاطا فى إقامة المبانى ، ويسجل فى هذا النقش تقديمه لستة تماثيل من الذهب للإله الموقاه « سيد وعول صرواح » .

آثار مدينة مأرب

مدينة مأرب :

فى سهل متسع فسيح ، تقوم بلدة مأرب الحالية فوق جزء مرتفع من كوم أثرى كبير هو خرائب المدينة القديمة ذات الشهرة الذائعة فى التاريخ . وأينما سار الإنسان فى تلك الخرائب يرى أحجاراً عليها كتابات ، ويرى بقايا التماثيل ، وجدرانا قائمة مشيدة بالحجر ، ولكن أهم من هذا وذاك ، فإنه كثيرا ما يمر بأعمدة قائمة فى أماكنها ، غطت الأتربة أكثرها ، ولم يبق ظاهراً منها إلا أجزاؤها

---

(١) كتب رودوكاناكيس بحثاً قيما عن الحياة العامة فى ممالك بلاد العرب الجنوبية اعتمد فيه على هذا النقش وعلى نقوش أخرى مماثلة له وذلك فى كتاب نيلسن عن آثار بلاد العرب فى العصور القديمة .

N. Rhodokanakis, "*Das offentlische Leben iu den alten Sudarabischen Stäaten*".

وقد ظهرت الترجمة العربية لهذا الكتاب فى عام ١٩٥٨ (ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على) بعنوان « التاريخ العربى القديم » والفصل الخاص بالحياة العامة من ص ١١٣ — ١٤٩

العليا . وكثيراً ما وقفت فى عام ١٩٤٧ إلى جوار تلك الأعمدة المتناثرة ، أعجب بهندستها ، وأقارن بينها وبين غيرها من أعمدة الحضارات القديمة الأخرى ، وكثيراً ما أمسكت بيدى فى السنوات التالية بعض الصور الفوتوغرافية لتلك الخرائب والأعمدة ، وأخذ الفكر يسبح بى بعيداً ، أحاول أن أصور لنفسى ما عساه أن يكون تحت تلك الأتربة من حجرات ، وما على جدرانها من زخارف أو نقوش ، إن كان هناك شيء من ذلك ، وما عساه أن يكون فى تلك الحجرات والأبهاء من تماثيل أو غيرها .

يتجول الزائر فى خرائب المدينة القديمة ، ويستطيع أن يرى مكان السوق القديم ، ويستطيع أيضاً أن يفحص صف الأعمدة الجرانيتية المربعة التى سدوا ما بينها وجعلوا منها جداراً فى المسجد المعروف باسم مسجد سليمان ، كما يستطيع الزائر أيضاً أن يسير إلى جانب أسوار المدينة القديمة التى كانت مشيدة من الحجر . وقد قام أرنو بعمل رسم تخطيطى للمدينة القديمة[1] ، وذكر أنها مستديرة وأن بها ثمانية أبواب ، فباب العقير فى السور الغربى ، وباب الحد فى الجهة نفسها ، ولكنه على مقربة من الركن الجنوبى الغربى . وفى السور الشمالى يوجد باب النصر وباب الكار ، كما يذكر أيضاً باب المحرم وباب الدرب وباب القبلة وباب الجنة . ولكن السيول جرفت جزءاً كبيراً من الخرائب ، وجرفت معها جزءاً كبيراً من الجدارين الجنوبى والشرقى . ولكن وصف أرنو يحتاج إلى شيء من التعديل ، فليست مدينة مأرب القديمة مدينة دائرية كما رسمها ، بل هى مدينة مستطيلة (تقريباً ٧٠٠ متر من الشمال إلى الجنوب و ١٥٠٠ من الشرق إلى الغرب) وأركانها مستديرة . وربما لم يكن فى أسوارها إلا أربعة أبواب فقط ، بوابة فى وسط كل سور . ولكن هناك أماكن كثيرة مكسورة فى الجدران ، اعتبرها أرنو أبواباً وسماها بالأسماء التى كان يطلقها عليها الأهالى فى أيامه . أما الباب الرئيسى للمدينة ، فإنى أعتقد أنه كان فى السور الغربى ، وهو الذى يسمى الآن باب المدينة ، وما زالت بقاياه موجودة ، وعلى كل من جانبيه آثار برج من الحجر . وفى السور البحرى

(١) *Journal Asiatique, série VII, Vol. III* (1874) *p.* 11.

باب آخر ، وهو الذى يستخدمه أهالى مأرب عند الخروج لدفن موتاهم فى الجبانة الواقعة فى الناحية البحرية من الخرائب ، ولهذا سموه باسمها أى باب الجنة .

وبالرغم مما حل بهذه الآثار من تخريب كبير منذ عام ١٩٤٥ ، وهدم معابدها ومنازلها لأخذ أحجارها ، فما زال الكثير منها باقياً . ولكن من المحزن أن المبنى المعروف باسم الميدان كان من بين المبانى التى خربها عامل مأرب ، وهو المبنى الذى اعتقد جلازر أنه مكان قصر سلحين الذى تردد ذكره وأوصافه فى الجزء الثامن من الإكليل لأبى الحسن الهمدانى . وقد خرج من هذا المبنى كثير من الآثار ، وسرق ما سرق منها ، وضاع ما ضاع ، ولم يبق إلا بعض أحجار كبيرة عليها كتابات مختلفة توضح لنا ما قام بعمله بعض الملوك وما أغدقوه على المعابد وعلى آلهتها من هبات ، وما قاموا بعمله من قنوات وسدود وغيرها .

ولم نعرف من النقوش التى تم الكشف عنها حتى الآن فى مدينة مأرب اسم الملك الذى أسسها . ومن المحتمل جداً أن تكون بعض أجزاء السور الحالى هى من السور القديم الذى بناه « مكربو سبأ » القدماء . ونعرف من نقوش كثيرة أن أحد أولئك المكربين وهو ابن « سمهو على ينوف » بنى حائطاً حول مأرب وذلك بناء على أمر ومعونة الإله عشتر[1] ، ونعرف أيضا من النقش الشهير باسم جلازر ٤١٨/٤١٩ أن « كريب - إيل - وتار » (القرن السابع قبل الميلاد) أضاف بعض الأجزاء على سور مأرب وأنه بنى بوابتين وبعض الأبراج[2] .

---

(١) نقوش جلازر أرقام ٤١٢ ، ٤١٤ ٤٢٧ ، ٤٤٥ ، ٥٠٠ ، ٥١٠ ، ٥٣٧ ، ٥٨٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٧٥١ .

(٢) مازال ملقى فى الخرائب ، غير بعيد من استراحة الحكومة وقد حاولوا أخيراً قطعه إلى أجزاء صغيرة ، وهو من حجر المرمر ويبلغ طوله ٢٤٧ سم وارتفاع الناحية المكتوبة ١٥ سم وعرض الحجر ٤٤ وعليه ذكر حروب الملك كريب - ايل - وتار — انظر صورة هذا الحجر الفوتوغرافية فى كتابى .

An Archaeological Journey to Yemen, Vol. III, *pl. XLIV, A*

أما نقوشه فقد سبق أن نشرها جلازر وهى منشورة أيضاً من نسخى الخاصة فى كتابى المذكور الجزء الأول ص — ٩٧ . والترجمة الكاملة لهذا النص فى كتاب :

Rhodokanakis, *Oltsabaïsche Téxte I, p. 6 ff.*

وإذا كنا مازلنا نجهل حتى الآن اسم أول من بنى تلك المدينة ، فإن المعقول جداً أنها كانت مدينة مستقلة قائمة بنفسها ، ولها أهميتها ولها حاكمها قبل أن يستولى عليها حكام صرواح ويجعلوا منها عاصمة لملكهم . ويقول نسابو العرب أن « سبأ » بن « يشجب » هو الذى شيد مدينة مأرب ، وقد ردد ذلك كل من ياقوت فى كتابه المسمى المشترك ، وأبو الفدا فى تاريخه ، وقد جمع ذلك كريمر فى كتابه عن القصص اليمنى :

Kremer, Uber die Sudarabische Sage, p. 26, ff.

ويزيد على ذلك صاحب كتاب الإكليل فيذكر أنه كان بمأرب ثلاث قصور وهى « سلحين والهجر والقشيب » ، وأهم تلك القصور الحصينة وأشهرها هو قصر سلحين الذى تردد اسمه كثيراً فى كتب الأدب العربى على أنه قصر الملكة بلقيس ، وكثيراً ما أشاروا إلى أعمدته القائمة ، وقالوا بأنها هى التى كانت تحمل العرش ، بل وذكروا أيضاً أن ارتفاع تلك الأعمدة التى ما زالت قائمة فى مأرب هى تسعة وعشرون ذراعاً ، وأن قواعدها تحت الأرض مثل ارتفاعها فوقها

Sprenger, Post and Reiserouten, p. 10; Encyclopaedia of Islam, III, p. 282.

ولكن من الصعب تحديد مكان قصر بلقيس اعتماداً على أقوال الشعراء ، أو ما جاء فى مبالغات كتاب العرب . فأهل اليمن يطلقون اسم بلقيس على كثير من المعابد فى صرواح ، كما رأينا ، ويطلقون اسم بلقيس أيضاً على معبد يبعد عن خرائب مدينة مأرب وهو المعبد الشهير المعروف باسم محرم بلقيس ، بل أن اسم بلقيس كان يطلق أيضاً على آثار أخرى بعيدة عن منطقة أرض سبأ مثل ما جاء فى معجم ياقوت من أن عرش بلقيس اسم لمكان على مسيرة يوم من ذمار حيث تقوم فيه ستة أعمدة من الرخام . ومن المرجح أن ذلك يشير إلى أحد المعابد التى كانت فى مدينة ظفار عاصمة الحميريين ، وهى من أهم مناطق اليمن الأثرية ، وكثيراً ما يعثر أهل مأرب على آثار صغيرة فى الخرائب ، وبخاصة عند ما يخرجون بعد سقوط الأمطار أو مرور السيول ، وهم يبيعون تلك الأشياء فى صنعاء ومن بينها كثير من أنواع الخرز المختلفة ، وقطع من المعدن ، والكثير من التمائم ، وعلى بعضها كتابات أو رسوم قديمة .

ولا تقتصر الآثار على تلك الأشياء صغيرة الحجم ، بل يجدون كثيراً من رؤوس التماثيل ، وبعضها بالحجم الطبيعي ، والبعض الآخر أكبر أو أصغر قليلا (يتراوح ارتفاعها بين ١٥ ، ٣٥ سم) ، وهي تقتصر على الرأس والرقبة ، وكانت توضع غالباً في ناووس صغير قائم . وعثر في تلك الخرائب أيضاً على تماثيل من البرونز وعلى بعض اللوحات المزخرفة المنقوشة ، كما عثر في بعض أجزاء المنطقة ، والأرجح أنها من خارج السور ، على بعض توابيت حجرية ، رأى جلازر واحداً منها كان الأهالي يستخدمونه عند بير عبيدة لتستقي منه الحيوانات[1] ، وقد رأيت أجزاء من توابيت أخرى في أماكن مختلفة ، كما رأيت تابوتاً حجرياً إلى جانب البئر الكبير في صرواح [2] ، وهذا يثبت استخدام قدماء السبأيين لتوابيت الحجر في دفن موتاهم . وربما لم يكن خارجاً عن الموضوع إذا تساءلنا عما إذا كان يوجد تأثير من أحد الفنون القديمة على الفن السبأى القديم . والجواب على ذلك يحتاج إلى كثير من البحث والمناقشة . ولكن يكفي القول بأن هناك تأثيرات لا شك فيها من حضارة بلاد الرافدين ، وبخاصة الفن الأشوري في العصور المبكرة ، وبالفن السوري والهلينستي في العصور المتأخرة ، كما أن هناك تأثيرات واضحة من الفن المصري ، وبخاصة في التماثيل وزخارف بعض النصب ، ويرجع ذلك دون شك إلى ما كان هناك من صلات بين اليمن وبين تلك الحضارات .

وكثيراً ما يتساءل البعض عن مكان الجبانات القديمة لملوك سبأ ، والأغنياء من رعاياهم ، وعلينا أن ننتظر حتى تحفر تلك المناطق التي لم يكد يمسها أحد . وإني أقول فقط : إنه على مقربة من سد مأرب ، أي على مسافة تقرب من خمسة كيلو مترات أو ستة من أسوار المدينة قطعت السيول جانبا من الأرض فكشفت عن بعض المقابر ، ويقول الأهالي إنهم كانوا يجدون فيها الموتى ، وكلهم من التجار ومعهم بضائعهم ، ولهذا أطلقوا عليها اسم قبور البياعين .

---

(١) Rhodokanakis, *Eduard Glasers Reise nach Marib*, p. 74

(٢) Ahmed Fakhry, *An archaeological Journey to Yemen*, I, p. 51.

وتكشف لنا هذه التسمية عما آلت إليه المنطقة من فقر وتدهور ، إذ لم يستطع الأهالى الفقراء أن يتصوروا أن شخصا عاديا يمكن أن يدفن ومعه تلك الأشياء المختلفة الأنواع التى يمتلكها ، ولهذا ظنوا أن كل واحد منهم كان تاجراً ، وأن هذه الأشياء كانت سلعاً تجارية .

ولم يتصل بى أحد من الأهالى فى مأرب ليعرض بيع أى نوع من الآثار ، ولكن تجاراً متجولين كثيرين يمرون دائما على الأجانب فى صنعاء ويعرضون عليهم كثيراً من القطع الأثرية الصغيرة الحجم . ومن الغريب أن بعض أهالى صنعاء ، وبخاصة من صناع عائلة حبشوش، أخذوا يقلدون الآثار اليمنيةويبيعونها منذ أكثر من سبعين سنة . ولم أشتر فى صنعاء أى آثار حقيقية أو مقلدة ، اللهم إلا بضع تمائم صغيرة بعضها يمنى قديم وبعضها مصرى الأصل ، ومن بينها آثار مصرية من تقليد الفينيقيين ، وأقدمها تاريخا جعران باسم الملك أمنحوتب الثالث ، وهو لا يدل ، كما ذكرت ذلك عند حديثى عن اليمن وصلاتها بالحضارات القديمة ، على شيء أكثر من وجود الصلة التجارية بين البلدين فى ذلك العهد البعيد ، وهو أمر مسلم به .

محرم بلقيس والمناطق الأثرية الأخرى :

كان سد مأرب يروى ذلك السهل الفسيح وما كان فيه من حدائق وحقول، وكانت هناك قناتان كبيرتان تخرجان من السد ، إحداهما فى الناحية الشمالية والأخرى فى الناحية الجنوبية (انظر رسم السد ووصفه) ، وكانت مدينة مأرب التى وصفناها، وما حولها من حدائق ، وهى أهم المناطق وأعظمها هى المقصودة بالجنة التى كانت على اليسار . ونرى فى السهل الفسيح الذى يقع بينها وبين السد آثار القنوات التى تتفرع فى كل اتجاه ، وأثر القناطر التى كانت عليها . أما الجنة الأخرى التى كانت على يمين الواقف أمام السد فكانت تروى منطقة أخرى كبيرة قامت فيها عدة قرى وفى بعضها آثار هامة . وأكثر تلك المدن قد غطته الرمال أو غطت جزءاً

كبيراً منه ، ونراها كلها فى الناحية الجنوبية من وادى ذنة ، وهى السايلة التى ما زالت تجرى فيها مياه السيول حتى الآن ، وتمر تحت مدينة مأرب فى الناحية الجنوبية. ويمكننا أن نذكر من بين تلك الخرائب الحزمة وحصن الناصر ، وجشوه ، والمكراب ، والمنين ، ومروث ، ومدينة النحاس والرجيات ، والعمايد ، وكثيراً غيرها [1] . وعلى مقربة من مدينة مأرب ، توجد بقايا فتحة لتنظيم تصريف المياه التى كانت تسير فى القناة اليمنى ، وما زالت بقايا جداريها المشيدين بالحجر ترى حتى الآن فى الجهة الجنوبية من المدينة ، وهى أمام الباب الرئيسى فى السور الذى كان يواجه « معبد أوام » أو محرم بلقيس . وعلى الجدار الشمالى من ذلك الأثر نقش [2] مكتوب فيه أن مكرب سبأ « ذمار على وتار » بن « كريب - إيل » الذى عاش فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد هو الذى بنى هذه الفتحة، وأنه بناها أمام هيكل الإله عشتر . ويذكر جلازر أنه رأى بقايا آثار مبنى على بعد يقرب من ثلاثمائة خطوة شمال غربى تلك الفتحة ، ويظن أنها بقايا ذلك الهيكل الذى أشار إليه النص .

وأهم منطقة أثرية ظاهرة فى تلك المنطقة هى دون شك ، ذلك المعبد الهام المعروف باسم محرم بلقيس ، ويليه فى الأهمية المنطقة المعروفة باسم العمايد التى تبعد نحو ١٤٠٠ متراً عن محرم بلقيس فى الاتجاه الشمالى الغربى [3]

---

(١) لا يقل عددها عن سبعة عشر ولكن أهمها هى المنين ومروث ومدينة النحاس .

(٢) هو النقش المعروف تحت رقم ١ - ٤٤ — أنظر ما كتبه عنه جاك ريكمانز .
J. Ryckmans, *Les Institutions Monarchiques* (1951) p. 62-63.

(٣) ذكرت بعض الصحف المصرية أن آثار مأرب أصابها شىء كثير من الدمار أثناء المعارك التى دارت فى المنطقة بين أواخر سبتمبر والنصف الأول من أكتوبر ١٩٦٢ عندما اتخذ المناهضون لحكومة الثورة اليمنية هذه المعابد حصوناً تحميهم ونرجو كل محب لليمن أن تكون هذه الأخبار غير صحيحة أو أن يكون ذلك التلف بسيطا فإن آثار اليمن عزيزة على كل عربى وهى إرث ثقافى مشترك للعرب جميعا بل والإنسانية جمعاء .

العمايد :

نرى فى ذلك المكان خمس أعمدة قائمة ، ويبلغ ارتفاع كل منها فوق الأرض خمسة أمتار ونصف ، وتحيط بها الخرائب من كل ناحية . ومقاييس كل عمود ٨٢×٦٣ سم . وقد رأى أرنو حجراً مكتوباً فى العمايد ، ونعرف منه أن اسم ذلك المعبد هو « باران » ، وأنه كان مشيداً للإله الموقاه ، وعند زيارتى لهذا المكان عام ١٩٤٧ رأيت بعض الأحجار المكتوبة التى ظهرت نتيجة للحفائر التى يقوم بها الأهالى للبحث عن الآثار ، وأحدها يسجل تقديم أرض للإله « الموقاه » من شخصين ، والحجر الآخر يسجل تقديم شخص يسمى « ذمار على » إلى الإله الموقاه ليكون ملكا للمعبد من شخص آخر يسمى « إيل أمر » . والأعمدة القائمة ، وما ظهر حولها من نقوش ، لا تساعدنا على تحديد عصر ذلك المعبد بوجه عام ، أو تذكر فى عهد أى ملك من الملوك قد تم تشييده ، وعلينا أن ننتظر حتى تجرى الحفائر هناك .

محرم بلقيس :

ومحرم بلقيس أهم معابد مأرب وأشهرها ، ويقع على بعد نحو ٤ كيلو مترات جنوب شرقى مأرب الحالية . وقد زار هذا المعبد كل من أرنو وجلازر والعظم ، ونقل الأولان ما على السطح الخارجى لسوره من كتابات ، وقد فعلت ذلك أيضاً ، وأخذت بعض مقاييسه ، وأخذت صوراً فوتوغرافية كثيرة له فى عام ١٩٤٧ . وقامت بعثة المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان بالحفر فى هذه المنطقة بالذات ، وحصرت عملها بين الأعمدة الثمانية التى أمامه ، وبين مدخله ووجدت فى هذا الجزء بقايا معمارية هامة ، كما وجدت نقوشاً كثيرة وغير ذلك .

وقبل أن أصف المعبد وأتحدث عن شيده أحب أن أقف قليلا لتفسير معنى كلمتى محرم بلقيس . فأما عن كلمة محرم فأمرها سهل ، إذ أنها تعنى المكان المقدس للإله ، وبعبارة أخرى المعبد . أما بلقيس فأمرها أكثر تعقيداً .

فقد ذكر ابن خلدون (عاش بين أعوام ١٣٣٢ — ١٤٠٦) فى تاريخه مختصراً لأنساب الملوك الذين عاشوا فى جزيرة العرب ، ويقتبس عن العصر الجاهلى كثيراً مما قاله من سبقوه مثل المسعودى وابن سعيد والطبرى والسهيلى وابن حزم وابن الكلبى وغيرهم . ويقول ابن خلدون : إن ملكة سبأ التى زارت سيدنا سليمان اسمها « بلقمه » أو « بلقيس » وإنها كانت قد حكمت قومها سبع سنوات قبل زيارتها سليمان ، وأربعة وعشرين سنة بعد عودتها من تلك الزيارة ، وأن بلقمه كانت السادسة فى ترتيب من حكموا مملكة سبأ .

وفى بعض المؤلفات العربية الأخرى مثل العقد الفريد لابن عبد ربه ، ومرآة الزمان لابن الجوزى[1] فإن اسم تلك الملكة هو بلقمه . أما الروايات الإثيوبية فتقول أن أول ملوك إثيوبيا كان ابنا لبطلة الشمس بلقيس أو « ماكده » ، وبطل القمر سليمان الحكيم[2] .

وربما كان أحد الاسمين « بلقمه » نتيجة خطأ فى النقل عن الآخر ، ويرجح علماء الساميات أن « بلقمه » هو الأرجح ، وربما كان اسم الإله « الموقاه » يدخل فى تركيبه ، أما اسم بلقيس الذى تكرر ذكره فى كتب المفسرين المسلمين فلم يرد على الإطلاق بين الأسماء السبأية المعروفة وهناك احتمال بأن الاسم منقول عن العبرية التى نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه أمة أو جارية[3] . ومحرم بلقيس يكاد يكون بيضاوى الشكل ولكنه منبعج قليلا ، وأمام مدخله الرئيسى فى الناحية الشمالية البحرية بهو ذو أعمدة على جوانبه ، وعلى بعد عشرة أمتار من المدخل تقوم ثمانية أعمدة كبيرة فى صف واحد ، وذلك عدا الأعمدة الصغيرة الأخرى التى كشف عنها ، هى وما حولها ، فى عام ١٩٥٢ .

---

(١) *Journal Asiatique, Vol. VI, p.* 226. *ff.* 234 *ff.*

حيث ناقش فرزنل وموللر هذه المراجع العربية .

(٢) Nielsen, *Handbuch, p.* 234

(٣) أنظر تعليق نبيه أمين فارس فى ص ٢٤ (الهامش ١٢) الجزء الثامن من الإكليل للهمدانى ، طبعة برنستون ١٩٤٠ .

وفى الجهة الشرقية من البناء ، نرى هيكلا صغيراً من الحجر ذا أعمدة أربع ، كان يظن أنه ربما كان جوسقا ليجلس فيه الملك أثناء الاحتفالات الدينية، ولكن المعتقد الآن أنه كان على الأرجح هيكلا مقاماً فوق بعض المقابر فى ذلك المكان .

والسور الخارجى لهذا المعبد مشيد من أحجار منحوتة ، وهى تتفاوت فى أحجامها إذ أنها ٣٤ سم فى الارتفاع ، أما فى الطول فبعضها متوسط الحجم والبعض الآخر يبلغ ١٥٠ سم فى الطول . والإفريز العلوى مزخرف بتلك الزخرفة التى نعرفها من الآثار السبأية الأخرى مثل صرواح ، ونعرفها أيضاً من الآثار الحبشية القديمة .

وللمعبد باب جانبى آخر فى الناحية الغربية وهو مواجه للمدينة القديمة ، وربما كان هناك طريق موصل بين الإثنين . ومن المحتمل أن تكون هناك أبواب جانبية أخرى مغطاة الآن بالرمال التى تملأ داخل المعبد وتغطى أسواره من الخارج ، وربما كان فى داخل السور حجرات أو هياكل ، فإن ما كشفت عنه حفائر البعثة الأمريكية خلال الأسابيع القليلة أمام المدخل حققت كل ما كان يتوقعه علماء الآثار.

وبناء على أقدم النقوش المسطرة على الجدار الخارجى لهذا المعبد ، وهو الذى يدور تحت الإفريز فى الجهة الشرقية ، فإن « يدع - إيل - ذريح » بن « سمهو على » مكرب سبأ ، بنى سور هذا المعبد المسمى معبد «أوام»[1] . وأنه شيده لإله القمر ، الإله « المقه » .

و « يدع - إيل - ذريح » هو ثانى مكرب حكم سبأ ، وعاش فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وهو الذى شيد المعبد الكبير فى صرواح للإله نفسه وشيد معبد المساجد ببلاد مراد على مسيرة ٢٧ كيلو مترا من مأرب .

وفى الناحية الغربية من السور يوجد نقش آخر يسجل أن « إيل - شريح » ابن «سمهو - على - ذريح» ملك سبأ الذى حكم فى القرن السادس قبل الميلاد (حوالى

(١) الترجمة الكاملة لهذه النقوش مع الشرح والتعليق منشورة فى كتاب :
Rhodokanakis, *Studien II, p. 7 ff.*

٥٧٠ ق. م.) و «يثع - أمر - بين» بن «يكرب - ملك - وتار» الذى حكم حوالى عام ٥٢٠ ق .م قد أتما بناء المعبد ، وهناك نقوش أخرى من عصور أحدث لملوك قاموا بأعمال خاصة فى ذلك المعبد أيضاً .

ولكن الأمر الجدير بالذكر هو أن كثيراً من النقوش التى كشفت عنها حفائر البعثة الأمريكية ، ووجدتها قائمة فى أماكنها على مقربة من باب المعبد ، إنما يرجع تاريخها إلى عصور متأخرة ، وبعضها فى القرنين الثالث والرابع ، أى أن هذا المعبد ظل يؤدى وظيفته فى عبادة الإله الموقاه فى مأرب مدة تقرب من ألف سنة .

سـد مأرب :

والآن وقد انتهينا من الإشارة إلى بعض آثار مأرب وعرفنا شيئاً عن معابدها وعن تاريخها القديم ، يجدر بنا أن نتحدث أيضاً عن سد مأرب أشهر آثار اليمن ، وأعظم عمل هندسى قديم فى الجزيرة العربية كلها . قال تعالى فى كتابه الكريم

« لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » سورة سبأ - الآية : (١٥ — ١٨) .

وسيل العرم الذى يشير إليه القرآن الكريم ، والذى كتب عنه المفسرون كثيراً ، وكان سبباً فى خراب المنطقة ، حدث فى وقت ما بين أعوام ٥٤٣ ، ٥٧٠ ميلادية ، أى قبيل مولد النبى عليه الصلاة والسلام . ولكن بالرغم من أن حادث هذا السيل كان قريباً من أيام ظهور الإسلام فإن ما كتبه الشراح والمفسرون ملىء

بالقصص الخيالية سواء أكانت عن سبب تخريب السد وتهدمه ، أو عن ملوك العرب القدماء ونسبهم . ولدينا قصص عدة ، ولكن أحب القصص إلى نفوس الكتاب العرب هي القصة التي تقول بأن الله سبحانه وتعالى عاقب أهل سبأ بأن أرسل عليهم فأرا كبيراً له أنياب ومخالب من حديد أخذ يأكل الأحجار حتى أحدث فيها فجوة نفذت منها المياه فتهدم السد وجرفت مياهه كل ما كان أمامه من مبانى وزراعات .

وهذه هي إحدى تلك القصص كاملة نقلا عن الدميري[1] :

« ذكر بعض المفسرين أن الخلد هو الذي خرب سد مأرب وذلك أن قوم سبأ كانت لهم جنتان أي بستانان عن يمين من يأتيها وشماله ، قال الله تعالى لهم « كلوا من رزق ربكم واشكروا له » أي على ما أنعم به عليكم وكانت بلدتهم طيبة لا يرى فيها بعوض ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ولا ذباب وكان الركب يأتون وفي ثيابهم القمل وغيره ، فاذا وصلوا إلى بلادهم ماتت ، وكان الإنسان يدخل البستان والمكتل على رأسه فيخرج وقد امتلأ من أنواع الفواكه من غير أن يتناول شيئاً منها بيده . فبعث الله لهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله وذكروهم بنعمه عليهم ، وأنذروهم عقابه فأعرضوا ، وقالوا ما نعرف لله علينا من نعمة ، وكان لهم سد بنته بلقيس لما ملكتهم وبنت دونه بركة فيها اثنا عشر مخرجا على عدد أنهارهم فكان الماء يقسم بينهم على ذلك، فلما كان من شأنها مع سليمان عليه الصلاة والسلام ما كان مكثوا مدة بعدها ثم طغوا وبغوا وكفروا ، فسلط الله عليهم جرذاً أعمى يقال له الخلد فنقب السد من أسفله ، فهلكت أشجارهم وخربت أرضهم وكانوا يزعمون في علمهم وكهانتهم أن سدهم ذلك تخربه فأرة ، فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة ، فلما جاء الوقت الذي أراد الله تعالى أقبلت فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرار فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة ، فدخلت في الفرجة التي

---

(١) كتاب حياة الحيوان الكبرى للشيخ كمال الدين الدميري (طبعة صبيح بالقاهرة) الجزء الأول ص — ٤٤٥ تحت اسم « الخلد » .

كانت عندها ونقبت، وحفرت فلما جاء السيل وجد خللا فدخل فيه حتى قلع السد وفاض على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم بالرمل . وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ووهب وغيرهما أنهم قالوا كان ذلك السد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء أوديتهم فأمرت بواديهم فسد بالعرم وهو بلغة حمير، فسدت بين الجبلين بالصخر وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت دونه بركة ضخمة وجعلت فيها إثنى عشر مخرجاً على عدد أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء وإذا استغنوا عنه سدوها ، فإذا جاء المطر اجتمع إليه أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الأعلى ففتح ، فجرى ماؤه في البركة فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الباب الثاني ثم من الباب الثالث الأسفل فلا ينفذ الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة، فكانت تقسمه بينهم على ذلك والله أعلم .

(ونقل) الإمام أبو الفرج بن الجوزي عن الضحاك أن الجرذ الذي خرب سد مأرب كان له مخالب وأنياب من حديد وأن أول من علم بذلك عمرو بن عامر الأزدي، وكان سيدهم، وكان قد رأى في المنام كأنه انبثق عليه الردم، فسال الوادي فأصبح مكروباً فانطلق نحو الردم فرأى الجرذ يحفر بمخاليب من حديد ويقرض بأنياب من حديد ، فانصرف إلى أهله فأخبر امرأته وأراها ذلك ، وأرسل بنيه فنظروا فلما رجعوا قال: هل رأيتم ما رأيت؟ قالوا: نعم، فإن هذا الأمر ليس لنا إلى ذهابه من سبيل ، وقد اضمحلت الحيلة فيه لأن الأمر من الله وقد آذن الله بالهلاك. ثم أنه عمد إلى هرة فأخذوها وأتى إلى الجرذ، فصار الجرذ يحفر ولا يكترث بالهرة فولت الهرهاربة، فقال عمرو لأولاده: احتالوا لأنفسكم. فقالوا: يا أبت كيف نحتال؟ فقال: إني محتال لكم بحيلة. قالوا: افعل. فدعا أصغر بنيه وقال له : إذا جلست في المجلس واجتمع الناس على العادة ، وكان الناس يجتمعون إليه وينتهون برأيه ، فإني آمرك بأمر فتغافل عنه فإذا شتمتك فقم إليّ والطمني ، ثم قال لأولاده : فإذا فعل ذلك فلا تنكروا عليه ولا يتكلم أحد منكم ، فإذا رأى الجلساء فعلكم لم يجسر أحد منهم أن ينكر عليه ولا يتكلم ، فأحلف أنا عند ذلك يميناً لا كفارة لها أن لا أقيم بين أظهر قوم قام إلى أصغر بني فلطمني فلم يغيروا . فقالوا : نفعل ذلك ، فلما جلس واجتمع

الناس إليه أمر ابنه الأصغر ببعض أمره ، فلها عنه ، فشتمه ، فقام إليه ولطم وجهه، فعجب الجماعة من جرأة ابنه عليه وظنوا أن أولاده يغيرون عليه فنكسوا رءوسهم . فلما لم يغير أحد منهم قام الشيخ وقال: أيلطمني ولدي وأنتم سكوت؟ ثم حلف يميناً لا كفارة لها أن يتحول عنهم ، ولا يقيم بين أظهر قوم لم يغيروا عليه. فقام القوم يعتذرون إليه ، وقالوا له : ما كنا نظن أن أولادك لا يغيرون ، فذاك الذي منعنا فقال: قد سبق مني ما ترون وليس إلى غير التحويل من سبيل . ثم أنه عرض ضياعه للبيع ،وكان الناس يتنافسون فيها واحتمل بثقله وعياله وتحول عنهم فلم يلبث القوم إلا يسيراً حتى أتى الجرذ على الردم فاستأصله ، فبينما القوم ذات ليلة بعد ماهدأت العيون إذا هم بالسيل فاحتمل أنعامهم وأموالهم وخرب ديارهم فذلك قوله تعالى — فأرسلنا عليهم سيل العرم — وفي العرم أقوال ، قيل هو المسناة أي السد. قاله قتادة . وقيل هو اسم الوادي،قاله السهيلي. وقيل اسم الخلد الذي خرق السد . وقيل هو السيل الذي لا يطاق. وأما مأرب فبسكون الهمزة اسم لقصر كان لهم ، وقيل هو اسم لكل ملك كان على سبأ , كما أن تبعا اسم لكل من ولى اليمن والشحر وحضرموت ، قاله المسعودي . وقال السهيلي : وكان السد من بناء سبأ ابن يشجب وكان قد ساق إليه سبعين وادياً ، ومات من قبل أن يتمه فأتمته ملوك حمير، واسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، قيل إنه أول من سبى فسمي سبأ ، وقيل إنه أول من تتوج من ملوك اليمن . وقال المسعودي بناه لقمان ابن عاد وجعله فرسخاً في فرسخ وجعل له ثلاثين شعباً ، فأرسل الله عليهم سيل العرم وفرقوا ومزقوا حتى صاروا مثلا. فقالوا: تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ . قال الشعبي لما غرقت قراه تفرقوا في البلاد، فأما غسان فلحقوا بالشام والأزد إلى عمان ومن خذاعة إلى تهامة وجذيمة إلى العراق والأوس والخزرج إلى يثرب ، وكان الذي قدم منهم المدينة عمر بن عامر وهو جد الأوس والخزرج . روى أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك القطيفي قال: قال رجل يارسول الله : أخبرني عن سبأ أكان رجلا أوامرأة أوأرضاً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : كان رجلا من العرب وله عشرة أولاد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تيامنوا فكندة

والأشعريون والأزد ومذحج وأنمار وحمير . فقال الرجل : وما أنمار ؟ قال : منهم خثعم وبجيلة . وأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعامله وغسان » .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن أكثر ما ورد فى تلك القصة عن سبب تخريب السد يغلب عليه الخيال ويعوزه المنطق ، وإذا كان هذا هو شأن بعض كتاب العرب القدماء ، فإن بينهم من امتاز بالدقة والصدق وهاهو مؤلف يمنى وهو الحسن الهمدانى يتحدث عن سد مأرب :

ذكر مأرب . وهى مسكن سبأ الذى قال الله فيه : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » وهى كثيرة العجائب . والجنتان عن يمين السد ويساره ، وهما اليوم غامرتان (والغامر العافى وكذلك السامر فى كتب أصحاب الشروط فى شراء الأرضين بغامرها) وإنما عفتا لما اندحق السد فارتفعتا عن أيدى السيول . قال الحسن الهمدانى وجدت السواقى . فقال بعض من كان معى : لا أظنه إلا من بقايا نخل الجنتين وما أحسب أنه بقى من العصر القديم . وأما مقاسم الماء من مذاخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء أحد الصدفين باقياً وهو الذى يخرج منه الماء قائماً بحاله على أوثق ما كان ولا يتغير إلى أن يشاء الله عز وجل . وإنما وقع الكسر فى العرم ، وقد بقى من العرم شىء مما يصالى الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمس عشرة ذراعا . قال تبارك وتعالى :

« فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل » . قيل الخمط الأراك ، والأثل الطرفاء ، والسدر المعروف العبرج وهو العلب وجمعه علوب والواحدة علبة .

ومن أمثال العرب فى الرجل المنيع الجانب : هو رجل لا يناش عليه ولا يخلف وثله ودومه (وهو الدوم وحمله النبق والكباث) . وبها من الأراك ما ليس ببلد ومن الحمام المطوق فى الأراك ما يجل عن الصفة . وكان السيل يجمع

من أماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن ، وقد ذكرناها مع انكسار السد فى بعض كتبنا . وفيها يقول الأعشى :

ففى ذاك للمؤتسى أسوة	ومأرب قفا عليها العرم
رخام بناه لهم حمير	إذا جاءه ماؤهم لم يرم
فأروى الحروث وأعنابهم	على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك فى غبطة	فجارفهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها	ببهماء فيها سراب يطم

كان خصب أرض سبأ مضرب الأمثال بين العرب ، وكان أهلها ينعمون بخيرات واديهم وينعمون أيضاً بما تدره التجارة من أموال ، إذ كان السبأيون القدماء يتحكمون فى ذلك الدرب التجارى الهام الذى لعب دوراً من أكبر الأدوار فى تاريخ العالم القديم . وكثيراً ما تهدم السد وأعيد ترميمه ولكن آخر تهدم له وهو التهدم الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم كان نكبة على المنطقة كلها ، نكبة أصابتها فى الصميم ولم تفق منها بلاد مأرب ، بل لم تفق منها بلاد اليمن وتتغلب على آثارها حتى اليوم .

والآن وقد ذكرنا أمثلة كافية من أقوال كتاب العرب نبدأ وصف هذا الأثر العظيم .

وصف السد :

تسقط كميات كبيرة من الأمطار فى مناطق كثيرة فى شرقى اليمن وتسير سيولها فى الوديان المختلفة حتى تصل إلى منطقة قريبة من مأرب ، فتدخل هذه السيول متدفقة فى فجوة بين الجبال ، وتعرف هذه المنطقة باسم جبل بلق ، وتسمى الفتحة بين الجبلين باسم الضيقة ولكل من جهتيها اسم ، فيقال بلق الأيمن وبلق الأيسر ، كما يعرف الوادى الذى تسير فيه تلك السيول باسم وادى ذنة .

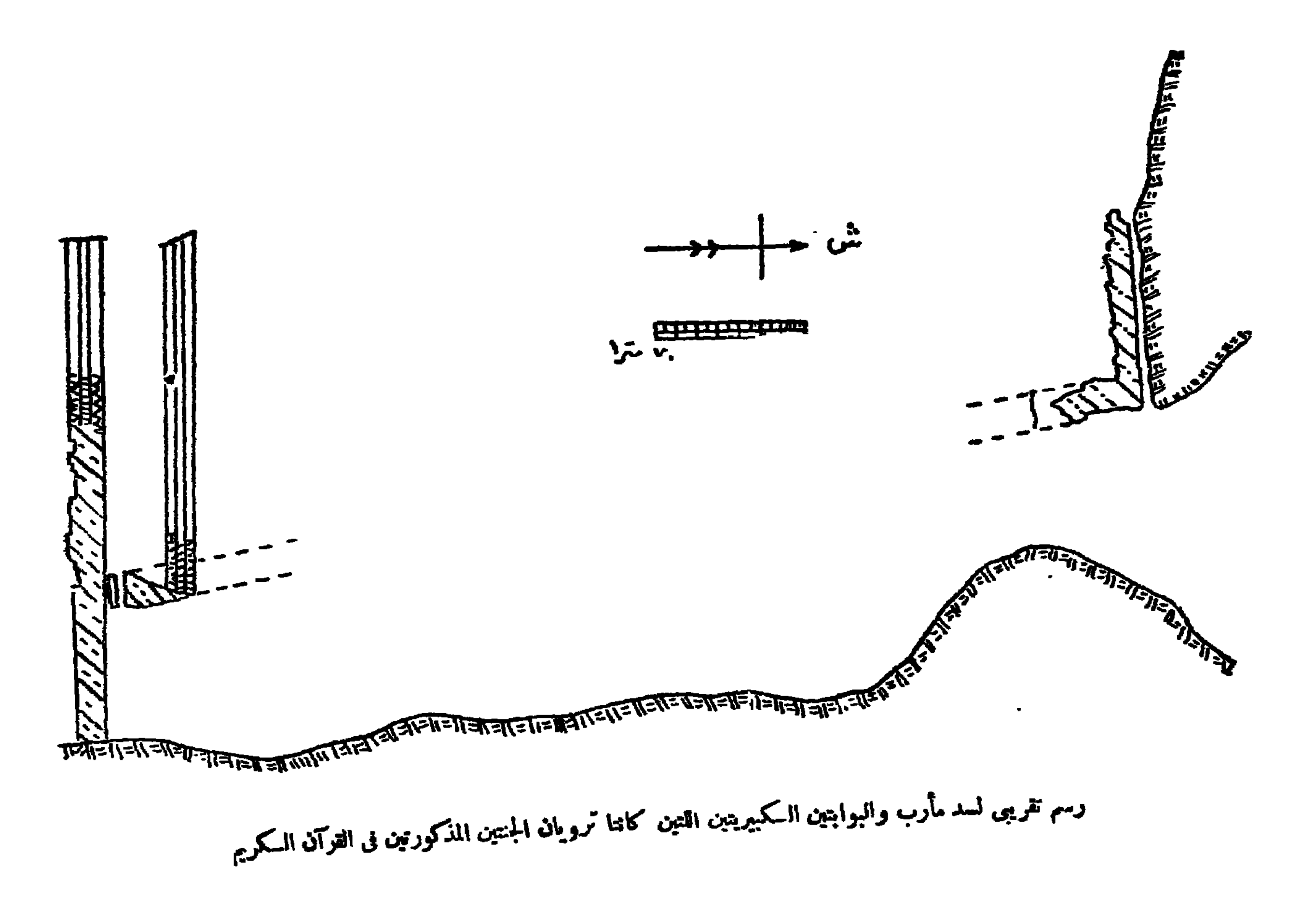
ويرتفع جبل بلق فى تلك المنطقة — وهو جبل ذو صخور بركانية — إلى علو ٣٠٠ مترا تقريباً ، ويبلغ متوسط اتساع « الضيقة » ٢٣٠ متراً ولكنها تتسع فى الوسط فيصبح اتساعها ٥٠٠ متراً ، ثم تضيق بعد ذلك فلا تزيد عن ١٩٠ متراً تقريباً ، ثم تستمر الناحية الشمالية (أى التى على يمين الشخص المواجه للسد) فى امتدادها بينما تنفرج الناحية الأخرى . وقد اختار السبأيون القدماء هذا المكان لتشييد السد فبنوا جداراً قوياً يعترض الوادى ويوقف مياه السيول المتدفقة ، وجعلوا فى الناحيتين فتحتين إحداهما إلى أقصى اليمين ، واستغلوا ذلك الجبل المرتفع فى هذا الغرض فلم يبنوا إلا جداراً ضخماً واحداً ليكون صدفا ثانيا للبوابة . أما البوابة التى فى الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهى أكبر وأعظم وتنقسم إلى قسمين ، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران مسافة غير قليلة ، ثم ينتهيان بحوض كبير مبنى بالحجر نرى فى جهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لرى ناحية من نواحى الوادى الفسيح .

وكان هذا السد مقاماً لغرضين : أولها السيطرة على مياه السيول المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها إذا جاءت فجأة بكثرة غير عادية ، وثانيهما تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد وعدم صرف شىء منها إلا بالمقدار اللازم ، وبذلك يضمنون رى وادى مأرب الذى يرتفع عن مستوى السايلة بخمسة أمتار ، ويأمنون توفر كميات المياه اللازمة للرى حتى يحين موعد مجىء سيول أخرى من المناطق الممطرة فى شرق اليمن لأن منطقة مأرب من المناطق الجافة قليلة الأمطار . ولا يزرع أهلها اليوم ، أى بعد تخريب السد ، إلا مساحات ضئيلة على مقربة من مجرى المياه فى وادى ذنة . وتضيع أكثر مياه السيول هباء فى الوقت الحالى ولا يمكن استخدامها فى زراعة أراضى الوادى المرتفعة .

البوابة اليمنى :

يطلق الأهالى على هذه البوابة اسم مربط الدم[1] وكانت تروى الناحية اليمنى

(١) الدم هو القط ومربط الدم إشارة إلى إحدى القصص عن سبب تهدم السد إذ عرفوا من السحرة أن تخريب السد سيكون بسبب فأر يأكل حجارته فى ذلك المكان فربطوا قطا ليحولوا دون ذلك .



رسم تقريبي لسد مأرب والبوابتين الكبيرتين اللتين كانتا ترويان الجنتين المذكورتين في القرآن الكريم

التي ما زالت بقايا كثيرة من قراها ظاهرة حتى اليوم ، وكلها على يمين وادى ذنة ، وربما كان ذلك الاسم فى حد ذاته ما يثبت أن تهدم السد قد حدث فى هذه الناحية القريبة من مدخل الضيقة .

ونرى من الرسم المنشور هنا أن أحد جانبي هذه الفتحة هو صخر الجبل . أما الناحية الأخرى فشيدة من الحجر ، ونرى فى صدغى تلك الفتحة المكان الذى كانوا يزلقون فيه كتل الأخشاب لتصريف الكميات اللازمة من المياه التى تسير بعد ذلك بين الجبل والجدار إلى أن تنكسر قوة اندفاع المياه وتسير بعد ذلك فى قناة عادية . وإذا نظرنا إلى الرسم التقريبي فإننا نرى بروزاً مثلثاً فى ذلك الجدار الحجرى ، وقد كان هذا البروز داخلا فى جدار السد الكبير وهو الجدار الذى تهدم وسبب ذلك الخراب .

وعلى الجدار الصخرى لهذه الفتحة عدة نقوش أهمها اثنان نعرف منهما أن اسم السد هو « رحب » وأن بانيه هو « سمهو على ينوف » بن « ذمار على » مكرب سبأ وأنه بنى ذلك السد لأجل تسهيل الرى . وفى نص آخر نقرأ أن ابن هذا الحاكم وكان يسمى « يثع - أمر - بين » بن « سمهو على ينوف » قد قام أيضاً بعمل فتحة فى جبل بلق من أجل الرى .

ونعرف أن كلا من « سمهو على ينوف » وابنه « يثع - أمر - بين » قد عاشا فى القرن السابع قبل الميلاد ، ونعرف أيضاً أن ثانيهما قد بنى السد المسمى « هباذ » وهو أكبر من سد « رحب » ، وهو على الأرجح البوابة الأخرى التى على اليسار .

وما من شك فى أن السد قد تهدم مرات كثيرة خلال الفترة الكبيرة التى مضت بين تشييده فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد (حوالى عام ٦٥٠ ق . م .) وبين آخر مرة أصلح فيها فى عام ٥٤٢ ميلادية فى عهد الملك أبرهة الحبشى ، أى خلال ما يقرب من ألف ومائتى سنة ، ولهذا فليس فى استطاعتنا ، على أساس معلوماتنا الحالية ، أن نؤكد أن تلك المبانى القائمة عند الفتحتين يرجع تاريخها إلى عهدى

هذين الملكين، أى أنهما يقومان فى مكانهما منذ أكثر من ٢٦٠٠ سنة . ولكن إذا قارنا مبانيهما بمبانى معبد صرواح ومعبد محرم بلقيس ، وكلاهما من هذا العهد ، ووضعنا فى ذهننا أن تهدم ذلك السد يحدث من تصدع جداره الكبير الذى كان بين البوابتين ، نرى أنفسنا ميالين إلى الأخذ بالرأى القائل بأن مبانى البوابتين القائمتين هما من ذلك العهد (مع افتراض حدوث بعض الترميمات فيهما) ، اللهم إلا إذا ظهر من الوثائق القديمة ما يثبت غير ذلك ، وهو ما لم يحدث حتى الآن .

وها هى بعض مقاييس الفتحة اليمنى :

عرض بوابة دخول المياه	٤,٥٥ مترا
عرض الجدار	١٢,٤٠ »
طول »	٧٨,٨٠ »
أقصى ارتفاعه	١١,٠٠ »

البوابة اليسرى :

لتلك البوابة عينان ، كما نرى فى الرسم التقريبى، ووراءها قناة مبنية الجوانب طولها أكثر من كيلو متر تنتهى بحوض كبير تتفرع منه عدة قنوات .

ونرى على مقربة من هذه البوابة أنهم سدوا الناحية الجنوبية بجدار يرتكز على صخر الجبل ، ثم جعلوا فى مكان مرتفع من الجدار أربع فتحات ، وذلك لتصريف أى كميات زائدة من المياه حتى لا يرتفع منسوب المياه أمام السد إلى حد لا يريدونه ، أو يؤثر على الفتحات أو يتعارض مع النظام المقرر لها،وتخرج تلك المياه الزائدة إلى الخارج وتنزل إلى باطن الوادى .

وفى وقت من الأوقات رأوا أنه لاحاجة للعينين فسدوا واحدة منهما واكتفوا بالأخرى . وكان يخرج من الحوض المبنى بالحجر فى آخر القناة الكبرى قنوات متعددة ، تبلغ فتحات بعضها نحو ثلاثة أمتار ، وكلها مبنية بالحجر ، وكانت مثل البوابتين الكبيرتين تغلق بوضع كتل من الخشب تنزلق فى فتحتين فى جانبى كل بوابة .

وأينما سار الإنسان فى أراضى وادى مأرب التى كانت مزروعة ، وترويها هذه القنوات العديدة ، نرى أحجاراً يسميها الناس فى الوقت الحاضر « مناسح » وهى ما بقى من آثار القناطر الصغيرة التى كانت فوق تلك القنوات أو من مبانى السواقى القديمة ، ونرى من دراسة المبانى التى ما زالت قائمة عند البوابتين تقدم السبأيين القدماء فى فن البناء تقدماً يحسدهم عليه كثير من الشعوب القديمة التى كانت معاصرة لهم . ويجب ألا ننسى أنه لكى يبنوا مثل هذه المبانى قد احتاجوا إلى قرون كثيرة من المران والتطور حتى وصلوا إلى تلك الدرجة من السيطرة على البناء بالحجر .

وكانوا يربطون الأحجار بعضها البعض بواسطة قضبان قصيرة قوية من النحاس أو الرصاص وذلك للاستزادة من قوة البناء ، وكثيراً ما يذهب الأهالى حتى الآن ليحطموا بعض تلك الأحجار عند اللحامات ليستخرجوا تلك القضبان المعدنية لحاجتهم إليها فى بعض أغراضهم ، وقد رأيتُ واحداً منها وكان أسطوانى الشكل مستديراً فى ناحيتيه وطوله ١٦ سم وقطره ٣,٥ سم ، أما المونة المستخدمة فهى فى منتهى الصلابة ، ونرى بعضها عند البوابة اليسرى .

مأرب فى آخر أيامها :

ارتبط تاريخ مأرب فى أيامها العظيمة بسيطرة ملوكها على الطريق التجارى الكبير وتجارة البخور . وفى القرن الأول قبل الميلاد أخذ الرومان يرمون بأبصارهم للسيطرة على هذه التجارة ، ثم كان ما كان بعد ذلك من أمر حملة اليوس جالوس التى انتهت بفشلهم التام فى الاستيلاء على مدينة مأرب أو أى مكان آخر. وإذا كان الرومان قد فشلوا فى تلك الحملة فإن تجارتهم البحرية أخذت تسير فى طريقها ، بل وأخذت تزداد ، لأنهم كانوا قد تعلموا من البحارة العرب سر الرياح الموسمية فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد . وفى غضون تلك الأيام ظهرت مملكة جديدة فى جنوبى اليمن وهى مملكة ظفار التى غيرت من سير الطريق التجارى بجعلته قريباً من البحر ، فأخذت أهمية مأرب تتضاءل وأخذ يعلو نجم مدن أخرى وفى مقدمتها ظفار التى كانت عاصمة تلك المملكة .

وهاجر كثير من اليهود إلى اليمن بعد حصار مدينة القدس وتحطيمها فى القرن الأول الميلادى ، واستقروا أيضاً فى كثير من البلاد التى كانت تقع على الطريق التجارى الكبير . وفى أوائل القرن الرابع الميلادى على الأرجح ، أخذت المسيحية تثبت أقدامها فى بعض جهات اليمن وبخاصة فى نجران حيث استطاع أحد الدعاة إلى المسيحية من تأسيس كنيسة فى نجران . كان مسيحيو اليمن على علاقة طيبة مع مسيحيي بيزنطة ومسيحيي الحبشة ، وسواء أكان لغزو الأحباش لليمن فى القرن الرابع الميلادى صلة بهذا الأمر أو لم تكن له صلة به فإن احتلال الحبشة للبلاد لم يدم وقتاً طويلا . ونعرف مما جاء فى أحد النقوش ، وقد عثر عليه فى مأرب ويرجع تاريخه إلى عام ٣٧٨ ميلادية ، أن « ملك - كريب - يوهامين » كان قد طرد الأحباش واستعاد عرش آبائه .

كان طرد الأحباش من اليمن بداية لأمر جديد فى التاريخ اليمنى ، وذلك الأمر هو بدء ميل العائلة المالكة فى اليمن إلى الديانة اليهودية .

كان « ملك - كريب - يوهامين » يعبد الآلهة القدماء . ولكن أحد الذين خلفوه على العرش واسمه « أب - كريب - أسعد » المعروف لكتاب العرب تحت اسم « أسعد كامل » مال إلى الديانة اليهودية ، ويقال إنه قام برحلة إلى يثرب (المدينة) لكى يقوم اليهود الذين فيها بعمل ما يلزم من مراسيم دينية لتثبيت تهويده ، وعند عودته أعلن أن تلك الديانة هى الديانة الرسمية له ولبلاده .

وفوق صخور جبل بلق ، أمام البوابة اليسرى لسد مأرب ، نرى عمودين غطت النقوش السبأية الوجوه الأربعة من كل منهما أحدهما من عهد الملك « شر حبيل يعفر » بن « أب - كريب - أسعد » يسجل فيه ترميمه للسد الذى تهدم فى أيامه ، أما العمود الثانى فمن عهد الملك أبرهة الحبشى . وكان آخر ملوك اليهود فى اليمن هو الملك « ذو نواس » الذى اضطهد المسيحيين فى نجران حوالى عام ٥٢٢ ميلادية ، وكان حرقه لهم فى الأخدود سبباً لثورة العالم المسيحى وتكليف

إمبراطور بيزنطة لملك الحبشة بأن يذهب لنصرة المسيحيين فى اليمن ، فذهب أبرهة وقضى على « ذو نواس » حوالى عام ٥٢٥ ميلادية .

والنقش الثانى ، الذى أشرت إليه ، والذى نراه ملقى إلى جوار نقش شرحبيل ، يقص قصة هامة من نوع آخر ، فقد أصبح النصر معقوداً للمسيحية وأخذت الكنائس تبنى فى المدن المختلفة ، وها هو أبرهة يقيم هذا الأثر فى عام ٥٤٢ ميلادية ليسجل فيه إصلاحه للسد الذى تهدم . يبدأ أبرهة نقشه بقوله « بقوة وجلال ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس » ، ويذكر أنه كانت هناك ثورة فى جهة مأرب وأنه ذهب وأخمدها ، ولكنه علم وهو يصلى فى كنيسة مأرب أن السد قد تصدع فاهتم للأمر وأرسل يدعو القبائل للعمل فى إصلاحه ، وأن العمل استمر أحد عشر شهراً وأن مقدار المؤن التى صرفت أثناء العمل كانت ٥٠,٨٠٦ كيساً من الدقيق و ٢٦,٠٠٠ حملا من البلح وأنه نحر ٣٠٠٠ جملا وثوراً و ٢٠٧,٠٠٠ رأساً من الغنم ليأكل الرجال لحمها[1] .

وكان نجاحه فى ترميم السد — وهو آخر ترميم له — أمراً اعتز به أبرهة وقرر الاحتفال به ، فجاء إلى مأرب كثيرون من الوفود يذكر منهم فى نقشه وفداً من « الحبشة » ، ووفداً أرسله « ملك الروم » كما جاء مبعوث من « ملك الفرس » وكثيرون من الأمراء المسيحيين من أهل الحيرة ومن الغساسنة .

كانت تلك الاحتفالات بترميم السد هى آخر ما شهدته مأرب من أيامها العظيمة ، إذ لم يمض على ذلك وقت طويل حتى تهدم السد مرة أخرى . كانت تلك الفترة من تاريخ الجزيرة العربية ، بل العالم الشرقى كله ، فترة صراع مرير بين الفرس الوثنيين والروم المسيحيين فقام أحد أمراء اليمن من نسل الحميريين وهو سيف بن ذى يزن واستعان بالفرس على طرد الأحباش من البلاد وأصبح للفرس حاكم فيها .

---

(١) نشر جلازر ترجمة هذين النقشين الهامين فى بحثه فى مجلة *Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, Berlin (1897) pp. 360-488.*

ولكن حدث حوالى عام ٥٧٠ ميلادية أمر كان بداية لتغيير الأوضاع لا فى اليمن أو فى بلاد الجزيرة العربية فحسب ، بل فى كثير من البلاد الأخرى .

لقد ولد حوالى ذلك التاريخ فى أحد بيوت قريش فى مكة ، إحدى المدن الهامة على الطريق التجارى الكبير ، طفل يتيم هو محمد بن عبد الله . كانت ولادته فى ذلك العام الذى أراد فيه أبرهة أن يقضى على مكة ليحوّل الناس عنها وعن كعبتها الوثنية إلى كنيسة صنعاء المسيحية ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبه وفتك وباء به وبجيشه . كانت الوثنية واليهودية والمسيحية تتصارع فى بلاد العرب ، ولكن الأقدار كانت تهيىء شيئاً آخر .

لقد شبّ الطفل اليتيم واختاره الله ليؤدى رسالة جديدة ، وأخذ محمد يبشر بالإسلام فلقى ما لقى من أذى ونصب حتى أذن الله بالنصر ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، ووصلت دعوته إلى اليمن، فأسلم حاكمها الفارسى وكان يسمى « باذان » .

وخفتت أصوات الوثنية وأصوات الديانات الأخرى وعلا صوت دين الله ، وخرب الناس ما خربوه من معابد الوثنيين ، وأقبل اليمنيون على الإسلام وتحمسوا للخروج فى الفتوحات ، وبدأت اليمن فصلا جديداً فى تاريخها .

الفصل السادس

ايـران

منذ أقدم العصور حتى ظهور الأخمينيين

هضبة إيران :

إذا نظرنا إلى إحدى الخرائط الجغرافية ، وبحثنا عن موقع إيران فى آسيا فلا نلبث أن تبرز أمام أعيننا ثلاث نقط هامة . أولها أنها هضبة تتوسط بين منطقة الأحراش (الإستبس Steppes) فى أواسط آسيا وبين سهول غربى آسياء وثانيها أنها أشبه بمثلث رأسه عند جبال زاجروس ويربط منطقة الأحراش فى أواسط آسيا من ناحية ، وهضبة آسيا الصغرى من ناحية أخرى . أما ثالثة النقط فهى أن هذه الهضبة تقع بين منخفضين أحدهما فى الشمال وهو بحر قزوين ، والثانى فى الجنوب وهو الخليج الفارسى .

وهضبة إيران جبلية تتخللها جبال يصل ارتفاعها فى بعض الحالات إلى ١٧٠٠ مترا عن سطح البحر ، وتوجد وديان خصبة بين تلك الجبال يتراوح طولها بين ٥٠ و ٧٠ كيلو مترا وعرضها بين ١٢ و ٢٠ كيلو مترا وتتوسطها المدن الهامة. وتحت مستوى تلك الوديان تنبت على جوانب الجبال غابات كثيفة من أشجار البلوط والجوز واللوز والفستق ، وفى الوديان التى أقل منها ارتفاعا تنبت الفواكه الكثيرة وبخاصة العنب والتين والرمان ، كما يمكن أيضا زراعة بعض الحبوب مثل القمح والشعير والدخان وغير ذلك من الحاصلات . وأكثر جبال إيران ارتفاعا هى قمة جبال دماوند على مقربة من الشاطىء الجنوبى لبحر قزوين .

ويتفرق السكان فى تلك البلاد التى تفصل بينها الجبال ، ولكن أكثر مناطق إيران ازدحاماً بالسكان هى المنطقة الواقعة حول بحيرة أورميا حيث تنبت محاصيل كثيرة فى الوديان المختلفة كالقمح ، والذرة ، والقطن ، والأرز، والدخان . وكثير من الفواكه المختلفة .

ولهذا لا نعجب إذا لعبت تلك البلاد دوراً كبيراً فى التاريخ فهى قنطرة بين أواسط آسيا التي تسمى منطقة الأحراش (الإستبس) وبين غربى آسيا ، وفى وديانها تمر دروب القوافل المختلفة التى تربط بين شرقى آسيا وغربها .

وفضلا عن ذلك فان مناخها الجبلى الصحى جعل سكان الجبال من أبنائها قوماً شديدى المراس يحبون الحرية ، وساعدتهم طبيعة بلادهم على الوقوف فى وجه المعتدين فى جميع العصور . وإذا كانت الهضبة الإيرانية فقيرة نسبياً فى الأنهار الكبيرة ففيها كثير من جداول المياه والبحيرات وينابيع المياه مما يسهل الإقامة فيها ، كما سمحت طبيعة أراضيها بوجود المراعى الكثيرة ، وفى جبالها معادن وفيرة وأحجار جيدة متعددة الأنواع .

تلك هى بلاد إيران التى كانت مركزاً هاماً من مراكز الحضارة فى بلاد الشرق ، والتى أظهرت الحفائر فيها أن أقدم الأماكن التى تطورت حياة أهلها إلى الزراعة ، حسب ما وصلنا إليه حتى الآن ، كان بين ربوعها ، وكان على شاطئ إحدى البحيرات فى واحة قاشان .

الزراعة فى سيالك :

هناك آراء متعددة عن المكان الذى يحتمل أن يكون أهله أول من اكتشف الزراعة . وهناك من يقول بأنه فى مكان ما من الهلال الخصيب ، وهناك من يقول بأنها هضبة إيران أو فى الكردستان ، ولكن كل هذه الآراء تتضاءل إذا ما تعرضنا لها بالمناقشة الجدية لأنه لا يوجد مكان أنسب من مصر فإن نيلها يفيض فى أوقات محدودة فى كل سنة لمدة أسابيع فى آخر الصيف ، ولا تكاد مياه الفيضان

تنحسر عن الأراضى حتى يكون الجو ملائماً لنمو القمح الذى نراه ينبت فى الأرض اللينة عقب الفيضان ، ونحن نعرف أن الشعير كان ينبت دائما فى مصر ، وأنه من محاصيلها الوطنية منذ أقدم العهود . وإذا كان القمح والشعير لا ينبتان الآن على هيئة نباتات برية ، (الشعير البرى بالإنجليزية يسمى Immer والقمح البرى dinkel) ، فربما كانا ينبتان فيها فى العصر النيوليتى .

وليس يخالجنا شك فى أن سكان وادى النيل وسكان بلاد الرافدين عرفوا الزراعة منذ عهود بعيدة ، ولكن لم يصل إلى أيدى العلماء من حفائر هذين البلدين ما نستطيع أن نعتبره أقدم عهدا من حفائر « سيالك تپه » فى إيران[1] . ونحن إذ نقبل ذلك عن طيب خاطر مؤقتا ، نعلل النفس بأن هناك آلافاً من التلال الأثرية فى بلاد الرافدين ، وسوريا ، وفلسطين ، والأناضول ، وفى شمال إفريقيا ، وعلى طول جانبى الدلتا ، وعلى هضبتى النيل حتى أواسط السودان تنتظر يد العلم لتميط اللثام عن أسرارها . ويقوم تاريخ سيالك على الأدلة المستمدة من الفخار فقط ومقارنتها بفخار غيرها من البلاد ، إذ أن تل سيالك كان ذا طبقات متعددة سكنتها أقوام فى عصور مختلفة .

وربما يرجع أقدم تاريخ للمنطقة إلى حوالى ٥٠٠٠ عام ق . م . عندما كان السكان القدماء يستعملون فخاراً أحمر مصقولا خالياً من النقوش ، ولكن فى عصر سيالك الأول نجد أن السكان صنعوا أنواعاً مختلفة من الفخار وزخرفوه ، كما عرفوا أيضاً نسج القماش ، وكانوا يصنعون لأنفسهم مساكن خفيفة من فروع الأشجار يلطسونها بالطين .

---

(١) « سيالك » فى الشمال الغربى من إيران على مقربة من مدينة قاشان فى الجنوب الشرقى من طهران — حفرها جيرشمان وكتب عنها مؤلفا من جزئين :

R. Chirshman, *Fouilles à Sialk, T. I* (*Cairo*, 1938), *T. II* (*Cairo*, 1939).

وسيالك الآن فى بقعة موحشة ولكن سكانها فى العصور القديمة كانوا يعيشون على حافة بحيرة كبيرة ، وكان هناك نهير يجرى إليها بالمياه ، كما ساعدت خصوبة أرض تلك الواحة على زرع جزء كبير منها للحصول على الحبوب اللازمة للخبز . وأحاطت الأشجار بالبحيرة وكونت غابة كانت مرتعا لكثير من الطيور والحيوانات التى كانوا يصطادونها للانتفاع بها فى غذائهم .

ولا شك أن وصول سكان « سيالك » إلى معرفة صناعة الغزل ووصولهم إلى صناعة الفخار يشهد لهم بالتفوق ، ولكن تفوقهم الحقيق كان فى الذوق الفنى فى زخرفة هذا الفخار بالألوان وتنويع أشكاله . وقد عثر «جيرشمان» أيضا فى هذه الطبقة على بعض الأدوات التى كان يستعملها أمثال هؤلاء السكان الذين كانوا إلى جانب الزراعة ما زالوا يعتمدون أيضاً على الصيد ، ولا ريب أن أهم ما ظهر فى أقدم طبقات حفائر سيالك هو ذلك التمثال المصنوع من العظم الذى يمثل شخصاً واقفاً يتعبد ، وقد علا رأسه غطاء أشبه بالطاقية أو القبعة الصغيرة ، ولبس رداءاً يصل إلى ركبتيه يضمه حزام حول وسطه ، وإذا قارنا هذا التمثال الصغير بغيره مما جاء من حفائر غرب آسيا لا نجد مثيلا له ، ولكننا نجد ما يشبهه إذا اتجهنا نحو الغرب وقارناه بما جاء من حضارة الناطوفيين فى فلسطين أو البداريين فى مصر .

وكانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية أكواخهم مثل سكان مرمدة فى مصر ، ودون أن يضعوا معهم أوانى ، لأنهم على ما يظهر كانوا يشاركون الأحيــــاء فى طعامهم وشرابهم إذا احتاجت أرواحهم إلى الغذاء ، وكان من مظاهر ثقافتهم دهن عظام الموتى بالمغرة الحمراء رمزاً إلى جريان الدم فيها . أما الأطفال الصغار فكانوا يوضعون فى أوان ويدفنون أيضاً تحت أرضية الأكواخ ، وهى عادة بقيت فى كثير من البلاد حتى العصور التاريخية بل إنها باقية حتى يومنا هذا فى بعض بلاد الشرق وبخاصة فى الريف .

وكانوا يجيدون صناعة أدوات الظران (حجر الصوان) وعمل الأوانى الحجرية . أما حليهم فكانت فى البدء مصنوعة أيضاً من الفخار أو المحار ، ولكن مع تقدم الزمن صنعوا هذه الخرزات والخواتم والأساور من الحجر .

وكانت الخطوة التالية لأهل سيالك بعد فترة طويلة من حياتهم هو أنهم بدأوا يبنون أكواخهم بجواليص من الطين ، كما تقدموا فى إتقانهم لصناعة الحجر فصنعوا كئوساً وأوانى ورءوس دبابيس للقتال من تلك المادة ، ولكنهم ظلوا يستعملون قدوما مصقولا من الظران ، من المرجح أنه لم تكن له يد ، وكانوا

يستعملونه بالقبض عليه كما يظهر من أثر اليد على القدوم نفسه ، كما استعملوا منشاراً من الظران لقطع الأخشاب . أما عن آلات الصيد فقد ظلت كما هى ، واستمر سكان سيالك على عادتهم فى استخدام أدواتهم البدائية ، وعلى الأخص المقلاع ، ولم يعثر على أى سهم بين أدواتهم مما يرجح عدم معرفتهم لاستخدام القوس .

وتقدموا خطوة أخرى فعرفوا النحاس واستعملوه كدبابيس لتثبيت الملابس ، أو كخارز ، أو غير ذلك من أدوات الزينة ، ولكن مضت عليهم قرون طويلة قبل أن يدركوا أن هذا المعدن نفسه يمكن صهره وصبه فى قوالب ، إذ أن ذلك لم يتم إلا على يد سلالاتهم التى أتت بعدهم بكثير ، ومما وقف عليه الحفارون أيضاً معرفة شدة اهتمامهم بخزن الحبوب وذلك بوضعها فى أوان فخارية كبيرة الحجم .

ولم يمض وقت طويل على سكان سيالك حتى نبغ نساؤهم فى عمل الفخار ، وتفننت المرأة السيالكية فى عمل أشكال جديدة منها وزخرفتها بزخارف على درجة غير قليلة من الذوق الفنى .

كانت سيالك واحدة من القرى على حافة البحيرة القديمة ، وكانت هناك قرى أخرى غيرها عاش فيها قوم من الجنس نفسه تشابهت ثقافتهم مع ثقافة سيالك ، وإن اختلفت بعض المظاهر اختلافاً يسيراً . وكانت هذه المحلات متصلة ببعضها البعض ، ومتصلة أيضاً بغيرها من سكان الهضبة كلها وما وراءها من بلاد ، وذلك عن طريق تبادل التجارة لأن النحاس لا يوجد إلا على مسافة تزيد عن ١٦٠ كيلو متراً إلى الجنوب ، وكان حجر الأوبسيديان يأتى إليها من الجبال التى حول بحيرة ڤان (Van) ، وكان الفيروز يأتيها من خرزاباد .

وهكذا نرى أن طبيعة بلاد الهضبة الإيرانية لم تكن عائقاً دون اتصال سكانها ببعضهم البعض ، ولم تقف دون ذلك الجبال الوعرة أو المناطق الموحشة .

بل هناك ما هو أكثر من ذلك، إذ أننا نعرف أن ثقافة سيالك امتدت إلى مسافات بعيدة ، وكان أهلها يحملون بعض ما يصنعونه من فخار إلى من جاورهم من الشعوب أو يأتى إليهم الآخرون للتجارة فيعودون ومعهم بعض صناعاتهم .

فمثلا عثر الباحثون فى شمال إيران عند تل « أناو » (Anau) فى واحة المرو على عدة قرى تشبه حضارتهم حضارة أهل سيالك الأقدمين ، ولكنهم كانوا قد تقدموا خطوة جديدة نحو الحضارة ، إذ كانوا يستعملون الطوب المجفف فى الشمس فى مبانيهم ، ولكنهم ظلوا على عادتهم فى دفن موتاهم تحت أرضية المنزل ودفن أطفالهم فى الأوانى .

إيران قبل عام ٣٠٠٠ ق. م. :

رأينا كيف بدأت الحضارة فى إيران منذ أبعد العصور ، وكيف تميزت من بينها حضارة سيالك التى لم تكن فى الحقيقة إلا فرعا من دوحة كبيرة كانت لها ثقافة متحدة وصناعة فخار واحدة . وهى ، وإن ظهر بينها شىء من الاختلاف ، فإنه اختلاف أملته ظروف محلية جعلت كل فاخورة أو مصنع من المصانع — إن جاز لنا استعمال هذا التعبير — ينتج فخارا فيه بعض تفاصيل فى أشكاله أو رسومه تميزه عن غيره . غير أننا نستطيع أن نقول إنه فى الألف الرابع قبل الميلاد كانت حضارة سيالك ظاهرة جدا بين من كان حولها مثل قوم (Qum) وساوه (Saveh) والرى (Rey) وتبى حصار ودمغان . أما فى الجنوب فكانت هناك عدة مراكز للحضارة نفسها أهمها سوسا التى ربما كانت ذات أثر على حضارة سيالك ، وتل باكون (Bakoun) على مقربة من تخت جامشيد (پرسپوليس Persepolis) وغيرها .

وبالرغم من أن فحص كل مناطق إيران التى ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ (أى قبل ٣٠٠٠ قبل الميلاد) لم يتم بعد ، فإننا نلاحظ أن هذه الحضارة انتشرت فى جميع الأرجاء العامرة بالهضبة ، وسارت إلى المناطق البعيدة فأصبحت تعم

جزءاً كبيراً من آسيا ، بل عمت بلاد غربى آسيا بأكلها ، إذ وصلت إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط وإلى بلاد التركستان الروسية ووادى السند . وقد دلت الأبحاث الأنثروبولوجية على أن القوم الذين كانوا يعيشون فى واحات إيران فى ذلك العهد ينتمون إلى فصيلتين من جنس واحد ، أطلق عليه علماء الأجناس اسم الجنس الأسيوى أو الأسيانى (Asianic) ، وهو جنس لا يمت بصلة إلى المجموعة المعروفة باسم المجموعة السامية أو المجموعة الهندو — أوروبية . وهناك من أراد أن يطلق عليه اسم الجنس القوقازى ، وأحياناً الجنس القزوينى (Caspian)، وبعضهم أراد أن يطلق عليه اسم الجنس اليافثى (Japhethite) ، وينقسم هذا الجنس إلى ثلاثة جماعات :

١ — الجماعة الأولى منها تسمى أرارات أو الأورارتيون (Ourartians) أو الجنس الفنّى (Vannic)وهم سكان أرمينيا القدماء . ومن هذه الجماعة أيضاً الكاسيون (Kassites) والعيلاميون (Elamítes) والحيثيون (Hittites) والميتانيون (Mitanni) .

٢ — والجماعة الثانية منها الليكيون (Lycians) والكاريون (Carians) والميسيون (Mysians) ، وكذلك الإترسك (Etruscans) والكريتيون (Cretans) .

٣ — أما الجماعة الثالثة فمنها الإيبريون (Iberians) والباسك .

وجميع شعوب تلك الجماعات الثلاثة كانت تتكلم فى الأصل لغة واحدة ، ومن المحتمل أن يكون السومريون فرعاً منهم انفصل عن مجموعته منذ أزمان سحيقة ، وتطور تطوراً خاصاً به .

وهؤلاء الأسيانيون هم أصل حضارة غربى آسيا ، وكان أسبق هذه الشعوب فى استعمال الفخار هم سكان هضبة إيران الذين كان لهم أثر كبير على غيرهم .

وإذا أردنا معرفة شىء عن أصل ديانة أقدم سكان إيران فإننا يجب أن نبحث عن عقيدة أقدم سكان بلاد الرافدين (السومريين) فإنهم من الجنس

نفسه ، على الأرجح . فنرى أنهم كانوا يعتقدون أن الحياة قد أتت من الآلهة وأن الوجود لم يتدرج ، وإنما جاء مرة واحدة ، وأن مصدر الحياة جاء من الأنثى ولم يأت من الذكر ، وهذا على عكس الديانة المصرية القديمة[1] .

وكانت عبادة الإلهة ـ الأم ، التي كانت تمثل على صورة امرأة عارية ، منتشرة في جميع الهضبة ، وفي جميع أرجاء غربي آسيا في عصر ما قبل التاريخ ، وكان الذكر المتصل بها هو ابنها ، وهو الذي يقوم في الوقت ذاته بدور الزوج . وليس من المستبعد أن يكون أصل عادة الزواج بين الأخ وأخته راجعة في أصلها إلى هؤلاء القوم ، فقد كانت هذه العادة منتشرة قديماً في غرب آسيا ثم ظلت بين الفرس ، وأخيراً كانت شائعة بين الأنباط لأنها ظلت بين السكان الأصليين في البلاد ، وكان المهاجرون إليهم أو الفاتحون الذين يستوطنون أرضهم سرعان ما يقبلون على اتباع بعض عادات السكان الأصليين خصوصاً إذا اتخذوا من نساء البلاد زوجات لهم . وإن كان الزواج بين الأخ والأخت شائعاً بين كثير من الشعوب ، فإن هناك أيضاً عادة الزواج بالأم ، ولكن هذا نادر بين سكان تلك المنطقة من العالم . ولعل أصل هذه الديانة هو السبب المباشر في عادة التوريث عن طريق الأم ، وهي العادة التي كانت منتشرة بين العيلاميين والإتروسكيين ، وكانت منتشرة أيضاً على نطاق واسع بين الليكيين . وكان للنساء بين بعض تلك الشعوب حق قيادة الجند ، مثل ما كان متبعاً بين الجوتيين ، وبين سكان جبال الكردستان . وبالرغم من أن النظام القبلي وزعامة فرد على عائلته كانت معروفة ومنتشرة ، إلا أن الوقت كان مازال بعيداً عن الوصول إلى فكرة تملك فرد واحد على كل البلاد تحت اسم الملك ، لأن البلاد حتى ذلك الوقت لم تكن قد نضجت للاتحاد السياسي .

وانتشرت حضارة الهضبة الإيرانية في جميع الأنحاء ووصلت إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، ووصلت أيضاً إلى التركستان ، كما أشرنا إلى ذلك ، وإلى

(١) R. Ghirshman, *L'Iran des Origines a l'Islam* (1951), p. 31.

بلوخستان، وإلى شمال غربي شبه جزيرة الهند ، وتدرجت هذه الحضارات تدرجها العادي بوجه عام ، ولم تزدهر ازدهاراً كبيراً إلا فى حوض وادى السند ، ولكن هذا الازدهار لم يكن فى الألف الرابع ، وإنما كان فى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد .

الألف الثالث قبل الميلاد :

تتبعنا تطور الحضارة فى سيالك ، وأشرنا إلى صلتها بالبلاد الأخرى فى الهضبة الإيرانية ، وبخاصة فى سوسا التى كانت هى الأخرى مركزاً هاماً تطورت فيه الحضارة ، وكان لزخارف فخار سوسا وپرسپوليس منذ أوائل الألف الرابع قبل الميلاد أثر مباشر على جميع حضارات غربى آسيا ، واتصلت من ناحية أخرى بأواسط آسيا . وما من شك فى أنه كانت توجد صلات بين هضبة إيران وبين بلاد الرافدين ، ولا شك أن فخار هذين البلدين وبعض منتجاتهما كانت تصل من واحدة إلى الأخرى ، ولكنه من الثابت أيضا أن عيلام (ومركز حضارتها فى سوسا) كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من التقدم ، وأن أسس حضارتها كانت إيرانية النشأة ، ولم تتأثر ببلاد الرافدين إلا فى نواح محدودة فى عهدها المبكر . ففى عصر جمدة نصر كانت بلاد الرافدين قد توصلت إلى معرفة الكتابة، وفى هذا الوقت أيضاً أى قبيل عام ٣٠٠٠ ق . م . كانت سوسا توصلت أيضاً إلى طريقة للكتابة مستقلة عن بلاد الرافدين ، وهى الكتابة التى أطلق عليها العلماء اسم «قبل العيلامية» ، والتى انتشرت فى أرجاء الهضبة ووصلت إلى سيالك، حيث عثر على بعض ألواح صغيرة ربما كانت مثبتة إلى بعض أنواع السلع التجارية . وبالرغم من أنه لم يتم حتى الآن فك رموز تلك الكتابة ، إلا أننا نرى فى رسوم الأشياء الواردة فيها سواء أكانت طيوراً أو حيوانات أو نباتات أو رسم جسم الإنسان أو أجزاء منه أو غير ذلك ، تقدماً واضحاً لأنها خلفت وراءها المرحلة الأولى ، وأصبحت شبه صور بعد أن كانت فى الأصل صوراً صحيحة . وهذه الألواح الصغيرة (البطاقات) التى عثر عليها فى سيالك هى الأشياء

الوحيدة المكتوبة التى عثر عليها فى إيران من صنع سكان الهضبة القدماء ، ويرجع تاريخها إلى ما قبل أيام الدولة الأخمينية .

وبالرغم من أننا نعرف شيئاً غير قليل عن أقدم مظاهر الحضارة فى الهضبة الإيرانية ، ووصل إلى أيدينا الكثير من مخلفاتها ، وعلى الأخص الفخار والحلى ، وعرفنا بعض عاداتهم وبخاصة فى دفن الموتى ، إلا أننا لا نعرف الشيء الكثير عن تلك الهضبة خلال الألفى عام التى تلت ذلك . ونحن نقصد من ذلك الهضبة الإيرانية بمعناها الجغرافى ، ولا يدخل فى ذلك عيلام (وتسمى أحياناً سوسيانا) أى سوسا وما حولها ، إذ أنها كانت فى السهل وعلى مقربة من بلاد الرافدين . كانت عيلام منذ بدء حضارتها وثيقة الصلة بحوادث تلك البلاد ، فتارة يهجم سكانها على جيرانهم ، وتارة يخضع إقليم سوسا للدول الناشئة فى بلاد الرافدين ، أما ما عدا ذلك فكان له شأن آخر . وظلت بلاد الهضبة الإيرانية بعيدة عن تأثرها تأثراً كبيراً بحوادث بلاد الرافدين ، بل أن الوثائق البابلية والأشورية قلما أشارت إليها إلا فى العصور المتأخرة لأن الكتاب البابليين كانوا ينظرون إلى جبال زاجروس كآخر حدود المدنية ، ويعتبرون من يسكن خلفها من الشعوب قوما همجاً لا يستحقون اهتمامهم .

ولكن عيلام التى كانت مركزاً رئيسياً من مراكز الحضارة فى العالم القديم ، كان لها شأن آخر ، فقد نزل سكانها إلى ذلك السهل من الناحيتين الشمالية والشرقية ، وكونوا أسرة حاكمة فى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد مدت سلطانها على منطقة واسعة من السهول والجبال ، كما مدت سلطانها على جزء غير قليل من الخليج الفارسى ، وكثيراً ما أغارت على بلاد الرافدين نفسها واحتلت جزءاً كبيراً منها .

وعندما توسع سرجون الأكدى فى حروبه وذلك حوالى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد ، أخذت عيلام تفقد استقلالها بعد أن غزتها جيوش الأكديين ، ومنذ ذلك التاريخ كثيراً ما يتردد اسمها فى التاريخ البابلى ، ونقرأ عن ثوراتها مثل تلك

الثورة التى قامت بها فى عهد « نرام — سين » وانتهت بتعيين حاكم أكدى عليها ، وأخذت اللغة الأكدية ، السامية الأصل ، تحل محل لغتها العيلامية القديمة .

كان ذلك الحاكم الأكدى الأول رجلا سامياً ، ثم عين «نرام-سين» حاكماً آخر عيلامياً يسمى « پوزور—إنشوشيناك » — (Puzur Inshushinak) ، نراه قد أخلص الأكديين فأخضع ما جاور عيلام من البلاد لنفوذهم . فهاجم الجوتيين وأحضر كثيراً مما نهبه من بلادهم إلى سوسا ، وبنى مما تجمع لديه من الثروة عدة منشآت ومعابد فى عاصمة العيلاميين . واتسع نفوذه ، وجاء رؤساء البلاد المجاورة يقدمون له الطاعة ويدفعون له الجزية ، فلما مات « نرام — سين » وجد « پوزور — إنشوشيناك » الفرصة سانحة للاستقلال ببلاده ، ولم يكتف بذلك بل أراد الاستيلاء على أكد نفسها ، ولم يرجع عنها إلا بعد أن هزمته جيوش أكد فى معركة تكبد فيها الخصمان كثيراً من الخسائر. وعاد «پوزور — إنشوشيناك» إلى بلاده مستقلا بشؤونها وتولى عرشها ، ولكن لم يمض غير قليل حتى عادت القبائل الجوتية وغيرها فانقضت على عيلام منتهزة فرصة ضعفها ، فانتقمت لنفسها وخربت الكثير مما كان فيها[1] .

ونعرف من تاريخ بابل أيضاً أن الجوتيين هاجموها فى منتصف الألف الثالث وقضوا على مملكة سرجون ، وظلت لأولئك الجبليين السيادة على سكان السهول فترة غير قليلة ، ولكننا نعرف أيضا أن التجارة ظلت مستمرة ، وكان الجوتيون يجنون من ورائها أرباحا كثيرة .

وليس يعنينا الآن تاريخ الجوتيين فى بلاد الرافدين ، ولكن الذى يعنينا هو ما كان يحدث إذ ذاك فى الهضبة الإيرانيـــة . ولسنا نعدو الواقع إذا قلنا

---

(١) لم يكن پوزور — إنشوشيناك هو أول من هاجم قبائل الجوتيين *Guti* واللولوبيين *Lullubi* بل سبقه إلى ذلك كل من سرجون ونرام—سين . ولم تكتف تلك القبائل بمهاجمة عيلام بل هاجمت واحدة بعد الأخرى بلاد بابل نفسها ، واحتل اللولوبى المنطقة التى يمر منها طريق التجارة الموصل بين بغداد وطهران مارا بكرمنشاه وهمدان .

إننا لا نكاد نعرف شيئا ذا أهمية عن الهضبة فى ذلك العهد ، وأكبر الظن أن البلاد ظلت فى حالة من الركود ، وربما كانت الحروب بين الشعوب الجبلية نفسها سببا فى تدهورها . ففى سيالك لم يجد « جرشمان » أى آثار هناك طيلة فترة لا تقل عن ألفى سنة ، ولكن كانت هناك مناطق أخرى مثل جيان Giyan كانت عامرة بسكانها الذين كانوا يصنعون فخارا يتبعون فى أشكاله وزخارفه بعض التقاليد القديمة ، ولكن هذا الفخار كان متأثرا بحضارة بلاد الرافدين . ونرى أيضا زيادة استخدام المعادن وبخاصة البرونز والفضة فى الحلى ، وفى صناعة الأدوات الأخرى الصغيرة الحجم .

وهكذا أمضت الهضبة الإيرانية الألف الثالث قبل الميلاد ، حسب ما وصل إلينا من معلومات حتى الآن . وسواء أمدتنا الحفائر فى المستقبل بمعلومات أهم أو بقينا على معلوماتنا الحالية ، فإنه من المؤكد أن سكان الهضبة الإيرانية لم يكونوا فى الألف الثالث قبل الميلاد أو حتى فى الألف الثانى أى وحدة قوية ، كما حدث فيما بعد ، بل ظلت قبائل متفرقة يحارب بعضها البعض ، ولا يهمها إلا البقاء فى أوطانها ، يحيا بعضها حياة سكان الجبال قانعين بوديانهم الخصبة القليلة ، ومعتمدين على مراعيهم وعلى ما يجنونه من التجارة[1] .

الألف الثانى قبل الميلاد وهجرات الشعوب الهندو - أوروبية :

ومن الجائز جدا أن الأحوال العامة فى تلك الهضبة كانت ستظل كما كانت

---

(١) كانت إيران منذ أقدم عصورها تستخرج النحاس من مناجمها وتحمله لتبيعه فى بلاد الرافدين ، ولنشأت فيها مراكز هامة لصناعة الأدوات النحاسية على نطاق واسع مما حدا ببعض العلماء إلى القول بأن نشأة صناعة النحاس كانت فى تلك البلاد (*H. Frankfort, The Art and Architecture of the Ancient Orient* (1954), p. 203.

أما الذهب واللازورد فكان يجلبهما التجار من إقليم باكتريا (*Bactria*) فى أفغانستان عن طريق إيران ، كما كانت عيلام تمد بلاد الرافدين دائما بأنواع الحيوانات لتبقى على سلالتها ، لأن جو السهل لم يكن صالحا لها .

عليه فى الألف السابق لولا أن أصبحت إيران مسرحا لحادث تاريخى هام لم يؤثر على الهضبة الإيرانية فحسب ، بل وأثر أيضا على جميع بلاد الشرق القديم ، بل وما زال أثره باقيا حتى الآن .

ذلك هو بدء هجرات عدة شعوب من أواسط آسيا أطلق عليهم الباحثون فى العصر الحديث اسم الشعوب الهندو - أوروبية . لم يفد أولئك القوم كمحاربين، وإنما أتوا كمهاجرين من بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وحيواناتهم ليستقروا فى بلاد غير موطنهم الذى ربما يكون الجفاف قد أصابه لفترات طويلة جعل العيش مستحيلا فيه ، ففروا بأنفسهم منحدرين إلى السهول ، أو ربما يكونون قد فروا أمام هجوم شعوب أخرى عليهم من ناحية الشرق[1] .

لم يكن كل أولئك المهاجرين من شعب واحد ، ولم يهاجروا فى وقت واحد ، بل ولم يتخذوا طريقاً واحداً . أما موطنهم الأصلى الذى نشأوا فيه فعلى أرجح الآراء كان فى السهول الجنوبية من الاتحاد السوفيتى .

وحوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . أو قبل ذلك بقليل ، بدأت طلائعهم تنزل إلى أعالى الفرات واستقر بعضهم فى سوريا ، أولا كقوم مسالمين فى خدمة غيرهم ، ثم أصبحوا قوة حربية متماسكة وكونوا فى أماكن كثيرة مراكزاً لنفوذهم وأصبحوا خطراً على أمن البلاد بصفة عامة ، ولكنهم لم يصبحوا خطراً حقيقياً إلا بعد مضى فترة من الزمن لا تقل عن قرنين من الزمان أو ثلاثة قرون وبعد أن جاءت إليهم أفواج أخرى من جنسهم .

وكان هناك طريقان رئيسيان للهجرة سار فى كل منهما بعض الشعوب أحدهما الطريق الذى سار فيه بعضهم حول البحر الأسود ونزلوا إلى البلقان ، ثم تقدم

---

(١) من الجائز أن تلك الشعوب قد فرت لضغط شعوب أخرى من تلك التى كانت تسكن فى منشوريا وفى منغوليا ، وكانت بينها وبين الصينيين معارك مستمرة . وقد تكرر حدوث مثل تلك الهجرات بسبب ضغط تلك القبائل (قبائل الهون) أكثر من مرة فى التاريخ فيما بعد ، كما أنه من الجائز أيضاً أن تكون الهجرة قد حدثت بسبب تكاثر القطعان وعدم كفاية المراعى لها .

فريق منهم فعبر بوغاز البوسفور ووصل أخيراً إلى آسيا الصغرى حيث وجدوا هناك شعباً يسميه علماء الأجناس « الأناضوليين القدماء » ، وهم شعب جبلي من أصل أسيانى . ولم يطل عليهم الوقت حتى أصبح هؤلاء الوافدون الجدد الطبقة الحربية المتسلطة على غيرها ، وكونوا دولة الحيثيين التى أصبح لها فيما بعد شأن يذكر ، وهجموا على بابل فنهبوها ، ولكنهم عادوا أدراجهم على عادة البدو ، ولم يثبتوا أقدامهم هناك . وبعد مدة من الزمن قامت بينهم عائلة طموحة كانت قد تحضرت ، فخرجت غيثاً فى منتصف الألف الثانى لتشييد إمبراطورية واسعة شملت بعض الشعوب الأسيانية والشعوب الهندو - أوربية التى كانت تحكم فى سهول بلاد الرافدين وشمال سوريا إلى أن اصطدمت بالإمبراطورية المصرية[1] .

أما الفرع الآخر من تلك الشعوب فهو الفرع الذى اتجه نحو الشرق ، والذى دار حول بحر قزوين وعبر القوقاز واستقر أخيراً فى أعالى الفرات .

وربما كانت القبائل التى سارت فى ذلك الطريق أو أحد فروعها الهامة مكونة من العنصر الحربى الأرستوقراطى بين تلك الشعوب . نزل هذا الفرع الجديد فى وادى الرافدين واستقر فى البلاد التى كان يحتلها شعب أسيانى آخر وهو الشعب الحورّى ، ولم يمض غير وقت قليل حتى صار اسمهم مملكة ميتانى التى بسطت نفوذها على شمال بلاد الرافدين (المنطقة المعروفة الآن باسم كردستان) وعلى وديان شمال جبال زاجروس ، وصارت وجهاً لوجه أمام دولة أشور ، وأصبحت خطراً حقيقياً عليها . ووصلت هذه المملكة الجديدة إلى أوج عظمتها فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد (حوالى ١٤٥٠ قبل الميلاد) ، وتحالف ملوكها مع فراعنة مصر وصاهروهم .

---

(١) ذلك هو أحد الآراء عن أصل الحيثيين ، ولكن هناك رأى آخر وهو أنهم من السكان الأسيانيين الأصليين فى هضبة آسيا الصغرى .

وسار فرع آخر من تلك الشعوب متجها نحو الشرق محاذياً لجبال زاجروس ، واستقر أكثرهم إلى الجنوب من الطريق التجارى الكبير التى كانت تسير فيه القوافل ، وكونوا من أنفسهم طبقة حاكمة بين الكاسيين (وهم شعب أسيانى مثل الحوريين) ، وأصبحوا أصحاب السلطة فى تلك المنطقة التى اشتهرت بأنها تنتج خير جياد العالم .

لم يكن القوم الذين آثروا الاستقرار فى أرض الكاسيين إلا أقلية منها ، أما السواد الأعظم من تلك الشعوب فقد استمر فى طريقه نحو الشرق فعبروا تلك البلاد ووصلوا إلى سهل بكتريا فى أفغانستان ومروا من هناك فى الممرات الجبلية إلى الهندو — كوش ، ومن الهندو — كوش ساروا فى طريق القوافل إلى الهند منحدرين مع مجرى نهرى بنديشير (Pandishir) وكابول حتى وصلوا إلى شمالى الهند ، فاستقروا فيها وهاجموا مراكز حضاراتها القديمة مثل موهنچو دارا وهارابا ، وأسسوا ممالك جديدة ، وأدخلوا دياناتهم إلى تلك البلاد ، ومزجوا بين عاداتهم وبعض العادات المحلية . وأصبحت لغتهم هى اللغة السائدة وضاعت اللغة القديمة ، وما زال يعيش أحفادهم حتى اليوم ، وأقربهم إلى أولئك الأجداد وأحفظهم لتقاليدهم وأساطيرهم هم طائفة الهندوس .

كان السواد الأعظم من أولئك الهندو — أوروبيين يعيشون حياة البداوة وكانوا يمتازون بالقوة والجلد ولديهم ميزة حب القتال ، ويربط بينهم نظام قبلى . وليس معنى حياة البداوة أنهم لم يعرفوا التقدم أو كانوا همجا لم يصل إلى علمهم شىء من مقومات الحضارة ، ولكنهم كانوا أقواما يعرفون الكثير من الأشياء ، وعلى الأخص ما يتعلق منها بالحرب أو الدفاع ، كما عرفوا بعض الصناعات التى تناسب بيئتهم المتنقلة ، وكانوا يحسنون الفروسية وصنع الأسلحة وما يماثلها من الأدوات المعدنية .

وأمثال تلك الشعوب لا ينقصها الذكاء ، ولا تنفر من اقتباس كل ما يقع تحت أنظارها إذا وجدته نافعاً لها ، ولكنها تنفر من ترك تقاليدها المتأصلة فى

نفسها ، وكثيراً ما يبقى زعماؤها قادة حربيين لشعوبهم ، يعيشون فى حصون أو فى خيام ولا تحلو لهم متعة فى أوقات فراغهم مثل متعة الصيد الذين يرون فيها مرانا لهم ، وميدانا تتجلى فيه مواهب الشباب من أبنائهم أو أتباعهم .

ومن الملاحظ أن الأجيال القليلة الأولى من أمثال تلك الشعوب تظل فى هدوء نسبى ، ولا تسبب مضايقات لا مبرر لها مع أى سكان ينزلون بينهم ، ولكن أبناءهم الذين يشبون على مرأى من مظاهر الحضارة ، وربما كانت أمهاتهم من بنات البلاد التى ينزلون بها يصبحون أمراء أذكياء ناجحين ، ويطمحون نحو التوسع ، وينجحون فى ذلك بفضل تماسك قبائلهم وقوتهم الحربية ، وبفضل من ينضم إليهم من أبناء البلاد أنفسهم طمعا فيما ينالونه من مغانم فى تلك الحروب .

ولنكتف الآن بهذه المقدمة البسيطة عن الشعوب الهندو — أوروبية فسنلتقى بهم منذ الآن مرات ومرات ، وننتقل إلى الحديث عن إيران بادئين بعيلام .

عيلام والكاسيون فى إيران :

كانت تلك المنطقة — كما سبق أن أوضحنا — ذات طابع خاص ، وتتأثر بما يجرى فى بلاد الرافدين مثل تأثرها بما يجرى فى الهضبة الإيرانية ، أى أن تاريخها طوال أيامها كان شداً وجذباً بين سكان الجبال فى الهضبة ، وسكان السهول فى بلاد الرافدين .

وعندما بدأ الألف الثانى قبل الميلاد كانت عيلام مستقلة بنفسها عن بلاد الرافدين ، وتحكمها عائلة منها ، ولكن تأثرهم ببلاد الرافدين جعلهم يستخدمون اللغة الأكدية والكتابة الأكدية فى معاملاتهم بعد أن تسربت إليها بعض الكلمات العيلامية ، ولكنهم ظلوا يعبدون آلهتهم القديمة ، وعلى الأخص « شالا » وزوجها « إنشوشيناك » وإن كانوا فى الوقت نفسه يقدمون القرابين والعبادات إلى بعض الآلهة البابلية .

وغزا العيلاميون فى مستهل ذلك الألف بلاد بابل ، وأسس أحد أمرائهم مملكة فى « لارسا » ، وما لبث العيلاميون أيضاً حتى استولوا على « إيسين » وبسطوا سلطانهم على مدينة « الوركاء » بل وعلى مدينة « بابل » نفسها ، ولم يقف هذا التوسع إلا عندما تولى حورابى عرش مدينة بابل فى عام ١٧٢٨ ق. م. وبعد أن قضى واحداً وثلاثين عاما على العرش ، دانت له فيها بلاد كثيرة ، واتسع ملكه وأصبح قوياً واثقاً من نفسه ، قرر أن يهاجم خصمه العيلامى « ريم ـــ سين » ، وبعد عدة معارك انتهى حورابى من القضاء على استقلال عيلام . وبعد دورة أخرى من دورات الزمن ، بعد ما يقرب من قرن آخر ، حاول أحد العيلاميين استعادة ذلك الاستقلال ، ولكن ذلك الأمر لم يطل فقد كان الكاسيون يتأهبون للقيام بعمل جديد قضى على سلطان كل ملوك بلاد الرافدين وغيرهم من سكان تلك المنطقة .

ليس الكاسيون فى الأصل شعباً هندو ـ أوروبيا بل كانوا آسيانيين وفدت إليهم بعض الشعوب الهندو ـــ أوروبية ، فأقامت بينهم وامتزجت بهم ، فكان ذلك الامتزاج وتلك الهجرة باعثاً على ظهور نهضة جديدة بين ذلك الشعب .

على أية حال فإن وطن أولئك الكاسيين هو ما نسميه اليوم لورستان (Luristan) وهو الجزء الأوسط من منطقة جبال زاجروس ، ولكنهم مدوا سلطانهم على أجزاء أخرى من الهضبة ، وفى وقت من الأوقات كانت عاصمتهم عند مدينة إكباتانا ، ومكانها الآن على الأرجح مدينة همدان .

كان الكاسيون فى عهد حورابى ، أى فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، قد أصبحوا شعباً واحداً لأن المهاجرين كانوا قد تأثروا بحضارة أهل البلاد الأصليين واقتبسوا منهم لغتهم وبعض عاداتهم ، [1] ولكنهم أدخلوا بدورهم

---

(١) أما ديانة الكاسيين فقد كانت مزيجا من الديانة القديمة وديانة تلك الشعوب الهندو ـــ أوروبية ، وكان إله الكاسيين الرئيسى يسمى كاشو Kashshu وإليه ينتسب الكاسيون. أما الآلهة الجديدة التى وجدت طريقها إليهم فمن بينهم بعض الآلهة التى نعرف أسماءها فى ديانات الهند مثل شورياش (فى الهند سوريا ، Surya). وماروتاش (فى الهند ماروت Marut) .

إلى البلاد روحا حربية جديدة ، وكون أحفاد المهاجرين القدماء طبقة أرستوقراطية لها زعامة الحرب . وكان للخيل بينهم مكان مرموق ، بل يمكن القول إنهم كانوا يعبدون الحصان ، ويتخذون منه هو والشمس رموزا مقدسة لديهم[1] .

وظل الكاسيون يحكمون بلاد بابل نحو ٥٠٠ سنة ، ولكن بلاد عيلام التى كانت هى الأخرى خاضعة للكاسيين استطاعت أن تزيح النير عن عاتقها ، وتستقل بأمورها ، وتبدأ عهدا جديدا من أعظم عصور حضارتها فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد كشفت الحفائر فى منطقة سوسا فى السنوات الأخيرة عن آثار على أكبر جانب من الأهمية وخاصة الزقورة التى كشفت عنها الحفائر فى موقع شوجا زمبيل (Choga Zambil) على مقربة من مدينة سوسا إذ وجدوا أن لها ثلاث سلالم كل من ناحية بدلا من وجود الثلاثة فى ناحية واحدة حسب تنظيم الزقورات البابلية . كما وجدوا أيضا فى تلك الزقورة العيلامية أن كل سلم من هذه السلالم الثلاثة تنتهى بهيكل أى أنه كان هناك ثلاث هياكل بدلا من الهيكل الواحد الذى كانت تنتهى إليه السلالم الثلاثة فى الزقورات البابلية[2] . كانت أزهى سنى تلك الأسرة العيلامية فى المدة بين أعوام ١٢٠٧ و ١١٧١ أى عهد الملك المسمى « شوتروك ــ نهونته الأول » (Shutruk-Nahhunte 1) الذى بنى كثيرا من المعابد فى المدن المختلفة فى عيلام ، ولم يقف عند ذلك ، بل هاجم بابل واستولى عليها وهزم جيوش مملكة الكاسيين التى كان قد أصابها الانحلال ودب إليها الوهن ، وخلع الملك الكاسى وعين بدلا منه ابنه الذى قبل أن يكون واليا

---

(١) ترك شعب الـ « كاسى » (كما كان ينطق فى النقوش الأشورية) اسمه وراءه فى مدينة قزوين (Kasvin) وفى اسم بحر قزوين ، كما أن كلمة القصدير « كاسيتيروس » باليونانية معناها المعدن « الآتى من الكاسيين » ، وكان اسم مدينة همدان قبل العصر الميدى Akessaia وهى مشتقة من كلمة « كار ــ كاسى » الأشورية ومعناها مدينة الكاسيين
R. Girshman, Iran (Pelican Books), p. 65.

(٢) تقرير جيرشمان الذى نشره فى مجلة *Illustrated London News : 8 August* 1953, p. 226-7. وكذلك *H. Frankfort, Ibidem*, p. 204

يؤدى له الجزية ويقدم له الطاعة ، وحمل « نهونته » معه إلى سوسا كثيرا من تماثيل الآلهة ومن بينها تمثال الإله « مردوك » الإله الأعظم لبابل .

وتوسعت دولة عيلام بعد ذلك فى فتحوحاتها ، وأخذت تحى أمجادها الوطنية القديمة وتخلص نفسها من كل أثر سومرى أو بابلى اعتبرته أجنبيا عنها ، ولكن لم يمض إلا بضع عشرات من السنين حتى دب الضعف مرة ثانية فى عيلام ، وفى الوقت ذاته أخذت دولة أشور فى شمال بلاد الرافدين تدخل فى فترة من فترات قوتها .

وقبل أن تغيب شمس الألف الثانى أى حوالى عام ١١٢٥ كانت مملكة بابل قد قامت من كبوتها واستطاع الملك نبو ختنصر الأول (Nabu-Kudurri-Usur) أن يسحق دولة عيلام ويعيد تمثال مردوك إلى بابل باحتفال عظيم ووضعه فى معبده . ولكن دولة بابل اصطدمت بعد ذلك مباشرة بأشور وبدأ الملك الأشورى تيجلات بلسر الأول (Tiglath Phalasar) حملاته الواسعة التى أخضع فيها كل ما حوله من بلاد حتى وصل إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وكان من بين البلاد التى أخضعها عيلام . وسواء اجتاحت جيوشه بلاد الهضبة الإيرانية أو لم تجتحها فإن أشور أصبحت سيدة تلك المنطقة من آسيا ، ونزلت إيران مرة أخرى إلى زاوية من زوايا النسيان ، ولكن إلى حين .

إيران فى الألف الأول قبل الميلاد :

وربما كان العنوان الأصح لهذه الفترة هو النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، لأن هذا الفصل ينتهى عند ظهور الدولة الأخمينية فى القرن السادس قبل الميلاد عندما تبدأ إيران عصرها الذهبي التى أصبحت فيه إمبراطوريتها أعظم ما رآه العالم القديم ، ودانت أمم الشرق لجيوشها المنتصرة .

سنقف فى هذا الفصل عند ظهور تلك الدولة ، وسنقص هنـــا باختصار الخطوط الرئيسية لتاريخ إيران فى الأربعة قرون الأولى من الألف الأول قبل

الميلاد ، وهى وإن خلت من كثير من أسماء الملوك أو أعمالهم فإنها عامرة بالشيء الكثير من حضارة شعوب تلك الهضبة وحوادثها الهامة التي هيأت الطريق لظهور الميديين ثم الفرس على مسرح لتاريخ .

ففي الربع الأخير من الألف الثانى قبل الميلاد أخذت جماعات من الشعوب الهندو - أوروبية تأتى مهاجرة ، كما حدث من قبل ، ونزلت من مواطنها فى جنوبى الروسيا وأواسط آسيا لتستقر فى أوروبا وفى الشرق ، ولكنها كانت فى هذه المرة قوى حربية أكثر تنظيما ، ويستخدم جنودها الجياد على نطاق واسع ، وكانت لهم أساليب حربية خاصة بهم أكثر مما كان لديهم فى هجراتهم السابقة . ومنذ عام ١٢٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب نرى جحافلهم وقد دارت حول البحر الأسود ووصلت إلى البلقان . ونرى القبائل المعروفة باسم الشعوب الليرية تدفع أمامها الشعوب التراقيـــة والشعوب الفريجية والأرمنية والميسينية إلى آسيا الصغرى فانقضت بدورها على دولة الحيثيين فهزمتها وقضت عليها . وهاجرت شعوب أخرى من تلك التي جلت عن ديارها فى أوروبا ، وركبت السفن وأخذت تجوب البحر الأبيض المتوسطة باحثة عن أوطان جديدة ، فاستقر بعضها على الشاطىء الشمالى لإفريقيا ، واستقر بعضها فى جزر البحر الأبيض أو على شواطئه الشرقية ، وأصبحوا خطرا كبيرا على مصر عندما أخذوا يهاجمونها من حدودها الغربية فى عهد الملك منفتاح ، ثم زاد خطرهم عندما تحالفت تلك الشعوب وهاجمت مصر من البر والبحر فى وقت واحد فى عهد الملك رمسيس الثالث ، إذ لولا صمود المصريين لهم فى ذلك الوقت لتكررت نكبة الهكسوس ، بل وربما كانت فى هذه المرة أشد وأبعد أثرا .

واستقرت شعوب كثيرة فى جهات متفرقة من سوريا وأسس زعماؤها إمارات مستقلة ، كما تحدثنا عن ذلك فى الفصلين الخاصين بسوريا ، ولكن سيل الهجرات لم يقف بل أخذ يزداد . وفى بداية الألف الأول أخذت بعض تلك الشعوب ، وهى التي يطلق عليها اسم الإيرانية ، تستقر فى هضبة إيران . كان

أولئك الشعوب ممن يحيون حياة البداوة معتمدين على قطعانهم ، ولم يكونوا من الشعوب الزراعية ، كما كانوا يحسنون أيضــــا تربية الجياد ويحسنون ركوبها واستخدامها فى الحروب . ولم يمض وقت طويل حتى كان زعماؤهم يحيون حياة الأمراء الإقطاعيين ، يعيش كل منهم محاطا بجنوده وبلاطه ، ويبذل العمال والصناع جهدهم فى خدمته ، ويعمل الفلاحون من أجله فى أراضيه التى يملكها ولا يستطيع التجار أن يزاولوا عملهم إلا بإذنه ورضائه ، بعد أن يخضعوا لما يفرضه عليهم .

وإذا كان أمراء تلك الشعوب قد استقروا فى بعض جهات آسيا الغربية أو فى هضبة إيران وما جاورها ، فإن الآشوريين فى بلاد الرافدين كانوا فى تلك الفترة وهى القرون الأولى من الألف الأول قد دخلوا فى إحدى دورات قوتهم بل فى أعظم أيام الإمبراطورية الآشورية ، ولهذا خضع لها من كان فى طريق فتوحها من أولئك الأمراء غربا فى سوريا وفى غيرها . ولم يقف فى وجههم من ناحية الشرق إلا قوتان إحداهما مملكة أورارتو أو أرارات التى عرفت باسم أرمينيا فيما بعد وكانت فى الشمال ، أما القوة الثانية فكانت الإيرانيين الذين كانوا فى الهضبة . ولنترك الآن الآشوريين ونترك الأورارتيين ، ونقصر حديثنا فقط على الإيرانيين .

فقد عثر فى بقاع مختلفة من الهضبة على بعض مقابرهم وعلى القليل جدا من بقايا عمائرهم الحربية ، ومن أهم تلك الأماكن سيالك فى واحة قاشان حيث شيد أولئك القوم الحصن الذى كان يقيم فيه زعيمهم فوق المرتفع الذى كان يقيم فيه أهل سيالك فى عصر ما قبل التاريخ[1] . ولم يتبع الإيرانيون ما كان يتبعه أهل سيالك القدماء من عادة دفن الموتى تحت أرضية المنازل ، بل كانوا يدفنون موتاهم فى جبانات خاصة ، وكانت سقوف المقابر مدببة على شكل جملون مثل سقوف منازل الشعوب الشمالية ، وكانوا يضعون إلى جوار الميت أسلحته وحليه وملابسه

---

(١) نرى على بعض الآثار الآشورية رسوما لمعابد أو حصون كان قد أقامها بعض أولئك الشعوب الذين اصطدم بهم الأوشوريون .

وكثيراً من الأوانى ، وغير ذلك من الأشياء الخاصة . وقد عثر «جيرشمان» على آلاف من تلك الأشياء ، من الحراب والسيوف والخناجر وأنواع الأسلحة المختلفة ، ومنها أطقم الخيـــل ، كما وجد أيضاً كثيراً من الحلى مثل الأساور والعقود والأقراط والخلاخيل ، وبعض ما كان يتحلى به النساء والرجال من أحزمة وصديريات ، وما كان النساء يضعنه فى شعورهن من دبابيس معدنية طويلة لها رؤوس حيوانات ، أما المعادن التى صنعت منها تلك الأسلحة والحلى والأوانى فإنها كانت فى الغالب من النحاس والبرونز ، ولـكن أكثر أسلحة الزعماء كانت من الحديد ، أما الحلى فكان بعضها من النحاس والبعض من الفضة أو الحديد أو الذهب .

واستمر الإيرانيون فى صناعة الأوانى الفخارية وزخرفتها ، ونجدهم قد مزجوا الفنون المحلية القديمة ببعض تأثيرات غريبة جديدة ، ونرى على بعضها زخارفاً جميلة يدخل فيها رسم الحصان والشمس مع بعض رسوم هندسية ، كما نرى على بعضها مناظر المحاربين التى تذكرنا بأقدم زخارف الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى اليونان ويرجع تاريخها إلى ذلك العصر على وجه التقريب .

الـكيمريون والإسكيذيون :

ووردت أسماء بعض الشعوب الإيرانية فى الوثائق الآشورية ، ففى حوليات الملك شمنصر الثالث ذكروا اسم الفرس (Parsua) فى عام ٨٤٤ قبل الميلاد ، وذكروا الميديين (Madai) فى عام ٨٣٦ ، وكان الفرس إذ ذاك يحتلون المنطقة التى تقع إلى الغرب والجنوب الغربى من بحيرة أورميا ، أما الميديون فكانوا فى الجنوب الشرقى منها . ووردت أسماء غيرهم أيضا ، ولـكن هذه الشعوب لم تظل فى أمكنتها بصفة دائمة ، بل أن فروعا منها كانت تترك موطنها لتستقر فى مناطق أخرى من الهضبة وكانت تحمل معها أسماءها الأصلية ، ولهذا يصعب علينا فى تلك الفترة أن نحدد بالضبط موطن أى شعب من تلك الشعوب فى الهضبة الإيرانية

لأنهم كانوا يشنون الغارات على بعضهم البعض وتنتقل فروع منهم من واد إلى واد ، إذا طاب لها العيش هناك وأجلت عنه أهله القدماء .

ومهما حاولنا إغفال ذكر أسماء من نعرفهم من تلك الشعوب التى استقرت فى الهضبة الإيرانية فى ذلك العهد فإنه لا بد من ذكر اسمى شعبين وهما «الكيمريون» (Cimmerians) والإسكيذيون (Scythians) إلى جانب الميديين والفرس لأن كلا من هؤلاء الأربعة لعب دوراً رئيسياً فى تاريخ إيران فى تلك الفترة .

فقد هجمت جحافل الكيمريين والإسكيذيين على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ، وأصبحت لها السلطة فى شمال غربى إيران ، وكان دأبهم هو النهب والقتل وإحراق البلاد وتدميرها . نزلوا كما وصفهم أحد المؤرخين «كمجرى من نيران البراكين» يحطمون كل ما فى طريقهم ، وقد عرفنا الشىء الكثير عنهم مما سجلته الوثائق الأشورية وما كتبه المؤرخ الإغريقى هيرودوت ، ومن المرجح أن هاتين القبيلتين كانتا من أصل واحد ، وربما كان الكيمريون من سكان شبه جزيرة القرم ، تركوا موطنهم وداروا حول البحر الأسود . وكانت أولى الدول التى تحطمت أمام جحافلهم هى أوراتو حوالى عام ٧١٤ ق . م . ، ثم انقسموا بعد ذلك إلى فريقين ، سار فريق منهم إلى بحيرة أورميا فى الهضبة ، وسار الفريق الأكبر إلى آسيا الصغرى محطما كل من وقف فى طريقه ، ثم استقروا أخيراً فى جنوبى البحر الأسود عند مدخل نهر الهالس . وقضى الكيمريون على مملكة الفريجيين فى آسيا ، وانتحر ملكها « تيداس » كما فعل «روساس» ملك أوراتو من قبل ، ثم مالوا بعد ذلك على مملكة ليديا فهزموها ، وساروا إلى كيليكيا ولكن أشوربانيبال استطاع أن يطفىء تلك النار المستعرة وينقذ آسيا الصغرى وسوريا منهم ، فهزمهم وفروا راجعين إلى الهضبة ليعيشوا مع أبناء عمهم الإسكيذيين .

أما الإسكيذيون أنفسهم فلهم أيضاً تاريخ آخر . فقد كانوا فرعا من دوحة كبيرة عثر على كثير من مقابر ملوكهم فى جنوبى الاتحاد

السوفيتى[1] . وفى الوقت الذى نحن بصدده الآن ، امتد نفوذ تلك القبيلة المهاجرة إلى إقليم أذربيجان الفارسى وعلى منطقة واسعة حوله ، وقد عثر الحفارون منذ سنوات قريبة على أثر لأحد الملوك الإسكيذيين على مقربة من مدينة « ساكيز » فى جنوبى بحيرة أورميا فى الكردستان ، ولسنا نعرف على وجه التحديد إذا كانت تلك المجموعة النفيسة التى تفرقت بين متحف طهران وبعض المتاحف الأجنبية والمجموعات الخاصة ، قد عثر عليها فى خرائب أحد القصور أو فى قبر أحد الملوك ، وهى على أية حال مجموعة من أهم ما عثر عليه فى تاريخ إيران ، نرى فيها الفن الإسكيذى الوطنى ، ونرى بينها أيضاً بعض تحف أشورية خالصة ربما تلقاها ذلك الملك كهدية من الملك أسر حدون (٦٨١ — ٦٦٨ ق . م .) أو أحد خلفائه ، وفيها بعض التحف التى نرى فيها الفنين قد تآلفا ، ونجح الفنان فى مزجهما معا بنجاح . على أية حال فيجب أن نضع فى أذهاننا أنه لا يمكن دراسة تلك التحف النادرة إلا بمقارنتها بما سبق العثور عليه من آثار الملوك والزعماء الإسكيذيين التى وجد الكثير منها ابتداء من غربى منغوليا فى الشرق حتى بلاد المجر فى الغرب ، وكان مركزها الرئيسى فى جنوبى سيبيريا .

وعلى ذكر كنز مدينة « ساكيز » يجب ألا ننسى أنه قد عثر أيضا فى منطقة « لورستان » فى إيران على كثير من الأدوات البرونزية الهامة ، وهى أيضا من

---

(١) يظهر أن ملوك هؤلاء القوم كانوا يعيشون فى جنوبى سيبيريا وفى إقليم خرسون حيث بدأ الروس منذ عام ١٧٦٣ يعثرون على مقابرهم التى احتوت على كنوز كثيرة من الحلى الذهبية والأوانى وغيرها التى كانت توضع مع أولئك الملوك . وفى عامى ١٨٧٥ ، ١٨٧٦ قررت إدارة الآثار هناك عمل حفائر فى تلك المنطقة فى الأكوام الكثيرة المنتشرة فى كثير من الأقاليم وفى عامى ١٩١٣ ، ١٩١٤ حفروا فى كوم كبير على مقربة من مدينة ميليتوبول Melitopol فى إقليم تاورين ، كما استأنف العلماء الروس بحث تلك المقابر فى الأعوام الأخيرة وقد عثر فيها على نفائس كثيرة محفوظة فى متاحف الاتحاد السوفيتى وبخاصة فى متحف لينينجراد والمعتقد بوجه عام أن تاريخ تلك المقابر الملكية يعود إلى الفترة بين القرنين السادس والثالث قبل الميلاد Friedrick Behn, *Ausgrabungen und Ausgraber* (1955), p. 133-139 أنظر أيضاً كتاب Frankfort, *The Art and Architecture of the Ancient Orient* p. 205-6 والمراجع التى ذكرها الأستاذ E.H. Minns فى بحثه المسمى *The art of the Northern Nomads, in Proceedings of the British Academy, 1942.*

صناعة إيرانية من أيام الإسكيذيين ، وبعضها متأثر بالفن الآشورى ، ولكنها تمتاز بالكثير من مظاهر الفن الإسكيذى النقى وبخاصة إتقانهم تمثيل الحيوانات ، وتتجلى مهارتهم فى القطع المصنوعة من البرونز ، والتى كانت فى الأصل أجزاء من أطقم الخيل ، أو كانت مثبتة فى بعض أدوات القتال .

الميديون :

وفى الوقت الذى كانت فيه دولة الإسكيذيين فى عنفوان قوتها فى إيران ، أخذ الميديون يوحدون بين قبائلهم التى كانت منتشرة فى منطقة تمتد من جبال دوماوند حتى مدينة همدان .

تحالف الميديون مع الكيمريين ومع سكان جبال الكردستان ؛ واطمأنوا إلى ارتباطهم برباط الصداقة مع الإسكيذيين ، وتم لملكهم خشاثريتا (Khshathrita) إخضاع الفرس الذين قبلوا دفع الجزية لهم . وبعد ذلك طمعوا فيما هو أكثر من ذلك ، فقرر ملكهم غزو بابل ، وانتهز الإسكيذيون هذه الفرصة ، فهاجموا الميديين فى عقر ديارهم وأخضعوهم لنفوذهم فظلوا على ذلك ثمانية وعشرين عاما من ٦٥٣ — ٦٢٥ قبل الميلاد ، كما ذكر هيرودوت ، وكان ملك الإسكيذيين فى ذلك الوقت يسمى «ماديس» (Madyes) ، وهو ابن الملك بارتاتوا (Partatua) الذى كان حليفاً للآشوريين[1] .

وكان ذلك الانتصار خير مشجع للإسكيذيين على التوسع فى فتوحهم ، فاتجهوا غرباً وخربوا أشور ، وانضم إليهم الكيمريون ، فاتحدت قبائل الشعبين ونزلت لتنهب كل ما تجده فى بلاد آسيا الصغرى وشمالى سوريا وفينيقيا وفلسطين ، ولم يقفوا إلا عند حدود مصر ، ناشرين القتل والحرق والنهب فى كل مكان ، ثم عادوا بعد ذلك إلى موطنهم .

---

(١) يعتقد جيرشمان أن كنز ساكيز ربما كان من عهد بارتاتوا أو من عهد ابنه ، وأن بعض تلك الحلى جاءته من حليفه ملك أشور والبعض الآخر من صنع بعض الصياغ الأشوريين الذين ذهبوا وأقاموا فى بلاطه فى إيران Ghirshman, *Iran*, p. 106

ويحدثنا هيرودوت عن الميديين بأنهم كانوا يعدون أنفسهم للثأر من الإسكيذيين والاستقلال بأمورهم فتم لهم ذلك بعد الثمانية والعشرين عاماً، وهزموا أعداءهم وأجلوا جنودهم عن المنطقة .

كان ملك الميديين الذى قام بتخليص بلاده يسمى كيا كسارس، وقد تم له توطيد نفوذه ، وعادت لبلاده قوتها واسترجعت سيطرتها على الفارسيين وعلى المنايين (سكان جبال الكردستان وأجداد الأكراد)، واتخذ من مدينة إكباتانا، ومكانها الآن مدينة همدان، عاصمة لمملكته. ولم يكتف كيا كسارس بذلك بل أراد مهاجمة بلاد الرافدين ونفذ ذلك فعلا ، وتم له الاستيلاء على أشور بعد تحالفه مع ملك بابل ، وتطلع إلى ما هو أبعد من ذلك ودفع بجنوده إلى آسيا الصغرى إلى أن اصطدموا بمملكة الليديين ، ولكن الصلح تم بينهم .

وعندما مات كيا كسارس فى عام ٥٨٤ ق . م . كانت معظم ممالك آسيا الغربية باستثناء ليديا تقع إما تحت نفوذ الميديين أو البابليين ، ولم يكن هناك مناص من حدوث التصادم بينهما، فبذل الملك البابلى نبوخذنصر كل ما فى وسعه لعمل التحصينات اللازمة ، ولكن صداقة الميديين مع البابليين والمصاهرة بين العائلتين المالكتين لم يحل بين الميديين وحلفائهم من شعوب الهضبة الإيرانية من مهاجمة بابل نفسها.

الصدام بين الميديين والفرس :

وفى عام ٥٥٥ ق.م. تولى عرش بابل الملك « نابونيد » الذى اشتهر فى التاريخ القديم بحبه للآثار القديمة وعنايته بها وتجديدها فى كل أرجاء مملكته ، فلم تشغله أبحاثه ودراساته عن الاستعداد لاتقاء خطر الميديين فتحالف مع ملك الفرس ضد الملك أستياجس (Astyages) الذى خلف أباه كيا كسارس على عرش الميديين .

وبالرغم من أن الفرس كانوا خاضعين للميديين إلا أن سير الأمور فى هضبة إيران أخذ طريقاً آخر عندما تولى عرش الفرس ، حاكم شجاع حكيم، وهو «قورش»

حوالى عام ٥٥٩ ق . م . كان قورش ملكا على قومه فى مملكة صغيرة تسمى أنشان ، وكان « قورش » طموحاً جريئا ذكياً ، جمع شمل القبائل الفارسية أولا ثم جند أيضاً رجالا من الفلاحين ، ولم يقتصر على طبقة الفرسان ، واستطاع بعد سنوات ثلاثة أن يهزم الملك الميدى ويصبح سيداً للمنطقة كلها .

كان «قورش» ، ذلك الفاتح الجديد مليئاً بحيوية متدفقة ، وسرعان ما أحسن تنظيم وتدريب جنوده وبخاصة المشاة الرماة الذين كانوا يبدأون المعارك فيصيبون بسهامهم من أعدائهم المقاتل ، فإذا ما بدأت صفوف العدو تتخاذل أو يدب بينها الارتباك هجم الفرسان من الجناحين فيجهزون على عدوهم ، ولا شك أن الفرس تعلموا تلك الطرق من الأشوريين الذين كانوا من أعظم من رآهم الشرق كجنود محاربين .

وتطلعت الدول التى فى غرب آسيا إلى هذا الفاتح الجديد ، وعقدت بابل وليديا (التى كان يحكمها كرويسوس) وبعض الشعوب الإغريقية فيما بينها تحالفاً ضد الفرس ، وكان ملك ليديا هو الداعى له ، فما كان من «قورش» إلا أن هاجمه فى دياره ، واستولى على عاصمته عام ٥٤٦ ق . م . وأخذه أسيراً ، وفى أقل من خمس سنوات أصبحت فارس تحتل المكان الأول فى الشرق ، وخضعت لها جميع البلاد من عيلام حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، ومن بينها ممالك آسيا الصغرى .

وأسس قورش عاصمته وبنى قصره عند پازارجاده (Pasargadae) ، كما بنى هناك أيضاً معبداً للديانة التى كان ينادى بها زرادشت الذى كان معاصراً لقورش ولكن قورش العظيم الذى أخضع كل تلك الأمم لسلطانه لم يكن يتأخر فى أى وقت من الذهاب إلى أى حرب على رأس رجاله ، وفى عام ٥٢٩ ق . م . سمع عن ثورة صغيرة قامت بها إحدى القبائل البدوية فى شمال إيران فذهب بنفسه لإخمادها ، ولم يترك ذلك لأحد قواده ، وأصابه أثناء القتال سهم قاتل فمات بعد أن أسس دولة الأخمينيين التى كونت الإمبراطورية الفارسية ، أعظم الإمبراطوريات التى شهدها العالم القديم .

الفصل السابع

الأخمينيون

لم يكن قورش قائدا حربيا ممتازا فحسب ، بل كان سياسيا قديرا عرف كيف ينظم ملكه الواسع ، كما اشتهر بتساهله مع من هزمهم من أعدائه وحسن معاملته للبلاد التى أخضعها ، وكان يتحاشى تخريب المدن أو حرقها أو قتل الأهالى ، ولم يمت حتى كانت امبراطوريته الجديدة ثابتة الأركان .

تمكن قورش من القضاء على نفوذ الحكم السامى فى بلاد الشرق القديم بعد أن أخضع بابل . وفى السنوات الثمانية الأخيرة من حكمه أشرك معه فى الملك ابنه « قمبيز » ومنحه لقب « ملك بابل » كما عهد لابن آخر يسمى « برديا » حكم الأقاليم الشرقية من امبراطوريته .

وفى عام ٥٣٠ ق . م . مات قورش فتولى « قمبيز » عرش البلاد من بعده ، وقامت بعض الاضطرابات فاتهم أخاه « برديا » بتدبيرها ، ودبر أمر اغتياله للتخلص منه . لم يكن قمبيز مثل أبيه بل كان قاسيا غريب الأطوار ، ولهذا أطلق عليه معاصروه من الإغريق لقب الطاغية .

كان قورش قد أعد العدة لغزو مصر ، وأوكل إلى ابنه قمبيز تدبير أمر الحملة التى كان يزمع تسييرها للاستيلاء عليها ، ولهذا نرى قمبيز بعد قضائه على الاضطرابات والمؤامرات التى اندلعت عند توليه العرش يذهب بنفسه على رأس الجيش .

لم تكن نية الفرس لغزو مصر خافية على المصريين ، فعمدوا إلى التحالف مع بعض اليونانيين ، وعقد أحمس الثانى (أمازيس) تحالفا مع « بوليقراط » ملك

جزيرة « ساموس » ، ولكن عند ما تأزمت الأمور ، ووصل الجيش الفارسى إلى غزة نقض « بوليقراط » عهده ، وترك مصر تواجه جيوش الفرس وحدها .

وكان أمازيس قد مات أثناء ذلك ، ووقع عبء الدفاع عن البلاد على عاتق خليفته الملك « بسامتيك الثالث » . ولم يكن نقض اليونانيين عهدهم مع مصر هو كل ما حدث، بل زاد الطين بلة أن اليونانيين الذين كانوا يعملون كجنود مرتزقة فى جيش مصر ، كانوا مصدر بلاء آخر ، إذ أن كبير قواد الجيش فى مصر ، وكان يونانيا ، خانها وذهب إلى قبيز وأفشى له جميع أسرار الدفاع عن البلاد .

وتقابل الجيشان عند رفح ، ولم تحارب الفرق الإغريقية فى الجيش المصرى الدفاع اللازم ، وكانت النتيجة هى هزيمة الجيش المصرى وارتداده إلى منف ، وهناك دارت معركة أخرى انتهت بسقوط العاصمة ووقوع بسامتيك نفسه أسيرا فى يد الفرس ، فأرسله « قبيز » إلى « سوسا » ليقيم فيها أسيرا .

لم يكن « قبيز » فى بداية الأمر قاسيا فى معاملته للمصريين ، بل أظهر شيئا غير قليل من احترامه لديانة المصريين ، وعين واليا مصريا ، وأمر بالقيام ببعض الإصلاحات ، كما سار بجيشه نحو الجنوب ، واستقر بعض الوقت فى طيبة . وأراد أن يزيد من التوسع فقرر وهو فى مصر أن يرسل ثلاث حملات حربية ، واحدة للاستيلاء على قرطاجنة ، والثانية للاستيلاء على واحة سيوة مقر وحى الإله أمون ، والثالثة للاستيلاء على كوش ، وقد قادها بنفسه .

فأما الحملة الأولى فقد فشلت لأن الفينيقيين رفضوا تسيير أسطولهم لغزو أبناء جلدتهم وأهلهم القرطاجنيين ، وأما الحملة الثالثة فقد كان نصيبها الفشل أيضا ، وهلك أكثر الجيش لنقص المؤن لأن الكوشيين انسحبوا نحو الجنوب فلاقى الجيش أهوالا كثيرة ، ولم يتمكن من الوصول إلى مروى فعاد مهزوما نحو الشمال ، أما ثانى الحملات فكان لها شأن آخر .

كان لواحة سيوة فى ذلك الوقت مركز خاص لأنها كانت مركز نبوءة اشتهرت بصدق ما يصدر عن كهنتها ، وكان الإغريق يثقون فيها ثقة كبيرة . وتنبأ

كهنة أمون بسوء المصير لقمبيز وفتوحاته ، فأراد أن يلقن هؤلاء الكهنة درساً قاسياً ، ويثبت للعالم أجمع كذب هذه النبوءة ، فأرسل عليهم تلك الحملة لكى يهدموا معبد أمون ويقتلوا أو يأسروا كهنته .

سارت الحملة من طيبة فوصلت إلى الواحات الخارجة وأخذت ما يلزمها من مؤن وأدلاء ، وغادرت الخارجة فى طريقها إلى سيوة ، ولكن لم يصل جندى واحد إلى سيوة أو يعد واحد منها إلى الخارجة .

يقص علينا هيرودوت قصة هذه الحملة ويقول أن عددجنودها خمسون ألفا ، وربما كان هذا العدد مبالغا كثيرا فيه ، ويزيد قائلا أن كهنة أمون فى سيوة سئلوا فيما بعد عن مصير هذا الجيش فقالوا إن الإله أمون انتقم من أعدائه وأنه بينما كان هذا الجيش فى منتصف الطريق هبت عليه عاصفة رملية دفنته .

وما زال هذا الجيش الكبير حتى الآن سرا من أسرار الصحراء الغربية ، وقد حاول الكثيرون فى عصرنا الحاضر البحث عن آثاره مستخدمين السيارات والطائرات ولكن دون جدوى ، وهو ما زال دفينا تحت غرود الرمال المتلاحقة فى الصحراء .

كان فشل هذه الحملات الثلاثة ضربة قاسية لقمبيز ، كما بدت فى مصر بوادر العصيان لأوامره والاستخفاف بحكمه فعدل عن سياسة التساهل والتسامح ، وأخذ يصب جام غضبه على المصريين ، فهدم كثيراً من المعابد[1] بل ووصل به الأمر — كما ذكر كتاب الإغريق — إلى قتل العجل « أبيس » فى أحد الاحتفالات الدينية فى منف .

وجاءت إلى مصر أنباء قيام الثورة فى فارس فأسرع « قمبيز » للقضاء على من تزعم الثورة وكان يدعى « جوماتا » استغل شبهه بأخيه « برديا » الذى قتله وادعى

(١) جاء ذكر هدم المعابد المصرية وتخريبها فى كتابات اليونان ، وكذلك فى إحدى البرديات الأرامية التى عثر عليها فى الفنتين حيث كانت تقيم جالية يهودية كبيرة كانت الفرس يعطفون على اليهود ويستعينون بهم فى حكم البلاد فى ذلك الوقت .

انه « برديا » نفسه فصدقته كثير من الولايات وبايعته بالحكم ، وكان ذلك فى عام ٥٢٢ ق . م .

ولكن هذا الدعى وجد من يقف فى وجهه ، إذ اجتمع سبعة من النبلاء بزعامة « دارا » بن « هيستاسپس » وقاوموه ، ولكن قمبيز مات وهو فى طريق عودته وتضاربت الروايات فى سبب موته ، فذكرت بعضها أنه انتحر عمدا ، وذكر البعض الآخر أنه مات متأثرا من جرح أحدثه بنفسه فى إحدى نوبات الصرع التى كانت تصيبه من حين لآخر .

وعاد جيش قمبيز إلى بلاده ، وظل وفيا للعائلة ، فانضم إلى جيش الأمراء السبعة ، وأطفأوا نيران الثورة وأصبح « دارا » ملكا على الفرس .

دارا الأول (٥٢٢ — ٤٨٦ ق . م .)

استطاع « دارا » أن يقضى على الدعى قبل مضى وقت لم يتجاوز شهرين على وفاة قمبيز ، ولكن الثورات أخذت تندلع فى مختلف أرجاء الامبراطورية للتخلص من حكم الفرس ، وكان على دارا أن يعيد فتح كثير من الأمصار ، ومنها مصر وسوريا وليديا وعيلام وأرمينيا وأشور وبابل ، وقد سجل دارا انتصاراته فى النقش الشهير المعروف باسم نقش « بهستون » فى أحد الممرات الجبلية فى الطريق بين كرمنشاه وهمدان .

كان فى إخماد هذه الثورات درس قوى لدارا ، أدرك منه أن سياسة الشدة لا تجدى فى حفظ الامبراطورية ، فاتخذ سياسة جديدة تتسم بالحزم ولكن مع الكثير من التسامح الذى كان يتبعه قورش ، وكان من أسس هذه السياسة الجديدة السماح للولايات المختلفة بالمحافظة على كيانها الاجتماعى والثقافى واحترام ما كان سائدا فيها من نظم وقوانين وأديان .

قسم الإمبراطورية إلى عشرين ولاية « ستربيية » يحكم كلا منها وال فارسي « سترب » ، وكان يختار أولئك الولاة من النبلاء ، وأحيانا من أفراد العائلة المالكة ، وكان أولئك الولاة مسئولين شخصيا أمام الملك .

لم تقف همة دارا عند حد تنظيم الامبراطورية التي ورثها عن قورش وقمبيز فأراد التوسع ، ووجه حملة حربية ضد الاسكيذيين « الاسكيثيين » (في جنوبي الاتحاد السوفيتي الآن) ، إذ عبر البوسفور ، ونهر الدانوب ووصل إلى الفولجا ، كما وجه حملة حربية أخرى سارت مخترقة بلاد الأفغانستان الحالية ، ووصلت إلى وادي السند في شبه جزيرة الهند (البنجاب في الباكستان) ، كما أرسل أيضا حملته المشهورة ضد أثينا ، وأحرز انتصاره المشهور في معركة « ماراثون » .

وبالرغم من كل محاولات دارا في تخفيف ما كان يحس به المصريون من مرارة ، وإدخاله الكثير من الإصلاحات في حكم البلاد ، وإصلاح ما تهدم من معابد ، ورد بعض ممتلكاتها إليها ، وإعادة ما أغلقه قمبيز من مؤسساتها العلمية ، فان الثورة قامت في مصر في آخر أيامه ، ومات عام ٤٨٦ ق . م . ولم يكن قد تمكن من إخماد الثورة في مصر ، كما أنه لم يمتد به العمر حتى يرى تحقيق أعز أمنية لديه وهي سحق اليونانيين والقضاء عليهم .

وعلى أي حال فلا شك أن فترة حكم دارا هي الفترة التي بلغت فيها قوة الفرس الأخمينيين أوج قوتها ومجدها سواء في الناحية العسكرية أو في التنظيم والإدارة وتوطيد أركان الحكم أو في ازدهار الحضارة الفارسية في شتى نواحيها .

اكسركسيس الأول (اخشويرش Xerxes ٤٨٦ — ٤٦٥ ق . م .) :

كان « أخشويرش » أثناء حكم دارا واليا على بابل طيلة اثني عشر عاما ، وقد عينه أبوه دارا قبل وفاته ليخلفه في حكم البلاد ، فاعتلى العرش ، وكان أول عمل قام به

هو إخماده للثورة التى كانت قد اندلعت فى مصر ، واتبع فى ذلك قسوة بالغة أعادت إلى الأذهان أسوأ أيام قمبيز . وسار على الأسلوب نفسه فى إخماد ثورة قامت فى بابل ، وبلغ من غضبه أنه بعد انتصاره دك حصون المدينة ومعابدها ونهب ما فيها من تماثيل ذهبية ، وبلغ تخريب مدينة بابل إلى الحد الذى جعل أكثرها أكواما وخرائب .

لم يكن «أخشويرش» فى حقيقة الأمر من الملوك الميالين بفطرتهم إلى الحروب ، بل كان ميالا إلى الترف وإلى تشييد القصور والاستمتاع بأبهة الملك ، ولكن ضغط الجماعات التى كانت تحيط به وتذكره دائماً بضرورة القضاء على اليونانيين جعله يسير على رأس جيش كبير لغزو بلاد اليونان عن طريق البر ، لا عن طريق البحر ، وقد بنى له الفينيقيون فى مدى سبعة أيام جسرا على البوسفور عبرت عليه جيوشه . ووصل أخيراً إلى أثينا واستولى عليها ، ولكن ذلك لم يكن نهاية للحرب إذ انتصر اليونانيون فى معركة سلاميس البحرية (عام ٤٨٠ ق . م .) وحطموا الأسطول الفارسى ، فكان ذلك مدعاة لخوف أخشويرش من حركة التفاف تقضى عليه فتقهقر بجيشه تاركا بلاد اليونان كلها .

لم يستأنف ملك الفرس حملاته الحربية بل انصرف إلى تجميل عواصم مملكته وبخاصة برسيبوليس (اصطخر) وسوسا ، وبالرغم من أنه قضى الشطر الأكبر من حياته فى الترف والملذات ، فيمكن اعتباره آخر ملوك الأسرة الأخمينية الأقوياء .

لم تدم امبراطورية قورش إلا أقل من قرنين من الزمان ، وبدأت علامات الضعف والانحلال تظهر فى أواخر أيام «أخشويرش» ، وأخذت مؤامرات نساء القصر ورجال البلاط تلعب دورها القاسى ، وانتشرت حياة الملذات بين أفراد الطبقة الأرستوقراطية ، وسرعان ما سرت بين غيرهم من أفراد الشعب لأن الناس على دين ملوكهم ، وأخيرا انتهت حياته عام ٤٦٥ ق . م . إذ اغتاله أحد حجاب

قصره تنفيذاً لإحدى المؤامرات ، وترتب على اغتياله حدوث موجة كبيرة من الاغتيالات فى سبيل الاستيلاء على العرش وإزاحة الكثيرين من الطريق .

خلفاء اخشويرش (٤٦٥ — ٣٣١ ق.م.)

وتولى الملك بعده ابنه «ارتخشتا الأول» (أرتاكسركسيس Artaxerxes) ، وكان أضعف من أبيه فى شخصيته . وفى بداية حكمه ثار عليه أحد أخوته ، وكان حاكما لإحدى الولايات فأخمد الثورة ثم أعقب ذلك بقتله بجميع أخوته حتى لا يثور عليه أحد منهم بعد ذلك .

وثارت مصر فسير عليها جيشا فشل فى مهمته ، فأرسل إليه إمدادات كبيرة مكنته من النجاح فى إخمادها ، أما فى بابل فقد سار على سياسة التساهل وترك لأهلها الحرية فى العبادة ، ولكنه شجع الفرس على الهجرة إلى بلاد الرافدين والاستيطان فيها وأقطعهم الأراضى الواسعة ، وفى الوقت ذاته فرض الضرائب الباهظة على أهل البلاد .

ومما يمتاز به عصر ارتخشتا الأول ازدياد نفوذ اليهود فى بلاطه وتشجيعه لهم . كان قورش مؤسس الأسرة حامياً لهم فى عصره ، إذ خلصهم من أسر بابل الذى نكبوا به فى عهد بختنصر وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين ، وإعادة بناء هيكلهم هناك ، كما بسط عليهم حمايته فى جميع أرجاء امبراطوريته ، وسرعان ما كونوا لأنفسهم مكانة خاصة فى جميع المراكز الهامة للتجارة ، وكانوا أينما حلوا عونا للولاة الفارسيين ضد أهل البلاد . ومن أشهر الجاليات اليهودية تلك الجالية التى كانت فى جزيرة الفنتين أمام مدينة أسوان والتى عثر فى خرائبها على رسائل باللغة الآرامية تبين مدى صلتهم بالحكام الفارسيين وتكاتفهم معا لأجل نفعهم العام ، والأساليب التى كانوا يتبعونها لتحقيق أهدافهم ، ومدى ما كانوا يتعرضون له من كراهية الآخرين .

احترم خلفاء قورش سياسة مؤسس الأسرة ، ولكن فى عهد أرتخشستا الأول سمح لعزرا أن يعود إلى أورشليم ومعه ١٥٠٠ يهودى ، ولكن النزاع نشب بين هؤلاء اليهود الجدد ، و بين اليهود الذين كانوا فى فلسطين ، ووصل هذا النزاع إلى الحد الذى جعل الملك نفسه يهتم بالأمر ويرسل ساقيه الخاص وكان يهوديا اسمه «نحميا» ليهدىء الحالة ، وكانت نتيجة ذلك سماحه لليهود بأن يعيدوا تنظيم أنفسهم ، وأن يعيدوا أيضا بناء ما أرادوا بناءه فى أورشليم عام ٤٤٥ ق . م . كما اعترف ملك الفرس بالكاهن الأكبر (الحاخام الأكبر) بأن يكون حاكما على أورشليم وإقليم يهوذا .

ومات أرتخشستا الأول عام ٤٢٤ ق . م . وتولى العرش بعده أخشورش الثانى ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى اغتاله أخوه ، ولم يلبث الأخير حتى قتل هو الآخر على يد دارا الثانى (٤٢٤ — ٤٠٤ ق . م .) ، وكان عهده مليئا بالفساد والمؤامرات والثورات وإغداق أموال الإمبراطورية الفارسية لإشعال نار الحرب بين أثينا واسپارطة رجاء الاستفادة من ذلك .

وبعد انتهاء أيام دارا الثانى خلفه على عرش فارس ابنه ارتخشستا الثانى (٤٠٤ — ٣٥٩ ق . م .) ، وفى مستهل حكمه تعرض لمحاولة فاشلة لاغتياله ، إذ قام أخوه الأصغر ، وكان يسمى قورش ، بطعنه بالخنجر أثناء الاحتفال بتتويجه فى المعبد فى مدينة بزرجادة ، ولكنه عفا عنه إزاء توسلات أمه ، بل وزاد فى عفوه فعينه والياً على آسيا الصغرى وقائداً للجيوش الفارسية هناك .

ولكن قورش لم يقابل هذا الإحسان بما يستحقه ، بل لم يمض عليه وقت طويل حتى جدد عصيانه وأعلن الثورة على أخيه وقاد جيشاً وزحف به على فارس لخلع أخيه عن العرش .

لم يكن جيش قورش من جنود الفرس وحدهم بل ضم إليهم جيشا من مرتزقة الإغريق عدد رجاله عشرة آلاف جندى ، وهو الجيش المعروف باسم حملة زينوفون (Xenophon) ، وهو الجندى الذى قادهم عند عودتهم .

ذهب الإغريق مع قورش ، وتقابل الجيشان على مقربة من بابل ، وهناك تبارز الأخوان ، فاستطاع قورش أن يجرح أخاه ولكن ارتخشستا الثانى قضى عليه بضربة رمح فانهزمت جيوشه . كان الإغريق يكونون ميمنة الجيش ، ولكن قائدهم لم يحرك ساكنا عند مقتل قورش ، ولم يحاول مساعدته ، وقد سمح الفرس لهؤلاء الجنود المرتزقة أن يعودوا ثانية ففضلوا العودة عن طريق غير الطريق الذى سلكوه عند حضورهم مجتازين بلادا لا يعرفونها ، وأرسل ملك الفرس معهم قائدا فارسيا لمراقبتهم أثناء العودة حتى يتركوا حدود البلاد الفارسية .

وأثناء العودة اقترح القائد الفارسى وكان يسمى « تسافيرنوس » على قائد الإغريق « كليرخوس » عقد مؤتمر يحضره جميع الضباط الإغريق ، وكانت مؤامرة استطاع كليرخوس تنفيذها وقتل الضباط جميعا ، ولكن الجنود انتخبوا واحدامنهم ، وهو زينوفون ليكون قائدا لهم ، وقد نجح فى مهمته وعادوا إلى موطنهم ، وقد وصلت إلينا جميع التفاصيل من الكتاب الذى كتبه زينوفون بعد عودته ، وهو مصدر هام لدراسة بلاد المنطقة من الناحية الجغرافية كما أنه مصدر هام أيضاً لمعرفة الشعوب التى كانت تسكن تلك المناطق فى القرن الخامس قبل الميلاد . ومن الطريف أن زينوفون مر على أنقاض مدينة نينوى دون أن يلاحظ شيئا يدونه لأنها كانت قد تخربت قبل ذلك بنحو مائتى عام ، ويظهر أن التخريب كان كاملا . ولما وصل الجيش إلى منطقه تسمى « زاخو » ذكر زينوفون أنه يسكن هناك قوم الـ « كردوجى » وهم الأكراد ويصفهم بأنهم قوم أشداء محبون للحرب ، « يعيشون فى الجبال ولا يطيعون الملك » ، وعندما لاح لهم البحر الأسود من بعيد ورأوا مياهه أخذ الجنود جميعا يصيحون « البحر . البحر » وأخذوا يعانقون بعضهم البعض وقد اغرورقت عيونهم بالدموع .

وتولى الحكم من بعده « ارتخشستا الثالث » ، وكان على شىء من الحنكة السياسية ، ولكنه كان قاسيا ، إذ كان أول عمل له عندتوليه العرش ، هو قتل جميع إخوته الذكور والإناث على حد سواء ، ثم اتجه بعد ذلك إلى إخماد الثورات

وحاول استعادة مصر ، ففشل أولا فى ذلك نظراً لتحالف بعض المدن الفينيقية وبخاصة صيدا مع مصر وثورتها ضد الفرس ، فصب جام غضبه عليها وأحرقها ، ثم أرسل حملة أخرى على مصر فاستعادتها ، وانتقم من مصر والمصريين شر انتقام .

كانت أيام حكم أرتخششتا الثالث (٣٥٩ - ٣٣٨ ق . م .) أيام صحو نسبى فى حياة الامبراطورية ، وبدت الأمور فى وقت من الأوقات ، كما لو أنها على وشك أن تستعيد أيام ملوكها الأوائل ، ولكن المؤامرات التى كانت طابع البلاط الفارسى لم تكن تنتهى ، فمات هذا الملك الحازم مسموما عندما كانت الدولة الأخمينية فى أشد الحاجة إلى مثله ، إذ كانت إحدى دول اليونان فى مقدونيا قد أخذت تعد نفسها للدخول فى دورة جديدة من دورات الصراع مع الفرس ، وكان الملك فيليب والد الإسكندر الأكبر يعد جيشا لغزو آسيا ، ومهد لحروبه المقبلة باستيلائه على أثينا ، وكان ذلك فى عام ٣٣٨ ق.م. ، وهو العام نفسه الذى مات فيه ارتخششتا (ارتكسركسس) الثالث مسموما .

وتولى الملك من بعده ابن له مات هو الآخر مسموما ، وجلس على عرش فارس أحد أقاربه وهو دارا الثالث ، الذى قدر عليه أن يلاقى جيوش الإسكندر وأن تنتهى على يديه الإمبراطورية الأخمينية .

نظرة عامة فى حضارة الفرس الأخمينيين :

دام حكم أسرة قورش ما يقرب من قرنين من الزمان ، من عام ٥٥٠ حتى عام ٣٣١ ق.م. ، وكان عدد ملوكها أحد عشر ملكاً ، كان من بينهم من امتاز بالحنكة السياسية وحسن التنظيم وإتقان إدارة البلاد ، وعلى رأسهم قورش ودارا الأول .

ولا شك أن الإمبراطورية الفارسية فى عهد الأخمينيين كانت أعظم الإمبراطوريات التى عرفها العالم القديم ، وقد شملت كثيراً من الشعوب الذين كانت

لهم ثقافات أعلى وأقدم من ثقافة الفرس أنفسهم مثل مصر وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى وسوريا وبعض المدن الإغريقية ، فعرفوا كيف يستفيدون من تلك الحضارات فى بناء امبراطوريتهم ووضع أسس ثقافتهم .

تنظيم الإمبراطورية :

نظم الأخمينيون امبراطوريتهم تنظيما إداريا حسنا جعلها تظل متماسكة زهاء قرنين من الزمان ، وقسموها إلى عشرين ولاية[1] ، وهى :

(١) مصر (٢) فلسطين (٣) سوريا (٤) فينيقيا (٥) ليديا
(٦) فريجيا (٧) ايونيا (وهى المدن اليونانية فى السواحل الغربية للأناضول)
(٨) كپدوكيا (٩) كليكيا (١٠) أرمينيا (١١) بابل وأشور
(١٢) بلاد الميديين (١٣) فارس (١٤) القوقاز (١٥) أفغانستان وبلوخستان
(١٦) الهند (١٧) بلاد الصغد (١٨) بلاد البخت (١٩) مساجيتا
(٢٠) ولاية تضم قبائل التركمان فى أواسط آسيا .

وكان لكل ولاية حاكم أوسترب ، وكان لمعظم تلك الولايات كيان سياسى مستقل ، وبعبارة أخرى ، كان هذا الوالى أو « محافظ المملكة » ملكا ذا نفوذ كبير ، ولهذا كان الملك الفارسى يلقب نفسه بلقب ملك الملوك .

ولم يغب عن مؤسسى الإمبراطورية أن مثل هذا الوالى يستطيع أن يكون مصدر خطر عليهم إذا حاول الاستقلال بولايته أو إذا أصبحت وظيفته وراثية ، ولهذا السبب وضع قورش نظاما حسنه دارا بعد ذلك ، ويقضى هذا النظام بأن يعين قائدا لجيش الولاية يكون تابعا للملك مباشرة ومستقلا عن حاكمها ، كما كان كاتب الولاية والموظف المشرف على المالية مرتبطين بالملك رأسا . وزيادة

---

(١) أطلق اليونان على كل منها اسم « سترية » Satrapy ، والكلمة محرفة عن الكلمة الفارسية القديمة « خشاترابفان » Khshathrapavan.

فى الحيطة كان الملك يرسل رسلا خاصين للتفتيش على شئون كل ولاية سنويا ومن ألقابهم نستطيع أن نعرف مدى اختصاصهم ، إذ كانوا يسمون «عين الملك» أو «رسول الملك» أو «أذن الملك» .

ومما ساعد الملك على بسط نفوذه المباشر على جميع الولايات ما أنشأه دارا الأول من طرق تربط أطراف بلاده ، ونظام البريد المنتظم بين العاصمة والمراكز الهامة فى جميع الولايات . وكانت أهم الواجبات الملقاة على عاتق كل وال هى إدارة ولايته وحفظ الأمن فيها ثم جمع الضرائب ، إذ كانت الضرائب إجبارية على جميع الولايات ما عدا ولاية فارس لأنها مهد البيت المالك .

وكانت الجزية المقررة على كل ولاية مقدارا معينا من الفضة أو النقد ، ثم ضريبة اخرى من محصول تشتهر به الولاية ، أو أى مصدر نوعى آخر ، وربما كان من المفيد معرفة الجزية المفروضة على بعض الولايات لمقارنتها ببعضها البعض .

كانت ولاية الهنــــد على رأس جميع الولايات فى كمية الجزية السنوية (أو خراجها) ، إذ كان عليها أن تدفع إلى خزانة «شاهنشاه» أى ملك الملوك ٤٦٨٠ وزنة فضة سنويا[1] . وتليها بلاد الرافدين (بابل وأشور) ، وعليها أن تدفع ١٠٠٠ وزنة ، أما مصر فكان نصيبها ٧٠٠ وزنة بالإضافة إلى كمية من القمح ترسلها سنويا ، وتكفى لإطعام ١٢٠,٠٠٠ شخص . أما سوريا وفلسطين معا فكانت الجزية المفروضة عليهما ٣٦٠ وزنة . وولايات آسيا الصغرى الأربع ١٧٦٠ وزنة . وكما كانت مصر ترسل الحبوب . كانت بلاد الميديين ترسل كل عام ١٠٠,٠٠٠ رأسا من الغنم . وبلاد أرمينيا ٣٠,٠٠٠ طير ، وكان الملوك يحصلون أيضاً على ثروات هائلة وذلك من مورد سك النقوذ .

---

(١) الوزنة ترجمة لكلمة Talent التى يفضل البعض ذكرها كما هى طالنت ، وكانت الوزنة تساوى ٦٠ منا (والمنا ٦٠ شقل) ، ووزن المنا قريب جدا من الرطل الأنجليزى أى نحو نصف كيلوجرام .

ولكى ندرك قيمة ما كان لدى ملوك الفرس من ثروة يكفى أن نعرف أنه فى آخر أيام الإمبراطورية التى كانت قد أنهكتها الحروب والثورات والمؤامرات عندما فر الملك دارا الثالث أمام الإسكندر أخذ معه نحو ٨٠٠٠ وزنة ، وبلغ ما استولى عليه الإسكندر من خزائنه نحو ١٨٠,٠٠٠ وزنة قدرها المؤرخ « ول ديورانت » أن قيمتها بعملتنا فى العصر الحاضر ما يبلغ على وجه التقريب ٢,٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولارا أمريكيا .

ومما ساعد على تماسك الامبراطورية اتخاذ النقود المسكوكة فى عهد دارا الأول ونظام الطرق الملكية والبريد إذ ربط ذلك كله اقتصاد الإمبراطورية ، وساعد على تسهيل التجارة بين الولايات وبعضها البعض ،كما ساعد وجود جيش فى كل ولاية على استتباب الأمن فيها .

ومن الأمور الهامة التى حدثت فى عهد هذه الإمبراطورية محاولة إيجاد لغة واحدة لأجل التعامل التجارى فكانت اللغة الأرامية هى لغة التجارة ، كما كان الخط الأرامى مستخدما إلى جانب الخط المسمارى الفارسى الذى انتشر فى أرجاء الإمبراطورية .

أشرت أكثر من مرة فى الصفحات السابقة إلى عاصمة الإمبراطورية فأين كانت وما هو اسمها ؟ والواقع أن العاصمة قد تغيرت أكثر من مرة بل ، كانت توجد أحيانا عاصمتان فى وقت واحد . فقد اختار قورش مدينة « سوسا » عاصمة عيلام لتكون مركز إدارته عندما كان حاكما لإقليم « أنشان » أيام أن كان خاضعا للميديين ثم اتخذ بعد ذلك مدينة « اكباتانا » العاصمة الميدية الشهيرة عاصمة له ، فلما تم له فتح مدينة بابل عام ٥٣٨ ق . م . اتخذها أيضا عاصمة له ، وقد اعتاد قورش أن يمكث فى كل واحدة منها وقتا من الزمن .

واستقر رأيه بعد ذلك على إنشاء عاصمة جديدة وهى مدينة «بزرجادة» ، وتقع إلى الشمال من مدينة پرسيبوليس (اصطخر) بخمسين ميلا ، ومعنى اسمها الأصلى

فى الفارسية « مخيم الفرس » ومكانها على وجه التحديد الخرائب المعروفة فى الوقت الحاضر باسم « مشهدى مُرغاب » . وتذكر بعض الروايات القديمة أن قورش اختار مكانها لأنها مكان الموقعة الحاسمة التى انتصر فيها « استياجز » آخر ملوك الميديين .

وظلت سوسا على أهميتها بعد تأسيس العاصمة الجديدة وبنى فيها قصرا ، كما عمر أيضاً فى بابل وبنى فيها قصرا له ، كما نعرف أنه قبل تشييد قصره الجديد فى بابل كان يقيم فى قصر بختنصر الذى كان فى الجزء الشمالى من المدينة .

ولكن دارا لم يقنع بهذه العواصم القديمة ، واستقر رأيه على إنشاء عاصمة جديدة فى موطن قومه ، أى فى فارس ، وقد أطلق اليونان عليها اسم « پرسيبوليس » ، أى مدينة الفرس ، وهى نفسها البلد المعروف باسم « اصطخرا » (Stakhra) ، أى الحصن التى عرفت فى أيام العرب باسم اصطخر . ابتدأ دارا فى تشييدها عام ٥٢٠ ق.م. ، ولكنها لم تتم إلا فى عهد ارتخشتا الأول حوالى عام ٤٦٠ ق.م. ، وقد عثر فى خرائبها على آثار هامة ، وما زالت تقوم فيها ، بالرغم مما تعرضت له بقايا القصور والدور الحكومية والمعابد مما يشهد بفخامتها وعظمتها ، ولكن مما يحزن النفس ويسجله بالعار على الإسكندر الأكبر أنه أقام فيها وليمة كبيرة أفرط فيها الجميـــــع فى الشراب ثم قام بحرقها إرضاء لإحدى محظياته التى كانت تكره الفرس .

وقبل أن نترك موضوع العواصم نذكر أن ما عثر عليه فى خرائب مدينة بزرجادة ، يثبت أنها مدينة فارسية أصيلة لم تدخل عليها عناصر غريبة ذات أهمية. أما مدينة پرسيبوليس ففيها عناصر مختلطة فى العمارة والزخرفة ، وفيما عثر عليه من تماثيل ولوحات وحلى وغيرها ، نرى فيها آثارا من فنون أواسط آسيا وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى وسوريا ومصر على الأخص .

الديانة :

كانت ديانة الفرس القدماء فى العصور السابقة على ظهور الأخمينيين واحدة من ديانات الهندو - أوروبيين الوثنية ، يعبدون قوى الطبيعة المختلفة مثل الشمس والقمر والأرض والنار والماء والريح ، واعتبروا كلامنها إلها ، وكانوا يقدمون لها القرابين والأضاحى ، ويقوم بذلك طبقة من الكهنة ، وهؤلاء هم المجوس (Magi) الذين كانوا يحتلون مكانة كبيرة فى المجتمع ، وكانوا يقومون بتفسير الأحلام للناس ، ويؤمن بهم العامة ، وبقوتهم الخارقة فى عمل السحر وإخراج الشياطين .

وفى القرن السادس الميلادى ظهر نبى إيرانى يسمى « زرادُوشترا » (Zarathushatra) أو « زرادشت » الذى ورد فى كتابات اليونان باسم (Zaro-aster) . نادى « زرادشت » بالتوحيد ، وهاجم الآلهة المتعددة هجوما عنيفا ، وكان اسم إلهه الذى بشر به هو « أهورا مازدا » وترجمتها الحرفية السيد العاقل .

ومن المرجح أن الوطن الأصلى لزرادشت كان فى أرض الميديين ، ولكن دعوته لم تنجح فى بلده ، فهاجر منه بحثا عن أمير أو حاكم يؤمن بما يدعو إليه ، ووجد ما أراده فى جهات إيران الشرقية ، كما يرجح أيضا أن يكون أبو الملك دارا الأول ، كان هو الأمير الذى آمن بالنبى الجديد وديانته ، وأصبح متحمسا لها ، وذلك عندما كان واليا على بلاد الفرثيين .

أعلن زرادشت أنه لا يوجد إلا إله واحد وهو «أهورا مزدا» ، ولا يوجد إلى جانبه من آلهة أخرى إلا صفاته ، وأهمها الروح الطاهرة والعدل والنية الطيبة والعمل الطيب والصدق والتقوى والخلود . وبالرغم من أن «أهورا مزدا» هو الإله الأوحد صاحب السلطة فى السموات ، إلا أنه كان له منذ البداية من ينازعه وذلك روح الشر . وبعبارة أخرى كان هناك قوتان قوة الخير والنور ، وكل ما هو حسن وطيب ، وتتمثل فى « أهورا مزدا » ، وقوة الشر والظلام ، وكل ما فيه أذى

وسوء ، ويتمثل فى « أهريمان » ، وعلى الإنسان أن يختار ، ولكن هناك يوم دينونة وحساب وستعيش أرواح الخيرين الأطهار فى عالم سعيد خال من الشرور، أما أرواح الأشرار فلها الويل والهلاك .

كانت هذه الديانة التوحيدية الرسمية للأخمينيين منذ عهد دارا الأول ، ولكن أثر الديانة القديمة ظل سائدا بين الشعب ، ولهذا لم يمض وقت طويل حتى أخذت بعض العناصر الوثنية القديمة تظهر فى الديانة الجديدة فى شكل أو آخر . فنجد مثلا منذ عهد « أرتخشستا الثانى » ظهور إله الشمس « مثرا » (Mithra) ، وهو من الآلهة الإيرانية القديمة يظهر إلى جانب «أهورا مزدا» كإله للعدل والإخلاص ، كما انتشرت أيضا إلى جانبه عبادة إلهة أخرى فى عبادتها عناصر غير إيرانية ، وهى الآلهة «أناهيتا» (Anahita) ، وهى إلهة الماء والخصب والنماء ، وتشبه فى صفاتها عشتر البابلية . وقد انتشرت عبادة مثرا وأناهيتا فيما بعد انتشارا كبيرا فى أرجاء العالم وظلا قرونا كثيرة بعد ذهاب الأخمينيين والساسانيين من صفحات التاريخ .

والديانة الزرادشتية تحرّم الضحايا والقرابين ، كما حرمت شراب « الهوما » المسكر الذى كان المجوس يستخدمونه فى طقوسهم الدينية ويعتبرونه دم الإله ، كما كانوا يقدسون عناصر التراب والماء والنار ، ولهذا حرموا دفن الموتى أو غسلهم أوحرقهم مخافة تدنيس هذه العناصر ، ولهذا كانوا يضعون الموتى فى أماكن مرتفعة فوق قمم الجبال أوفوق أبراج مرتفعة تبنى خصيصا لهذا الغرض ، ويضعون فوقها جسم الميت لتنهش لحمه الجوارح والوحوش ، ثم يجمعون العظام ويضعونها فى صندوق وتدفن فى قبر خاص .

وما زالت الديانة الزرادشتية حية إلى يومنا هذا ، ولكن أتباعها فى العالم كله (ويسمون البارسى) لا يزيدون على مائة وعشرين ألفا على أكثر تقدير ، يعيش أكثرهم فى مدينة بومباى فى الهند، وجاليات قليلة فى إيران وفى عدن وبعض الموانى، وأتباعها معروفون أينما حلوا بالنظافة التامة والصدق والأمانة ، ويثق الناس فى كلمتهم كتجار أمناء أينما كانوا .

ويذكر لنا المؤرخ اليونانى هيرودوت أنه لم يكن للفرس معابد أو هياكل أو تماثيل للآلهة ، وربما كان هذا صحيحا إذا قارناه بما كان متبعا لدى اليونانيين، إذ لم يكن للفرس معابد يذهب إليها الناس للعبادة وتقام فيها الطقوس والمراسيم كل يوم ، ولكن كانت لهم معابد لم يزد أحدها على أنه برج مربع فيه غرفة واحدة يرقى إليها الكهنة المجوس بسلم ليتولوا شأن النار المقدسة ، وعلى مسافة غير قليلة من المعبد ، كانت تقام مذابح فى العراء ، وذلك لأجل الاحتفالات الدينية ، أما عن إقامة التماثيل أو عمل الصور للآلهة فقد وصل إلى أيدينا عدد غير قليل من ذلك .

ولا يمكننا ترك موضوع الديانة فى إيران دون الإشارة إلى ما تركته من أثر كبير فى أكثر بلاد الشرق القديم لمدة لا تقل عن ألف سنة ، ولو تركنا أثر الديانة الزرادشتية على اليونان والرومان وبعض بلاد آسيا جانبا فانه لا يمكن تجاهل أثرها على المسيحية والإسلام .

القانون :

عندما أعاد « دارا الأول » تنظيم امبراطوريته وجد أن الحاجة ماسة إلى وضع قوانين يسير عليها الناس ، ومن السهل علينا دراسة هذه القوانين فيما خلفه من نقوش فى بهستون وسوسا وپرسيپوليس ونقش رستم ، ونرى فيها أنه استعان بقوانين بابل القديمة وعلى الأخص قوانين حمورابى ، وكان تطبيق العدل هو الهدف الأكبر لدارا ، ولهذا حرص كل الحرص على تأمين تطبيق أحكام القانون واحترام القضاة طالما لا يثبت على أحد منهم الانحراف . كان الملك نفسه هو مصدر القوانين ، وكانت أحكامه التى يصدرها يعتبرها الناس موحى بها من الإله أهورا مزدا نفسه .

كان الملك هو أعلى أنواع المحاكم التى يستأنف إليها الناس ما تصدره المحاكم الأخرى ، وكانت تليه محكمة عليا خاصة مكونة من سبعة حكام ، ثم يلى هذه المحكمة العليا المحاكم الأخرى التى كانت منتشرة فى جميع أرجاء المملكة .

وكانت هناك درجات للجرائم ، ولكل منها عقاب محدد إلا أنه فى بعض الحالات كانت توقع عقوبات خاصة . فمثلا إذا قبل أحد الحكام رشوة ، فان ذلك كان يعد جريمة كبرى جزاؤها القتل فى بعض الأحيان ، ويروى أن واحدا من الحكام فى أيام قمبيز لم يلتزم العدل وقبل رشوة ، فأمر قمبيز بسلخه حيا واستخدام جلده ليكون جلدا للمقعد الذى يجلس عليه القاضى ، وفى الوقت ذاته لم يجد ما يحول دون تعيين ابن ذلك القاضى فى منصب أبيه .

ولم يكن الفرس الأخمينيون يقلون فى قسوتهم عن الآشوريين فى معاملة من يغضبون عليه من الناس إذ كانوا يتفننون فى تعذيبهم . يروى لنا المؤرخ الرومانى بلوتارك عند ترجمته لحياة الملك أرتخششتا الثانى ؛ أن أحد الجنود ، ثمل وأخذ يتباهى أمام زملائه أنه هو الذى قتل أخشورش فى موقعة كوناكسا وليس الملك ، فأمر أرتخششتا بأن يموت ميتة القوارب . ويفسر بلوتارك هذه الطريقة فى الإعدام بأنهم يهيئون قاربين متماثلين تماما يضعون المحكوم عليه بالإعدام فى أحدهما نائما على ظهره ويضعون فوقه القارب الآخر ، ولا يظهر من المحكوم عليه إلا رأسه ويداه ورجلاه من ثقوب تعمل خصيصا لهذا الغرض . وبعد أن يطعموه يصبون فوق رأسه وفمه مزيجا من اللبن والعسل ويحركون القاربين ليجعلا وجهه نحو الشمس دائما وسرعان ما يحط عليه الذباب فيضايقه مضايقة شديدة ، كما تحط عليه بعض الحشرات الأخرى فتسبب له الألم ، كما أن ما يفرزه جسمه فى داخل القارب يولد الحشرات والديدان التى تظل تتوالد حتى تفتك به وتصل إلى أحشائه الداخلية . وقد ظل الجندى سبعة عشر يوما وهو يلاقى العذاب الشنيع حتى مات .

الفن :

ازدهر الفن فى عهد الأسرة الأخمينية ازدهارا كبيرا ، ولكن هذا الازدهار لم يكن نتيجة تطور فن محلى استغرق بعض الوقت حتى وصل إلى ما وصل إليه ،

ولكنه كان سريعا كتكوين الإمبراطورية نفسها . وبالرغم من أن الفرس القدماء كانت لديهم بعض الفنون وخاصة فى صناعة المعادن وعلى الأخص البرونز، وأنه عثر على كثير من الأدوات والآلات والحلى فى اللورستان ، إلا أن أثر ذلك على الفنون بوجه عام لم يكن إلا أثرا ضئيلا ، لأن الاتجاه الجديد منذ إنشاء الأسرة هو الاقتباس من الحضارات التى ضموها إلى امبراطوريتهم ، كما اقتبسوا أيضا مؤثرات من فن الإغريق .

فنجدهم مثلا فى ناحية العمارة يشيدون القصور ، ونجد الكثير من ذلك فى خرائب مدينة برسيبوليس ، ونجد أنهم اتبعوا فى عمارتها أساليبا لم تكن معروفة تماما فى بابل أو فى أشور أو فى مصر ، ولكنهم مع ذلك اقتبسوا من أساليب تلك الحضارات الشىء الكثير ، ونجد فى زخارفها المعمارية وفى تماثيلها ما يدل على الأصل الذى تأثروا به .

ومما عنى به المعماريون الأخمينيون موضوع الأعمدة التى كانت كلها من الحجر ، وكانت لها تيجان تحمل الكتل الضخمة من الأخشاب التى كانت تحمل السقف ، وكان فى كل قصر من القصور أبهاء متسعة للاستقبال ، وكان فى أحد الأبهاء فى قصر برسيپوليس مائة عمود ، وكان اسم البهو بهو المائة عمود . وفى قصر آخر فى مدينة سوسا كان اتساع البهو الكبير أكثر من هكتار مربع ، أى ما يماثل تقريبا المساحة التى يشغلها البهو المربع الشهير فى قصور اللوفر .

وكانت جدران تلك القصور مزخرفة بالنقوش التى تختلف موضوعاتها من قصر إلى آخر ، كما كانت جدران السلم مزخرفة أيضا بمناظر تمثل الخدم أو حملة الجزية من نواحى الإمبراطورية المختلفة وهم يحملون ما أتوا به لتقديمه إلى ملك الملوك .

ولا شك أن العنصر الهام فى الزخارف مقتبس من أشور وبابل ، وفى حالات غير قليلة من مصر ، ولكن هناك أيضا تأثيرات فنية مصدرها المدن

اليونانية التى كانت فى آسيا الصغرى ، وبعبارة أخرى نجد مزجا فنيا مقبولا يجمع بين مؤثرات فنية من أوروبا وآسيا .

لم تعمر دولة الأخمينيين إلا أقل من قرنين ، كما قلنا ، وبالرغم من أن القضاء عليها تم على يدى الإسكندر فإن انتصاره لم يؤد إلى زوال تلك المدنية أو اندثارها أو ارتدادها أمام المدنية اليونانية المنتصرة ، بل نراها تخرج من كل تلك التجارب وقد احتفظت بالكثير من عناصرها ، كما نرى ذلك بوضوح فى أيام دولة الساسانيين ، بل ولا يمكننا تجاهل أثر ديانات الفرس على اليونانيين والرومانيين ، ثم على المسيحية والإسلام ، ولا يمكننا أيضا أن نقلل من شأن أثر حضارة الفرس على حضارة العرب المسلمين فى شتى النواحى عندما قضى المسلمون على عرش كسرى وأصبحت فارس بلدا من البلاد الإسلامية .

الفصل الثامن

مختارات من الوثائق التاريخية

أولا : من وثائق التاريخ المصرى القديم :

(١) غنائم الحملة الأولى لتحوتمس الثالث .

(٢) الحملة الحربية الثامنة .

(٣) }
(٤) } من رسائل تل العمارنة . ثلاث رسائل أرسلها « عبدو ـ هبا » أمير أورشليم .
(٥) }

ثانيا : من وثائق ما بين النهرين :

(١) حملة تجلات ـ بلسر الأول على سوريا ولبنان .

(٢) حملة تجلات ـ بلسر الأول فى الصحراء السورية .

(٣) حملة سرجون الثانى على فلسطين ولبنان .

(٤) حملة سنخريب على فلسطين .

(٥) حمله أسرحدون على العرب ،

(٦) حملة أسرحدون على مصر .

ثالثا : من وثائق تاريخ الحيثيين :

(١) شوبيلوليوماس وأرملة توت عنخ أمون .

(٢) نقش ختوسيليس عن حرب مواتلليس مع مصر .

الهدف من نشر هـذه المختارات من الوثائق التاريخية هو إعطاء القارىء صورة للأسلوب الذى كانت تستخدمه كل حضارة من تلك الحضارات فى تدوين نصوصها ، إذ أنى بذلت كل ما فى وسعى لأقدم ترجمة حرفية لكل ما اخترته حتى ولو بدا أسلوب الترجمة إلى العربية ركيكا أو صعب الفهم فى بعض المواضع .

وليست هذه المجموعة من الوثائق أهم مافى وثائق تلك الحضارات ، فإن ذلك بعيد كل البعد عن حقيقة الأمر ، ولكن السبب فى اختيارها راجع إلى كونها توضح لنا جانباً من الصلات السياسية بين الشعوب المختلفة فى بلاد الشرق القديم .

أولا — من وثائق التاريخ المصرى القديم : من وثائق حملات تحوتمس الثالث على غربى آسيا :

تولى تحوتمس الثالث عرش مصر عام ١٤٩٠ ق . م . ولكن الصراع بينه وبين عمته الملكة حتشبسوت التى كانت زوجة لأبيه تحوتمس الثانى ، والتى اشتركت معه فى الحكم أدى إلى انفرادها بحكم البلاد ، بينما ظل تحوتمس الثالث بعيداً أشبه بسجين حتى العام الثانى والعشرين من توليه العرش . فى هذا العام تم استرجاعه لجميع حقوقه ، وقضى على حتشبسوت وأنصارها ، ونجده يسارع إلى تعبئة الجيش والسير به إلى فلسطين ، ومنها إلى سوريا لإخماد ثورة قامت هناك ضد مصر وكان قد اجتمع ٣٣٠ أميراً ، ومع كل منهم رجاله فى تحالف تحت زعامة أمير قادش (على مقربة من حمص) ، وتقدم هذا الجيش المتحالف إلى مدينة مجدو (فى فلسطين) .

وعند عودة تحوتمس الثالث منتصراً أمر بكتابة نتائج حملاته على جدران معبد الكرنك ، وهى محفوظة حتى الآن ، كما نرى إشارات لبعض هذه الحملات ونتائجها على بعض اللوحات الأخرى لهذا الملك ، وفى تاريخ حياة بعض قواده العسكريين إذ سجلوا كثيراً من حوادث تلك الحروب على جدران مقابرهم .

(١) وها هي ترجمة جزء من النقش الخاص بحملته الأولى التى بدأها فى العام الثانى والعشرين ، الشهر الرابع من الفصل الثانى، اليوم الخامس والعشرين[١]، من حصن ثارو — مدينة القنطرة الحالية . يروى تحوتمس تفصيلات سيره إلى غزة ثم تقدمه نحو الشمال، وما واقته به مخابرات الجيش والمؤتمر الحربى الذى عقده ثم مفاجأته للعدو من طريق غير مطروق بين الجبال، ثم هجومه على مجدو، وقد اخترت الجزء الخاص بما استولى عليه من غنائم ، وهى تبدأ فى السطر ٩٤ من نص معبد الكرنك لأنها توضح لنا محصولات البلاد السورية وتقدمها الحضارى فى القرن الخامس عشر ق. م. :

« والآن أتى أمراء هذا البلد الأجنبى ، وهم على بطونهم ليقبلوا الأرض أمام عظمة جلالته ، وليستجدوا النفس لخياشيمهم ، لأن ذراعه كان قويا جداً ، وذلك لأن قوة أمون كانت فوق كل بلد أجنبى . (جاء) جميع الأمراء الذين سحقتهم قوة جلالته يحملون جزيتهم من الفضة والذهب واللازورد والفيروز ، ويحملون الحبوب والنبيذ والماشية ، كبيرة وصغيرة ، لأجل جيش جلالته ، ومنهم جماعة ذهبت حاملة الجزية نحو الجنوب[٢] . ثم عين جلالته أمراء جددا لكل مدينة . . . .

[بيان بالغنائم التى أخذها جيش جلالته من مدينة] مجدو :

٣٤٠ أسيراً ، ٨٣ يداً[٣] — ٢٠٤١ حصاناً و ١٩١ مهراً و ٦ من فحول الخيل و . . . مهراً — عربة واحدة محلاة بالذهب وهيكلها من الذهب ، وهى

---

(١) العام الثانى والعشرون من حكم الملك ، أما الشهر الرابع من الفصل الثانى فإن ذلك يشير إلى تقسيم المصريين لشهور السنة إلى ثلاثة فصول كل منها أربعة شهور — وهذا اليوم بالذات يوافق يوم ١٦ أبريل عام ١٤٦٨ قبل الميلاد .

(٢) أى ذهبت متجهة إلى مصر تحمل الجزية .

(٣) أى ثلاثة وثمانون شخصا قتلهم جنود تحوتمس أثناء الدفاع عن المدينة وقطعوا اليد اليمنى من كل منهم ، وقدموها إلى الملك لإثبات ذلك .

خاصة بذلك العدو — وعربة واحدة حسنة الصنع ومحلاة بالذهب تخص أمير [مجدو] . . . . و٨٩٢ عربة تخص جيشه التعس — المجموع : ٩٢٤—١ غلالة زرد حسنة الصنع من البرونز تخص أمير مجدو — و ٢٠٠ غلالة زرد مصنوعة من الجلد تخص جيشه التعس — ٥٠٢ قوساً — و ٧ أعمدة من خشب إل ـ مرو مغطاة بالفضة وهى خاصة بخيمة ذلك العدو .

واستولى جيش جلالته [ماشية] . . . — ٣٨٧ . . . . — ١٩٢٩ بقرة — ٢٠٠٠ عنزا ، ٢٠٥٠٠ من الغنم .

كشف بما استولى عليه الملك من أشياء مملوكة لذلك العدو ، الذى كان فى (مدن) ينعُم ونوجس وهرنكرو مع ما تملكه تلك المدن التى قبلت الخضوع له . . . — . . . — ٣٨ محاربا من الماريانو[1] من بينهم — ٨٤ إبنا لذلك العدو ، ومن الأمراء الذين كانوا معه — و ٥ ماريانو كانوا معهم — ١٧٩٦ رقيقاً من الذكور والإناث وأولادهم — و ١٠٣ شخصاً عفا عنهم لأنهم هربوا من ذلك العدو بسبب ما أصابهم من جوع — المجموع ٢٥٠٣ — وذلك عدا الأوانى المصنوعة من الأحجار الغالية والذهب . أوانى مختلفة (١٠٠) . . . إناء كبير من النوع المسمى « أكونو » صناعة سورية ، جرار وطاسات وأطباق وأوانى شراب مختلفة ، وقدور كبيرة [. . .] و ١٧ سكيناً — وهى كلها ١٧٨٤ دبن[2] — أقراص من الذهب كانت معدة لتصنع ، وكمية كبيرة من أقراص الفضة — (المجموع) ٩٦٦ « دبن » و ١ « قدى »[3] — تمثال من الفضة على هيئة . . . . (وتمثال) . . . . ورأسه من الذهب — ثلاث عصى لها أيدى على شكل رأس إنسان — ٦ محفات خاصة بذلك العدو ، وهى من العاج والأبنوس

---

(١) الماريانو طبقة من المحاربين الممتازين الذين يقودون غيرهم فى القتال ، ويمكن ترجمتها بكلمة « ضابط » .

(٢) الدبن ٩١ جرام أى أن مجموع وزنها من الذهب أكثر من ١٦٢ كيلو جراما .

(٣) غير واضح إن كان ذلك هو وزن أقراص الذهب وحدها أو وزن الذهب والفضة معا.

وخشب الخروب محلاة بالذهب — و ٦ كراسى توضع عليها الأرجل تابعة لها — ٦ طاولات كبيرة من العاج وخشب الخروب — سرير خاص بذلك العدو مصنوع من خشب الخروب محلى بالذهب، وجميع أنواع الأحجار الغالية على هيئة كركر وحلى كله بالذهب — وتمثال لذلك العدو كان معه، وهو من الأبنوس المحلى بالذهب ورأسه من اللازورد — أوانى من البرونز وملابس كثيرة لذلك العدو .

وقسمت الحقول إلى قطع زراعية وزعت على مفتشى القصر ، له الحياة والصحة والسعادة ، لكى يجمعوا المحصول — بيان بالمحصول الذى استولى عليه جلالته من حقول مجدو : ٢٠٧٫٣٠٠ (+ ؟ . . .) غرارة من القمح وذلك عدا ما قطعه جيش جلالته ليكون علفاً . . . » .

(٢) لم تكن الحملة الأولى إلا بداية لستة عشر حملة حربية فى مدى عشرين عاما، وقد وصل فى حملته الثامنة إلى الفرات وعبره، وخضعت له بلاد ما بين النهرين، وها هو جزء من النص المصرى الخاص بهذه الحملة، كما ورد فى لوحة جبل برقل[1] :

« عند ما قصد جلالتى إلى سهول آسيا أمرت ببناء سفن كثيرة من خشب الأرز على جبال « أرض الإله » على مقربة من « سيدة جبيل » (أى فى لبنان) ووضعوها على عربات تجرها الثيران ، وسارت أمام جلالتى لكى تعبر ذلك النهر الكبير الذى يقع بين هذه البلاد وبين بلاد نهارينا[2] . إنه ملك بحق يفخر الناس بمدى قوة ذراعيه فى القتال ، ذلك الذى عبر المنحنى العظيم (أى الفرات) وهو

---

(١) أقام تحوتمس الثالث فى العام السابع والأربعين من حكمه لوحة جرانيتية عند سفح جبل برقل فى مدينة نبتا على مقربة من الشلال الرابع يذكر فيها بعض ما حدث فى عهده . وقد قام ريزنر بنشرها وترجمتها فى عام ١٩٣٣ كما نجد نصها منشورا أيضا أكثر من مرة وأحدث ترجمة لها بالإنجليزية هى ترجمة جون ولسون المنشورة فى كتاب :

Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, (2nd edition, 1955, p. 238, 240).

(٢) يعتبر صنع هذه السفن فى فينيقيا ونقلها إلى الفرات من الأعمال الدالة على أعظم الصفات الحربية لذلك الملك العظيم .

يطارد الذى هاجمه ، وسار على رأس جيشه باحثاً عن العدو التعس فى بلاد الميتانى عند ما هرب أمام جلالتى إلى بلد آخر ، إلى مكان بعيد نظراً لخوفه .

وأقام جلالتى بعد ذلك فوق جبل نهارينا هـذا لوحتى التى قطعت من ذلك الجبل فى الناحية الغربية من المنحنى العظيم (الفرات) . . .

وعند ما تقدمت جنوبا نحو مصر بعـد أن أعملت السيف فى نهارينا صار الخوف عظيما فى أفواه البدو، فأغلقوا أبوابهم بسبب ذلك ولم يجرءوا على الخروج منها إلى الأرض الفضاء خوفا من الثور (إشارة إلى الملك) .

وها هى حادثة انتصار آخر منحه لى (الإله) رع ، إذ كرر لأجلى عملا بطوليا عند مورد مياه مدينة « نى » عند ما جعلنى ألتقى بجموع من الفيلة ، وحاربهم جلالتى وكان عدد القطيع ١٢٠ ، ولم يتيسر مطلقاً مثل ذلك منذ أيام الإله لأى ملك حمل التاج الأبيض . إنى قلت ذلك دون أى فخر فى قولى أو مبالغة فى ذلك .

وفى كل عام يقطعون لى من بلاد « زاهى » أشجاراً ضخمة من أرز لبنان يحضرونها إلى القصر ، له الحياة والسعادة والصحة . يأتى الخشب إلى مصر لأجلى ، يحضرون . . . . (خشباً) جديداً من « نجاوو » (بلد فى فينيقيا على الأرجح) ، أفضل أخشاب « أرض الإله » ليأتى إلى مقر البلاط دون أن يظل خلال الموسم هناك فى كل عام وفى كل السنين .

وعند ما يأتى جيشى الذى يكون حامية مدينة «أولا" زا» (مدينة غير معروفة الموضع على الشاطىء الفينيق) [يحضرون الجزية] وهى أخشاب الأرز التى حصلت عليها بانتصارات جلالتى بفضل توجيهات أبى [الإله أمون رع] الذى منحنى جميع البلاد الأجنبية ، ولم أعط شيئاً منه إلى الأسيويين لأنه الخشب الذى يحبه . . » .

بعض رسائل تل العمارنة :

أشرت إلى هذه الرسائل بشىء من التفصيل عند حديثى عن تاريخ سوريا ، وعددها المعروف حتى الآن ٣٣٧ رسالة ، وهى مكتوبة باللغة الأكدية الدارجة

ويرجع تاريخها إلى أيام الملكين أمنحوتب الثالث وابنه إخناتون . والرسائل كلها مترجمة ونشرت عنها أبحاث كثيرة ، وقد قام فى السنوات الأخيرة كل من الأستاذين أولبريت ومندنهول (W.F. Albright and George E. Mendenhall) بترجمة ثمانية وعشرين رسالة منها ، تعتبر من أهمها كلها ، ترجمة دقيقة نشراها فى ANET (الطبعة الثانية ١٩٥٥ ، ص ٤٨٣ — ٤٩٠) ، وقد اخترت ثلاثة منها تمثل حالة فلسطين فى أواخر حكم أمنحوتب الثالث وأوائل أيام حكم « اخناتون » عند ما كانت عصابات العاپيرو تعيث فى البلاد فسادا ، وكانت « خيتا » تساعد الثائرين فى جميع أرجاء تلك البلاد ـ وهذه الرسائل الثلاثة مرسلة من أمير أورشليم « عبدو ـ هبا » :

(٣) رسالة رقم EA ٢٨٦ :

قل للملك سيدى أن « عبدو ـ هبا » خادمك . عند قدمى سيدى الملك أرتمى سبع مرات وسبع مرات . ما الذى فعلته ضد سيدى الملك ؟ إنهم يلومونني أمام الملك (قائلين) « إن « عبدو ـ هبا » ثار ضد الملك سيده » . انظر ! أما من ناحيتى فلم يكن أبى ولم تكن أمى الشخص الذى وضعنى فى هذا المنصب ، ولكن ذراع الملك القوى هو الذى أتى بى إلى بيت أبى ! فلماذا أرتكب عصيانا ضد الملك سيدى ؟ وطالما كان الملك سيدى على قيد الحياة فإنى سأقول لنائب الملك سيدى : « لماذا تحابى العاپيرو وتعمل ضد الحكام ؟ » ولهذا السبب فإنه يوجه إلىّ اللوم فى حضرة الملك سيدى . ألأنه قيل « ضاعت أراضى الملك سيدى » ألام أمام الملك سيدى ! ولكن ليعلم سيدى الملك أنه عندما وضع الملك حامية أتى « ينهمو » واستولى عليها قوات الرماة . . . . أرض « مصر . . . يا سيدى الملك أنه لا يوجد جنود حامية (هنا) وأرجو أن يعنى الملك بهذه البلاد . إن بلاد الملك كلها قد ثارت ، ويتسبب « إيليملكو » فى فقد كل أرض الملك ، وليت الملك يعنى بأرضه ! إنى أردد قائلا : « دعونى أدخل إلى حضرة الملك سيدى ، ودعونى أرى عينىّ الملك سيدى » . ولكن العداء نحوى شديد ، ولهذا لا أستطيع الدخول إلى

حضرة الملك سيدى . وليت الملك يرسل قوات الحامية حتى أستطيع الدخول لأرى عينى الملك سيدى . وعندما يغادرنا نواب الملك ، فإنى واثق ثقتى فى حياة الملك إنى سأقول . « لقد ضاعت أراضى الملك ! » ألا تستمع إلىّ ؟ إن جميع الحكام قد ضاعوا ولم يبق لسيدى الملك حاكم واحد . ليت الملك يهتم بأمر الرماة ، وليت الملك سيدى يرسل جنودا من الرماة لأنه لم تعد هناك أرض باقية من أراضى الملك . إن العابيرو ينهبون جميع أراضى الملك فإذا أتى جنود من الرماة هذا العام ، فإن أراضى الملك سيدى ستبقى دون أن تمس ، أما إذا لم يأت الرماة (إلى هنا) فإن أراضى الملك سيدى ستضيع ! .

إلى كاتب الملك سيدى . أنه من « عبدو ـ هبا » خادمك قل قولا فصيحاً للملك سيدى ـ أن جميع أراضى الملك سيدى قد ضاعت ! » .

(٤) رسالة رقم EA - ٢٨٨ :

« إلى الملك سيدى وإلهى : يقول عبدو ـ هبا خادمك .

« عند قدمى الملك سيدى أرتمى سبع مرات وسبع مرات ، أنظر ! إن الملك سيدى وضع اسمه فى المكان الذى تشرق منه الشمس ، وفى المكان الذى تغرب فيه . إنه أمر ملعون ذلك الذى فعلوه ضدى . أنظر ! إننى لست حاكما ولست أيضا ضابطا من ضباط الملك سيدى ، بل ما أنا إلا أحد رعاة أغنام الملك وحامل للجزية الملكية . لم يكن أبى ولم تكن أمى بل ذراع الملك القوى هو الذى وضعنى فى بيت أبى [. ..] أتى إلىّ [....] وسلمته فى يده عشرة أرقاء . وأتى إلىّ « شوتا » نائب الملك وسلمته فى يده واحدا وعشرين فتاة وثمانين أسيراً هدية للملك سيدى . ألا ليت الملك يلتفت إلى أرضه ! إن أرض الملك قد ضاعت كلها ، إنهم أخذوها منى ، وهناك حرب ضدى ممتدة حتى أراضى « سير » وإلى « جلث » . إن جميع الحكام يعيشون فى سلام ولكن هناك حرب ضدى . إنى أصبحت كواحد من العابيرو ، ولا أرى عينى الملك سيدى لأن هناك حربا ضدى . لقد أصبحت مثل سفينة فى وسط البحر ! إن ذراع الملك القوى يهزم أرض النهرين ، وأرض كوش

ولكن العابيرو أصبحوا يستولون الآن على مدن الملك . لم يبق حاكم واحد من حكام الملك سيدى ، فانهم هلكوا جميعا . انظر ! أن «توربازو» قد قتل عند باب مدينة ثارو (سيلا — القنطرة الحالية) ، ومع ذلك يظل الملك هادئا . انظر ! أن الـ «زيمردا» أهل مدينة لاشيش ، وهم من العبيد قد انقلبوا وأصبحوا عابيرو ، أن «يابتيه — هدد» قد قتل فى قلب بوابة مدينة «ثارو» ، ومع ذلك فالملك يظل هادئا ! لماذا لم يدعوهم الملك لمحاسبتهم ؟ . ليت الملك يعنى بأرضه وليت الملك يقرر ، وليت الملك يرسل جنودا رماة إلى أرضه ! (ولكن) إذا لم يأت رماة هذا العام فان جميع أراضى الملك ستضيع . أنهم لن يقولوا للملك سيدى أن أرضه قد ضاعت ، وأن جميع الحكام قد قتلوا ! فاذا لم يأت جنود رماة إلى هنا هذا العام فأرجو أن يرسل الملك رسولا ليأخذنى معه ومعى أخوتى وسنموت قريبا من الملك سيدنا !

إلى كاتب الملك سيدى : من «عبدو - هبا» خادمك . إنى أرتمى عند قدميك ، قل للملك سيدى كلمات فصيحة .... إنى خادمك وإنى ابنك ...

(٥) رسالة رقم EA ٢٩٠

قل للملك سيدى : أن «عبدو - هبا» خادمك . إنى أرتمى عند قدمى الملك سيدى سبع مرات وسبع مرات .

أنظر العمل الذى عمله «ملكيلو» و «شوار داتا» ضد أرض الملك سيدى !. إنهم أرسلوا قوات من الجنود من «جزر» وقوات من «جات» وقوات من «كيلاه» ، واستولوا على أرض «روبوتو» ، وأصبحت أرض الملك من أملاك قوم العابيرو . وحدث أكثر من ذلك أن إحدى مدن أرض أورشليم اسمها «بيت لحم» وهى إحدى مدن الملك انضمت إلى جانب أهل «كيلاه» .

ليتك يا سيدى الملك تصغى إلى «عبدو - هبا» خادمك . ليت (الملك) يرسل رماة يستعيدون الأرض الملكية للملك ! ولكن إذا لم يأت الرماة فإن

أرض الملك ستصبح ملكا لقوم العابيرو . لقد حدث ذلك بأمر «ملكيلو» وبأمر «شوار داتا» . . . فليت ملكى يعنى بأرضه» .

ثانيا — من وثائق بلاد ما بين النهرين :

(١) تجلات - بلسر الأول ١١١٤ — ١٠٧٦ ق.م.

نقش على لوح من الطين كان وديعة أساس فى معبد «أنو - أدد» فى مدينة أشور نشره Luckenbill, A.R.I. §§ 300—303 .

تجلات بلسر ، الملك الشرعى ، ملك الدنيا ، ملك أشور ، ملك أربع أطراف (الأرض) ، البطل الشجاع الذى يعيش بإرشادات ما يوحى به أشور وننورتا من وحى صادق ، الذى هزم جميع أعدائه ، ابن «أشور رشيشى» ملك الدنيا ، ملك أشور ، ابن متكل نوسكو» وهو أيضاً ملك الدنيا ، ملك أشور .

بأمر سيدى أشور استوليت يدى على (البلاد) التى تبدأ من وراء نهر الزاب الأسفل حتى البحر الأعلى الذى فى الغرب . لقد سرت ثلاث مرات لمحاربة ممالك «نايرى» قهرت بلاد «نايرى» الشاسعة من أرض «تومى» حتى «دايايينى» و «حموا» إلى بلاد «پايترى» و «مهى» ، وجمعت ثلاثين ملكا من ملوك بلاد «نايرى» يطأطئون إلى قدمىّ وأخذت منهم الرهائن وأتتنى جزيتهم من الخيل ، وقد تم تدريبها وفرضت عليهم جزية دائمة وهدايا الـ «تمارتو» .

وذهبت إلى لبنان «لاب - نا - ا - نى» ، وقطعت خشب الأرز اللازم لمعبد «أنو» و «أدد» الإلهين العظيمين ، سيدى ، وحملته (إلى أشور) . وواصلت سيرى إلى بلاد «أمورو» واستوليت على كل بلاد «أمورو» وجاءتنى الجزية من بيبلوس (مدينة جبيل : جو - بال) وصيدا (صى - دو - نى) وأوراد (أر - ما - دا) .

وركبت سفن «أرواد» وقطعت البحر من «أرواد» التى تقع على شاطىء البحر إلى مدينة «سمورى» التى فى بلاد أمورو على مسافة ثلاثة أميال مزدوجة

فى الداخل . وقتلت يأسورا[1] وهو الذى يسمونه فرس البحر ، وكان ذلك فى داخل البحر .

وفى طريق العودة (إلى أشور) أخضعت دولة « ختى الكبرى » بأكلها وفرضت على « إيلى - تشوب » ملك « ختى الكبرى » جزية . . . وزنة . . . ومن كتل أخشاب الأرز .

(٢) جزء من نقش على منشور مثمن ، ربما كان وديعة أساس فى القصر الملكى - خاص بحروب تجلات بلسر الأول فى سوريا :

« حاربت شعوب الـ « أحلامو » ثمانية وعشرين مرة ، وحاربت الأراميين ، وعبرت الفرات مرتين فى سنة واحدة ، وهزمتهم ابتداء من مدينة تدمر (تد - مر = بلميرا) التى فى بلاد « أمورو » و « أنت » التى فى بلاد « سوهو » حتى مدينة « رپيقو » التى فى بلاد « كار - دونياش (أى بلاد بابل) ، وأحضرت ما يملكونه كغنائم حرب إلى مدينتى أشور » .

(٣) من عهد سرجون الثانى ٧٢١ — ٧٠٥ ق . م .

من حولياته التى كانت منقوشة على ألواح من الحجر عثر عليها خرزباد (دور - شروكين) مترجمة فى Luckenbill, A.R., II § 55 .

وفى العام الثانى من حكمى جمع « إيلو - بيأدى » من حماة (حمث) جيشاً كبيراً ، وسار به إلى مدينة قرقر (ناسيا) القسم [الذى أقسموه . . .] وثارت ضدى مدن [أرواد وسيبرا] ودمشق وسامرية . . واتفق « هنّو » (أمير غزة) معه (أى فرعون مصر) فأرسل (أى فرعون) إلى نائبه الذى يسمى « سبئى » (أى نائب ملك مصر ؛ وكان لقبه كما ورد فى النصوص الأشورية « توَرتان »)

---

(١) فى الأشورية « نخيرو » وهو نوع من الحيتان ذكرته بعض المعجمات الحديثة تحت اسم يأسور ، وفى اللغة الإنجليزية Narwhal .

ليساعده (أى يساعد هنو) ، أما هو (أى سبثى) فقد قام بجيشه ضدى ليخوض معركة حاسمة . فهزمتهم (أى هنو وسبثى) وفقا للأمر الذى أصدره ربى (الإله) أشور ، وأصبح « سبثى » مثل سيبا (أى راعى - ونجد هنا تلاعبا بالألفاظ) ، سرقوا منه أغنامه ففر وحيدا واختفى . أما « هنو » فقد أسرته بنفسى وأحضرته فى الأغلال إلى مدينتى أشور . وهدمت مدينة « ربهو » (رفح) ، هدمت أسوارها وأحرقتها ، وأخذت ٩٠٣٣ أسيرا من أهلها وممتلكاتهم العديدة » .

(٤) من عهد سنخريب ٧٠٤ - ٦٨١ ق.م.

من نقوش منشور سنخريب المحفوظ فى المعهد الشرقى بشيكاجو - سطور ١٧ - ٢١ ترجمة Luckenbill, A.R., II, § 347. .

« وخاف « لولى » ملك صيدا أن يحاربنى وفر إلى قبرص التى فى وسط البحر ، وأقام فيها ، ولكنه ، حتى وهو فى تلك البلاد ، لاقى ميتة بشعة من « سلاح » سيدى أشور ، (ذلك السلاح) الفخم الذى يلقى الرعب فى النفوس .

ونصبت « إثبعل » على عرشه الملكى وفرضت عليه الجزية المستحقة لى كسيده . وخربت منطقة يهودا (يا - وو - دى) وجعل ملكها المتعجرف الأبى « حزقيا » (خا - زا - ق - ا - ا - ا) يحنى رأسه فى خضوع » .

(٥) من عهد أسرحدون ٦٨٠ — ٦٦٩ ق.م.

حملته ضد العرب - الترجمة منشورة فى ANET (1955), p. 291 .

« (ومن) « أدوماتو » (بلاد الجوف فى شمالى شبه الجزيرة العربية) قلعة العرب التى استولى عليها أبى سنخريب وأخذ منها كغنيمة ما كانت تملكه ، تماثيلها وكذلك « إسكلانو » ملكة العرب وأحضر ذلك (كله) إلى أشور ، جاء « حزييل» ملك العرب ومعه هدايا كثيرة إلى نينوى ، مقر حكمى وقبل قدمى ، ورجانى أن أعيد تماثيله وأن أتولاه برحتى . فأصلحت ما أصابها من تهشيم ، وهى تماثيل

« أتارسماين » ، « داى » ، « نهى » ، « رولدايو » ، « أبسيريللو » ، « أتار قوروما » [1] آلهة العرب وأعدتها إليه بعد أن وضعوا فوقها نقشا يعلن قوة سيدى الإله أشور العليا ، واسمى شخصيا . وجعلت « تربوا » التى نشأت فى قصر أبى ملكة عليهم وأعدتها إلى بلدها الأصلى مع آلهتها . وفرضت عليه جزية إضافية أن يدفع ٦٥ جملا كبيرا وعشر جمال صغيرة (بعير) أكثر مما كان من قبل .

ولما حل القضاء بحزييل أجلست « يثع » (يتأ) ابنه على عرشه وفرضت عليه أن يدفع جزية مكونة من ١٠ مينا من الذهب و ١٠٠٠ حجر من النوع المسمى « بيروتى » وخمسين جملا و ١٠٠ قربة من النوع المسمى « كونزو » ملأى بالمواد العطرية أكثر مما كان يدفعه أبوه .

وحدث بعد ذلك أن « وهب » (وابو) أغرى جميع العرب ليثوروا ضد « يتأ » لأنه أراد أن يكون هو الملك ، ولكنى ، أنا أسرحدون ، ملك أشور وملك أطراف الدنيا الأربع الذى يحب العدل ويكره عدم الاستقامة ، أرسلت جيشى لمساعدة « يتأ » ، وأخضعوا جميع العرب ووضعوا « وهب » والجنود المحيطين به فى القيود وأحضروهم إلىّ ، فوضعت الأغلال فى أعناقهم وربطتهم فى قوائم باب قصرى » .

(٦) من عهد أسرحدون — حملته على مصر .

السطور ٣٧ — ٥٣ من اللوحة المعروفة باسم لوحة سنجرلى — مترجمة *Luckenbill, A.R., II,* § 580.

« ومن مدينة « إشهوبرى » حتى مدينة منف مقره الملكى ، وهى مسيرة خمسة عشر يوما كنت أحارب يوميا ودون انقطاع حروبا دامية جدا ضد

---

[1] هذه هى الصفات الأشورية لأسماء الآلهة وقد حاول بعض العلماء تحديدها ومعرفة أسمائها فى اللغة العربية أو اللغات السامية ، أنظر مقال WEISS ROSMARIN *In JSOR, XVI* (1932), 32.

طهرقا (طرقو) ملك مصر وكوش الملعون من جميع الآلهة العظيمة . وقد أصبته خمس مرات بسنان سهامى وأحدثت فيه جراحا لن يبرأ منهـا ، ثم حاصرت منف مقره الملكى واستوليت عليها بعد نصف يوم بواسطة إحداث الثقوب والكسر فى الأسوار وسلالم الهجوم. خربتها وهدمت أسوارها وأحرقتها ، وحملت زوجته الملكية ونساء قصره و « أوشاناهورو » ولى عهده وأولاده الآخرين ، وما كان يملكه ، وجياده وماشية كبيرة وصغيرها لا يحصرها العـد ، (حملت ذلك كله) كغنيمة إلى أشور . وطردت جميع الكوشيين من مصر ، ولم أترك حتى واحدا منهم ليقدم خضوعه . وفى كل مكان فى مصر عينت ملوكا جددا وحكاما وضباطا ورؤساء الموانى وموظفين ورجال إدارة . ورتبت قرابينا للإله أشـور وسادتى الآلهة العظيمة الأخرى فى جميـع الأوقات . وفرضت عليهم جزية لى كسيدهم الخاضعين له تدفع سنويا دون توقف . وأمرت أيضا بعمل هذه اللوحة وعليها نقوش باسمى وكتبت عليها مديح قوة سيدى أشـــور وأعمالى الشخصية العظيمة عندما كنت أحارب العدو وفقا لأوامر سيدى أشور الصادقة ، وأقمتها لتبقى على مدى الزمان حتى تراها بلاد العدو بأكملها .

ثالثا — من وثائق تاريخ الحيثيين :

بدأت « خيتا » فترة من فترات ازدهارها فى النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، وأرادت التوسع فى سوريا وفلسطين ، ولم تعد هناك مندوحة من حدوث الصدام بين الحيثيين والمصريين . اتخذ ملوك « خيتا » فى البداية سياسة تشجيع أمراء المدن على الثورة لإضعاف الحكم المصرى ، وقد تم لهم شىء كثير مما أرادوه فى أواخر أيام امنحوتب الثالث ، وفى عهد الملك أخناتون الذى انصرف إلى ديانته الجديدة ، ولم يهتم اهتماما جديا بالبلاد التى كانت تحت حكم مصر ، وقد رأينا صورة من ذلك فى رسائل تل العمارنة .

وحدث عند وفاة الملك توت عنخ أمون أن أرملته الشابة وجدت نفسها فى مهب الريح ، ومحاطة بمن يريدون القضاء على بيت أبيها انتقاما لما فعله ضد عبادة

الإله أمون فأرادت أن تستند إلى قوة خارجية فأرسلت رسالة إلى ملك خيتا تطلب منه أن يرسل إليها أحد أبنائه لتتزوجه ، ولكن هذه المؤامرة فشلت ، وقد عرفنا هذه التفاصيل من الوثائق التي عثر عليها في بوغاز كوي في الأناضول[1].

وفي أيام رمسيس الثاني اصطدمت جيوش خيتا ومصر وحدثت معركة قادش المشهورة في العام الخامس من حكمه . والواقع أنه رغم كل ما ادعاه رمسيس الثاني فإن نتيجة هذه الحملة لم تكن لصالحه ، بل انتصرت جيوش خيتا في تلك المعركة ، ولكن رمسيس ثأر لنفسه في حملة العام الثامن واستعاد ما فقدته مصر من نفوذها ، ثم انتهى الأمر بعقد معاهدة صلح بينهما ، ووضع خط حدود يفصل بين أملاك خيتا وأملاك مصر .

وقد اخترت في هذه المجموعة وثيقتين إحداهما عن موضوع زواج الملكة المصرية والثانية عن معركة العام الخامس من حكم رمسيس أي وجهة النظر الحيثية في معركة قادش — وقد اعتمدت في نقلهما إلى العربية على ترجمة ألبرخت جوتز ، Albrecht Goetze التي نشرها في كتاب Pritchard, ANET, (1955), p. 319 وفيها جميع المراجع الهامة .

(١) « شوبيلوليوماس » وأرملة « توت عنخ أمون » : من حوليات شوبيلوليوماس التي جمعها ابنه مورسيليس والتي عثر عليها في خرائب مدينة « بوغازكوي » .

---

(١) ظن بعض العلماء عند العثور على هذا النص أن الملكة « نفرتيتي » هي التي أرسلت تلك الرسالة بعد وفاة زوجها اخناتون ولكن زيادة البحث في هذا الموضوع وضعت حداً لهذا الشك إذ أن اسم الملك المذكور في النص الحيثي كما أن مقارنة عصر كتابة الوثيقة بالتواريخ المعروفة يحتم وضع تاريخ الرسالة عشر سنوات على الأقل بعد موت اخناتون ، ولهذا فإن أرملة توت عنخ أمون الملكة « عنخس آت أمون »

« عند ما كان أبى فى بلاد قرقيش[1] أرسل «لوباكيس» و «تشوب - زالماس» إلى بلاد « أمقا »[2] ، وبدأ فى مهاجمة بلاد أمقا وأحضرا إلى أبى هاربين وماشية وأغنام . وعند ما سمع أهل مصر بالهجوم على بلاد « أمقا » تولاهم الخوف . ونظرا لأن سيدهم « بيحو روريّاس »[3] كان قد مات أيضا فى ذلك الوقت ، وزادت الأمور سوءاً ، فأرسلت الملكة المصرية التى أصبحت أرملة ، رسولا إلى أبى وكتبت إليه ما يلى : مات زوجى وليس لى ابن . ويقول الناس أن لك أبناء كثيرين ، فاذا كنت ترسل إلى أحد أبنائك ، فن الممكن أن يصبح زوجى ، إنى أكره أن آخذ أحد خدمى واجعله زوجى » . وعند ما سمع أبى ذلك أرسل فى طلب العظماء إلى اجتماع (وقال لهم) « لم يحدث قبل أيامى منذ القدم شىء مثل ذلك » . وبعد ذلك أرسل « حتّوزيتس » الأمين بالقصر (وقال له) : « اذهب وأت إلىّ ثانية بأخبار صحيحة ، فربما كانوا يريدون خديعتى . أما عن موضوع احتمال أن يكون هناك أمير فأتنى بالخبر الصحيح » .

وأثناء غياب حتوزيتس فى أرض مصر أخضع أبى مدينة قرقيش . . . وجاءه الرسول المصرى « حنيس » المبجل لأن أبى أوصى حتوزيتس عندما أرسله إلى أرض مصر بما يلى : ربما كان لهم أمير ، وربما يحاولون خداعى ، ولا يريدون حقيقة أحد أبنائى ليتولى الملك » وأجابت الملكة المصرية أبى بخطاب فيه ما يلى : « لماذا تقول أنهم ربما يريدون خديعتى؟ إذا كان لى ابن فهل كنت أكتب إلى بلاد أجنبية فى موضوع يحط من قدرى وقدر بلدى ؟ انك لا تثق فىّ حتى تقول لى مثل هذا الشىء . أن الذى كان زوجى قد مات وليس لى أبناء ، فهل يا ترى آخذ واحدا من خدمى وأجعل منه زوجا لى ؟ انى لم أكتب الى بلاد أخرى بل كتبت اليك فقط . إن الناس يقولون أن لك أبناء كثيرين ، فاعطنى أحد أبنائك فيصبح زوجى وملكا لأرض مصر » .

---

(١) أوكركميس ومكانها الآن جرابلس على نهر الفرات

(٢) وادى العمق بين جبال لبنان وسلسلة جبال لبنان الشرقية (أنتى لبنان)

(٣) فى نسخة أخرى من هذا النص كتبوا إسم هذا الملك نبحوروريّاس وهو اسم « نب — خبرو — رع » الإسم الثانى لتوت عنخ أمون .

ونظراً لأن أبي كان كريماً فقد أجاب رغبات السيدة وقرر إرسال الإبن[1]».

(٢) — نقش ختّوسيليس عن حروب أبيه مع مصر :

وهو من النصوص التي عثر عليها في بوغازكوي ، وتوجد منه أكثر من نسخة واحدة ، وقد نشره أكثر من عالم واحد ، وأحدث ترجمة له هي ترجمة «جوتزه» التي أشرت إليها ، كما تناوله أيضاً بالتحليل والتعليق عالم الآثار المصرية المسار إيدل ، ويرجع تاريخ هذا النص إلى أيام الملك الحيثي « ختوسيليس » يتحدث فيه عن بعض الحوادث التي جرت في عهد الملك « مواتلليس » :

« في الوقت الذي كان « مواتلليس » يحارب ملك أرض مصر[2] ، وبلاد أمورو ، وعندما هزم إذ ذاك ملك أرض مصر وبلاد أمــــورو عاد إلى بلاد «أبا» [3] . وعندما هزم أخي مواتلليس بلاد « أبا » عاد إلى بلاد « ختي » ولكنه تركني في بلاد « أبا » .

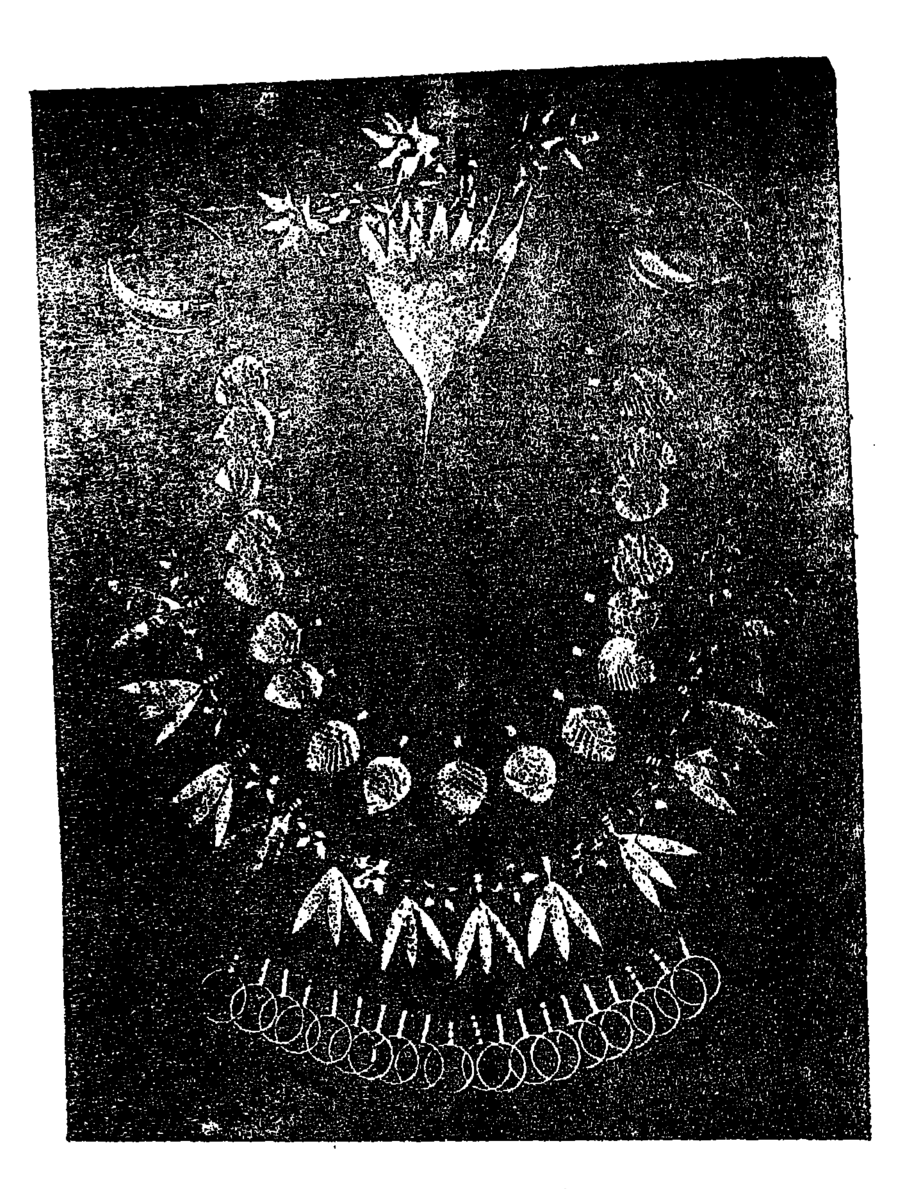
---

(١) نعرف من النص المعروف باسم « ابتهالات مورسيليس لاتقــاء الطاعون » ANET, *ibid.* p. 395 أن المصريين قتلوا هذا الأبن وأن الحرب نشأت بسبب ذلك بين القوات الحيثية والقوات المصرية في سوريا .

(٢) ملك مصر الذي كان معاصراً لمواتلليس وكانت بينهما المعارك هو الملك رمسيس الثاني وهذه الحرب هي التي كانت في العام الخامس من حكم رمسيس الثاني وجرت المعركة عنــد مدينة قادش على مقربة من حمص في سوريا .

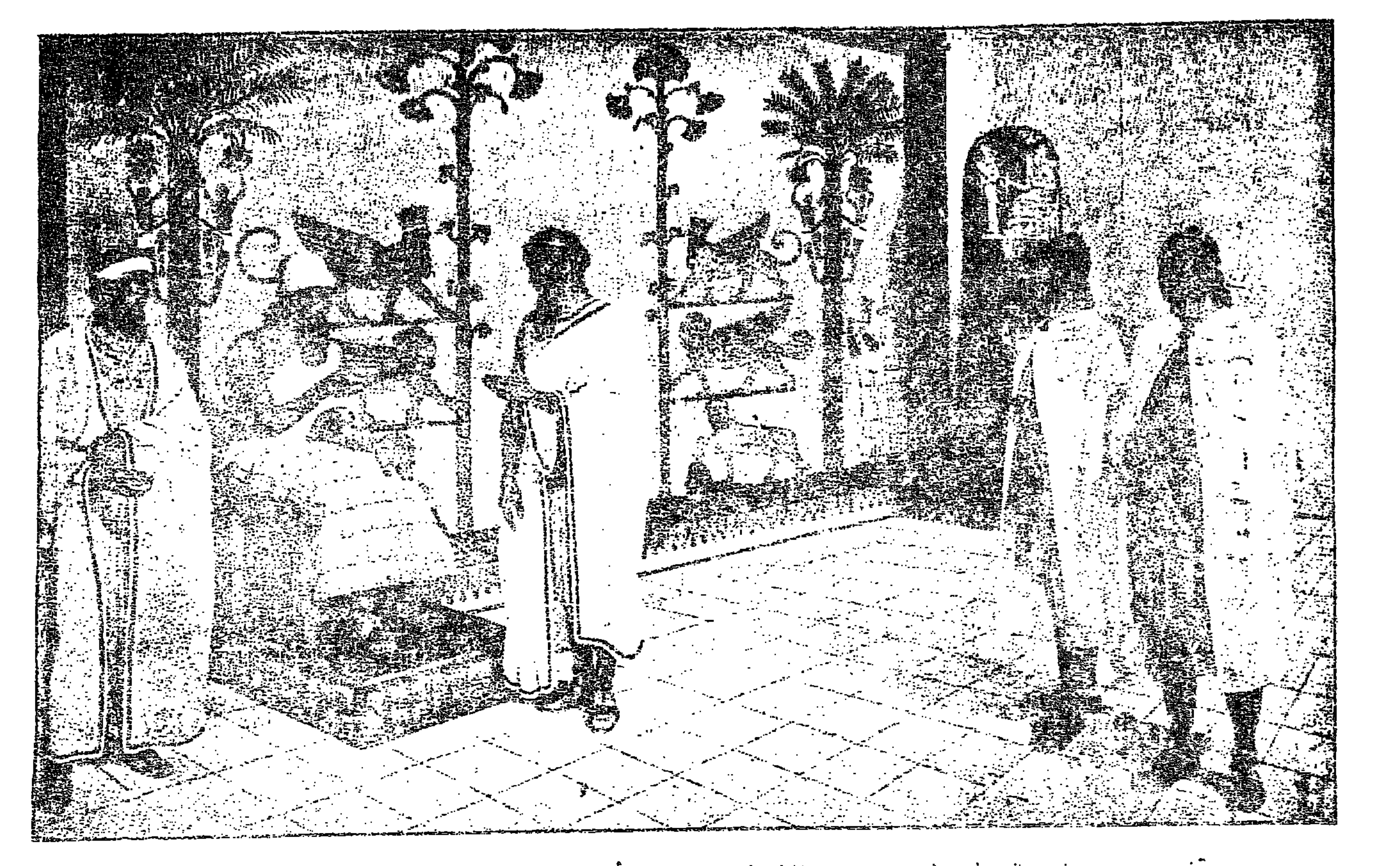
(٣) بلاد « أبا » هي المنطقة التي تقع فيها مدينة دمشق ، وفي هــذا النص دلالة صريحة على أن ارتداد رمسيس الثاني لم يكن إلا بسبب خسرانه للمعركة وإن جــزءاً كبيراً من بلاد أمورو ومنطقة دمشق أصبحت للحيثيين .

لوحة رقم ١



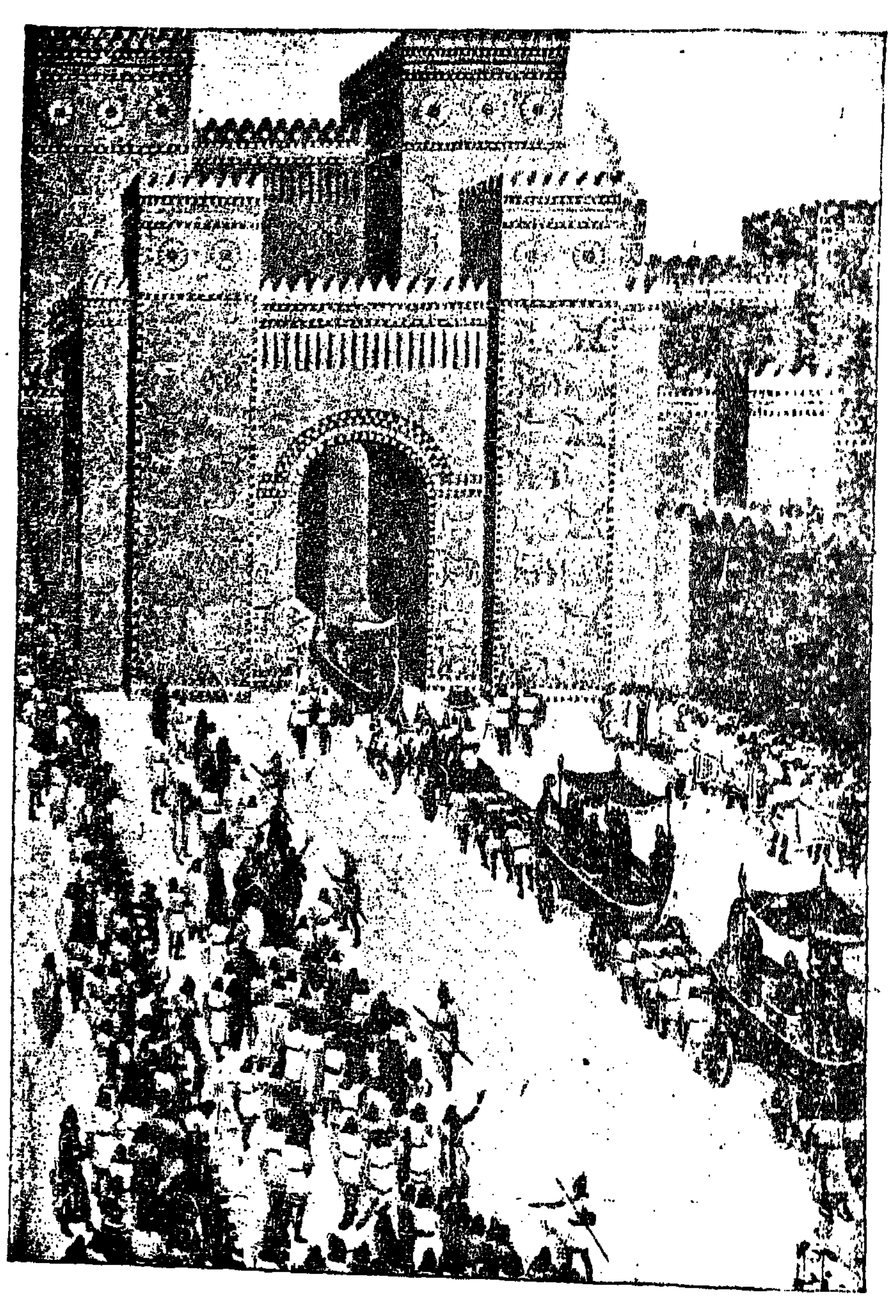
بعض الحلى التى عثر عليها فى حفائر مدينة أور فى مقبرة للملكة شوباد من أسرة أور الثالثة
(٢١٣٤ ـ ٢٠١٦) قبل الميلاد

لوحة رقم ٢



رسم تخطيطي يمثل حمورابي ملك بابل ([illegible] قبل الميلاد) في قصره — نرى في يمين الصورة اللوحة الشهيرة التي نقش عليها قانونه
(نقلا عن المجلة الجغرافية الأهلية — واشنطون)

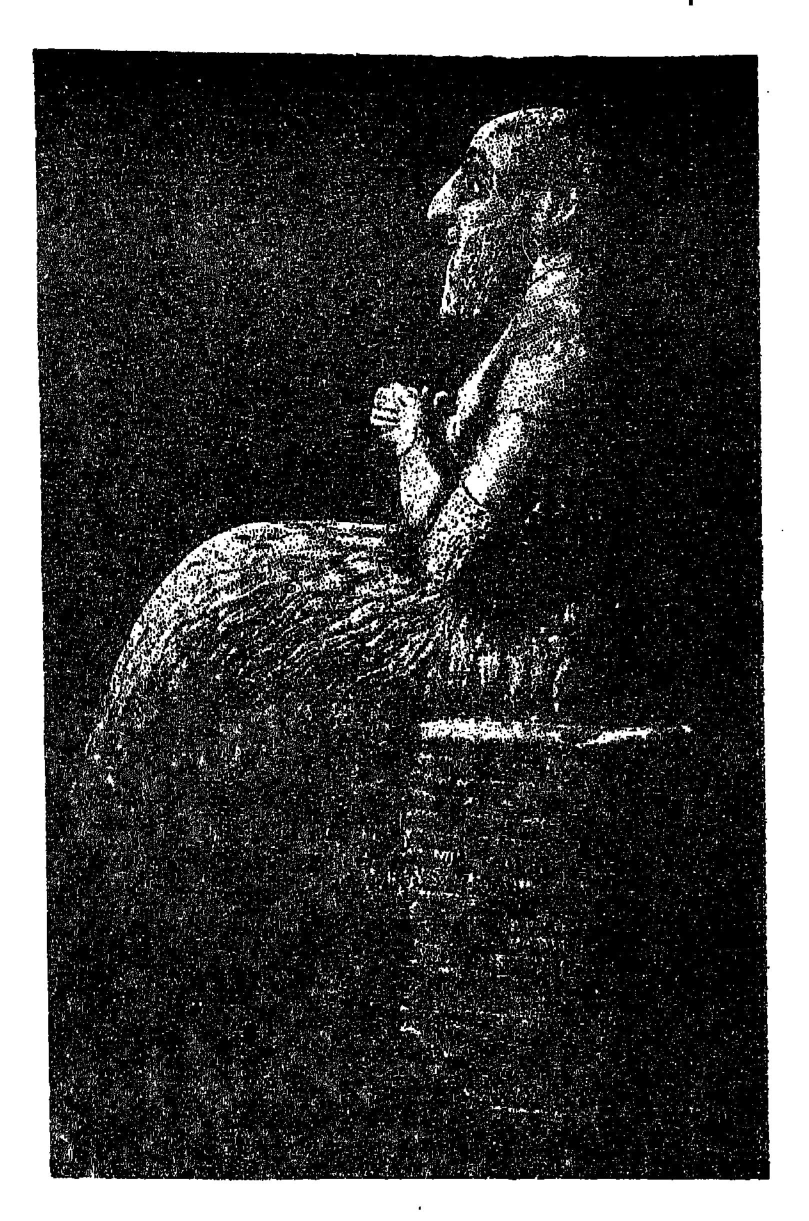
لوحة رقم ٣



رسم تخيلى لبوابة عشتر فى مدينة بابل القديمة كما كانت فى أيام الملك نبوختنصر الثانى فى القرن السادس قبل الميلاد فى أحد أيام الاحتفالات الدينية

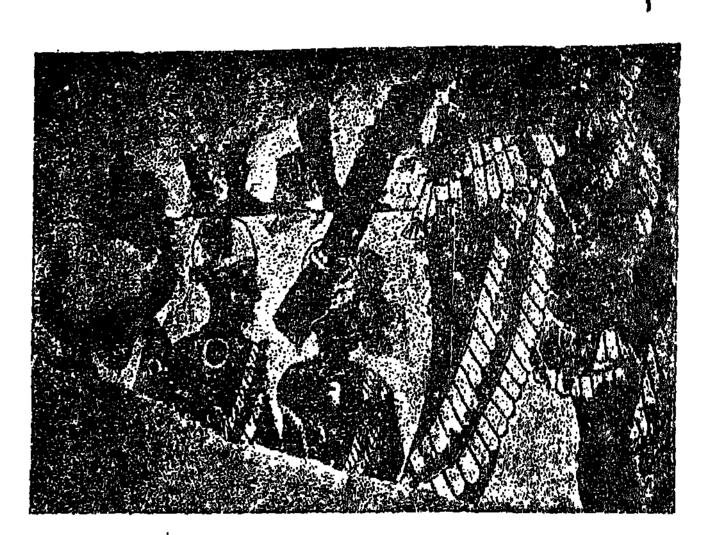
(نقلا عن المجلة الجغرافية الأهلية – واشنطون)

لوحة رقم ٤



تمثال إبيا - إبل أحد كهنة عشتر ، وقد عثر عليه في مدينة ماري
(تل الحريري في سوريا) - تاريخه حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م.

لوحة رقم ٥





من الرسوم الملونة فى قصر الملك زمرى — ليم فى مدينة مارى
وقد كان هذا الملك معاصرا لحورابى أى أنه عاش فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد

لوحة رقم ٦



بعض زخارف الجدران فى قصر مدينة مارى (تل الحريرى)
ونرى فيه الملك وهو يتلقى شارات الملك ــ القرن الثامن عشر قبل الميلاد

لوحة رقم ٧



إحدى الآلهات التي عثر عليها في مدينة ماري في خرائب القصر ، وكانت المياه تنزل من الإناء الذي تحمله — التمثال بالحجم الطبيعي ومصنوع من الحجر الجيري ويرجع تاريخه إلى حوالي عام ١٧٣٠ قبل الميلاد

لوحة رقم ٨



الإله بعل، إله العواصف والصواعق يقف فوق قمم الجبال ويمسك فى يده اليمنى بدبوس القتال وفى يده اليسرى بالحربة التى ينتهى أعلاه بما يمثل الصاعقة أو ربما ما يمثل النبات ـ عثر على هذه اللوحة فى رأس الشمرة (أوجاريت) ويرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد على الأرجح.

لوحة رقم ٩



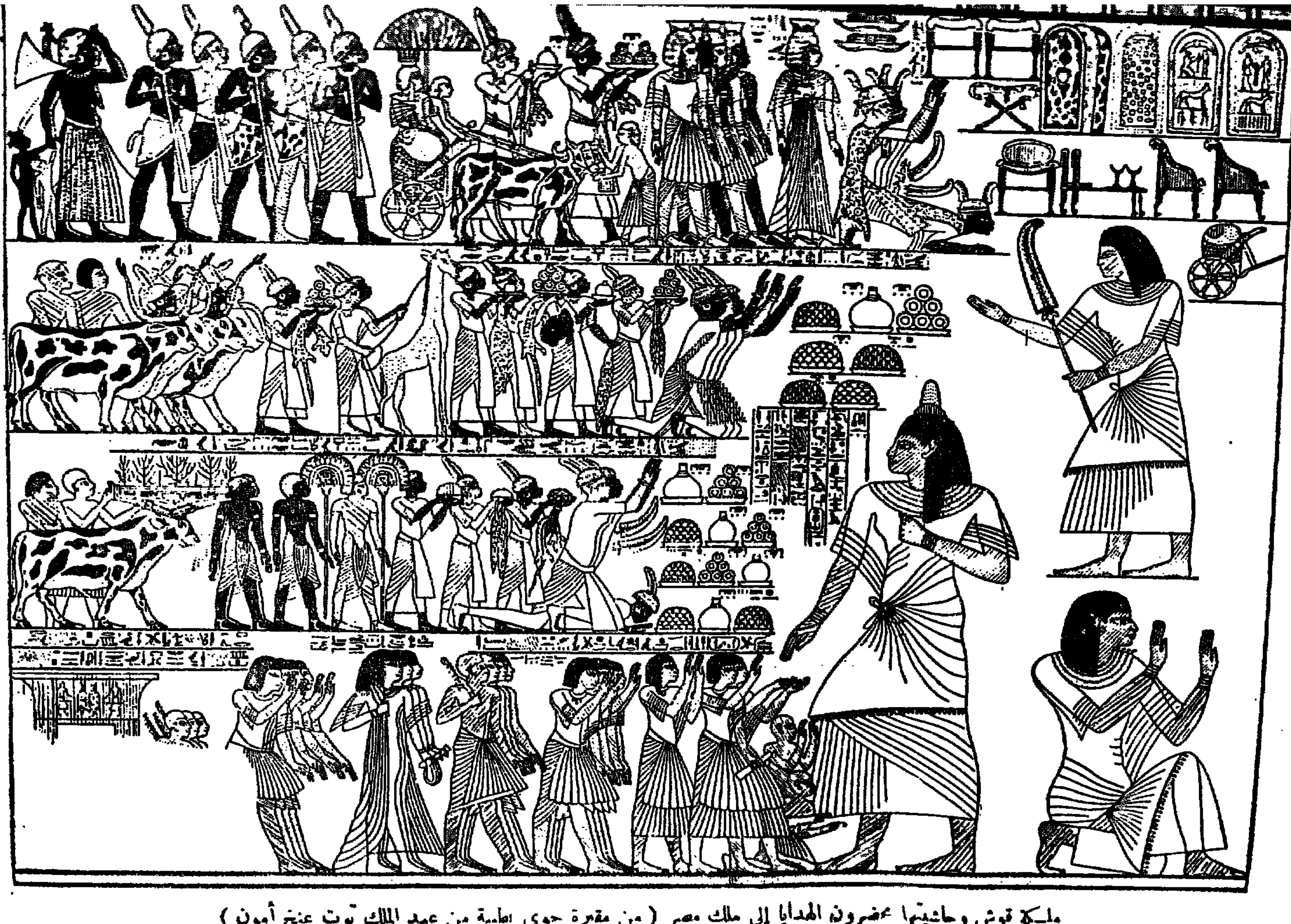
إحدى الآلهات التى عثر عليها فى مينة البيضا (على الشاطىء شمال اللاذقية)
وتمثل مالكة الحيوانات المتوحشة ـ غطاء صندوق من العاج ونرى عليه
هذه الإلهة وهى تمسك فى يديها ببعض النباتات وعلى كل جانب منها
عنز يثب ليأكل من هذه النباتات ـ الألف الثانى قبل الميلاد

لوحة رقم ١٠



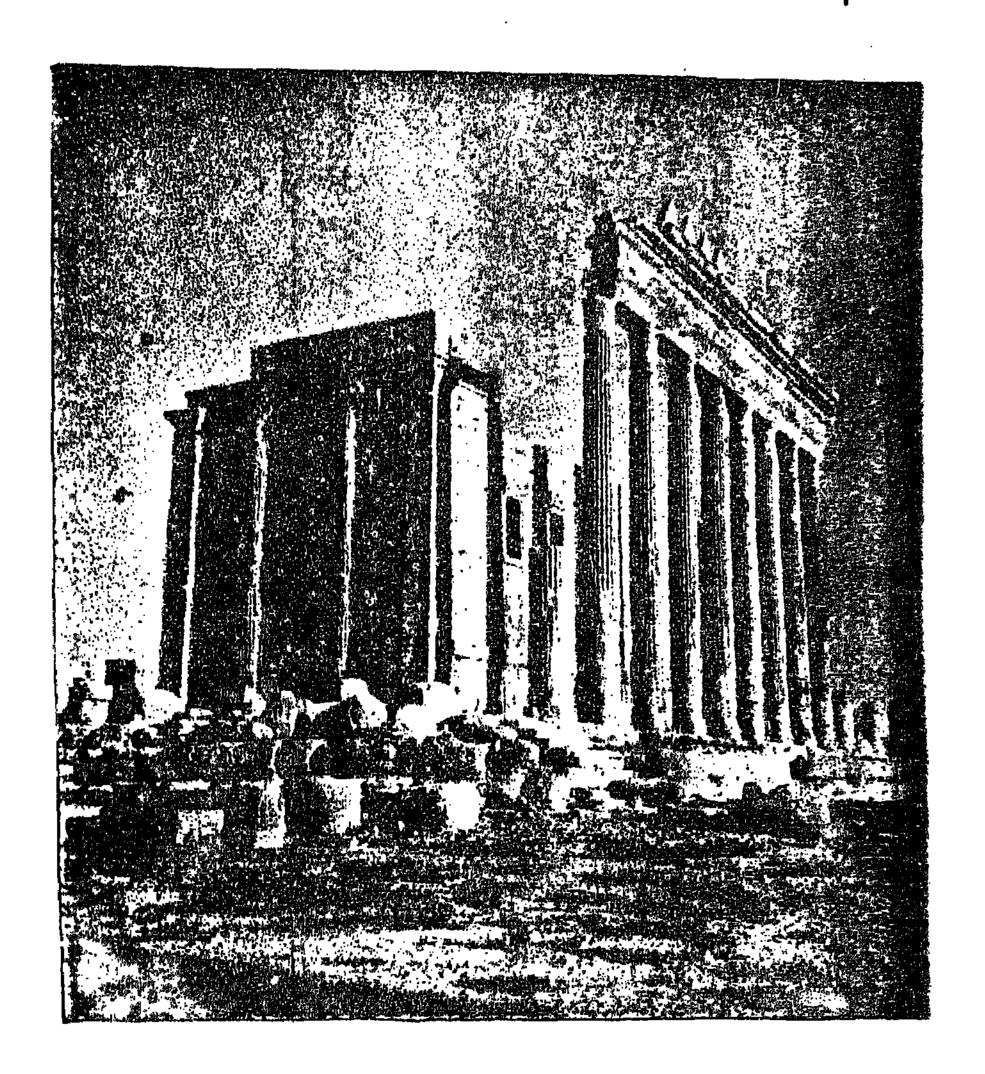
بعض الزعماء السوريين وقد أتوا بهداياهم إلى مصر وبخاصة الأوانى الذهبية الجميلة الصنع ، وترى أحد الزعماء وقد اصطحب معه ابنته الصغيرة - من مقبرة رقم ٦٣ فى طيبة ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد

لوحة رقم ١١



ملكة قوش وحاشيتها يحضرون الهدايا إلى ملك مصر (من مقبرة حوى إطلية من عهد الملك توت عنخ أمون)

لوحة رقم ١٢



معبد « بعل » فى تدمر (بالميرا) فى سوريا ـ القرن الأول الميلادى

لوحة رقم ١٣



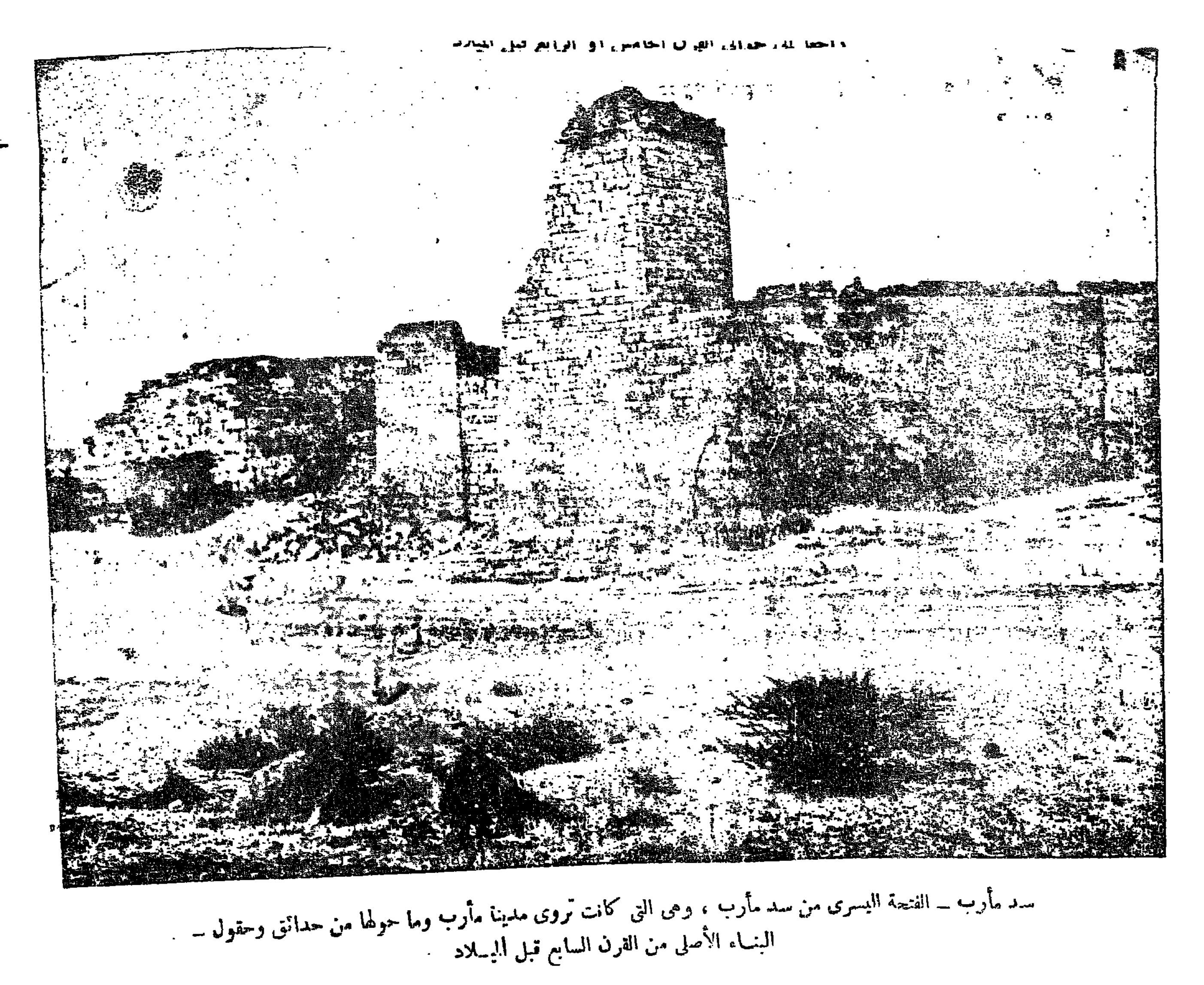
أحد معابد معين فى بلاد الجوف . ومازالت النقوش تزين واجهته ، ويرجع تاريخه إلى أيام ازدهار الحضارة المعينية وهو مشيد بأحجار الجرانيت

لوحة رقم ١٤



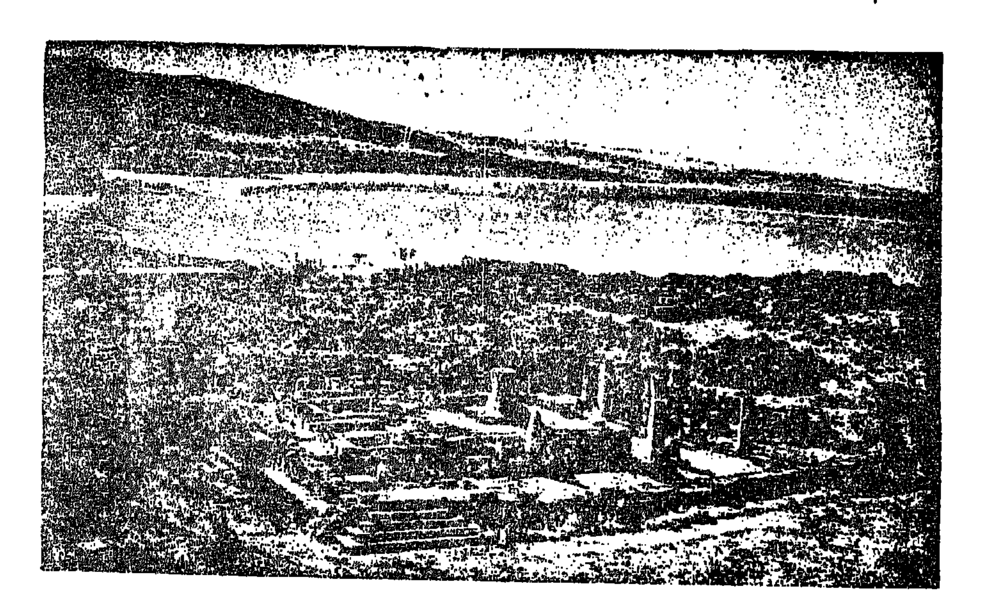
معبد العايد فى مدينة مأرب – ما زالت هذه الأعمدة الجرانيتية فى مكانها وحولها بقايا المعبد القديم – ربما كان تاريخ هذا المعبد

لوحة رقم ١٥

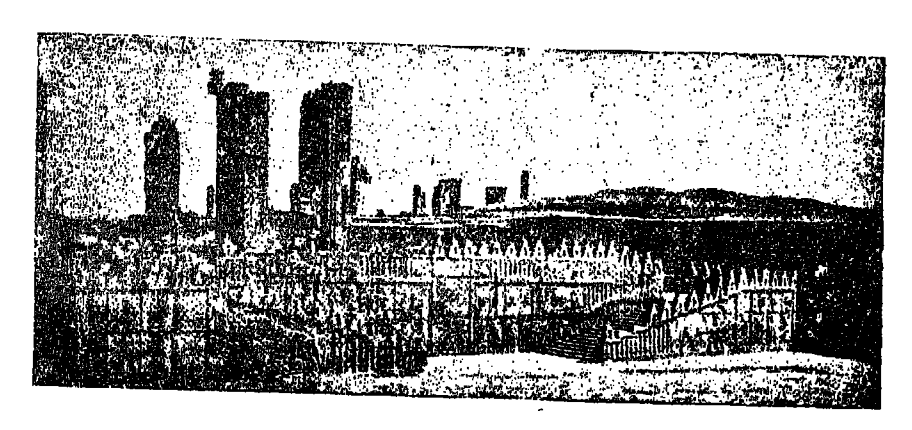


سد مأرب ـ الفتحة اليسرى من سد مأرب ، وهى التى كانت تروى مدينا مأرب وما حولها من حدائق وحقول ـ البنـاء الأصلى من القرن السابع قبل الميـلاد .

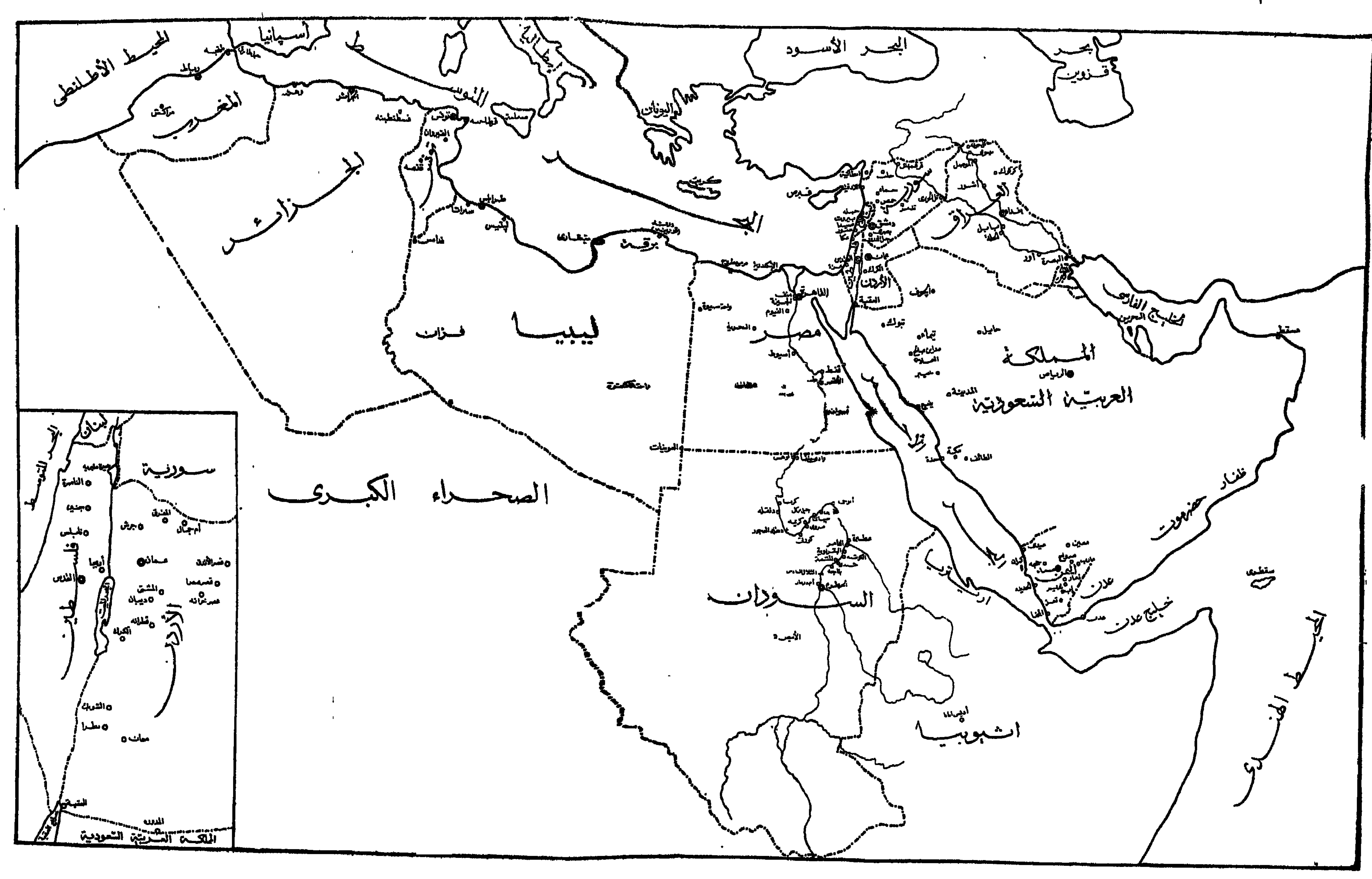
لوحة رقم ١٦



أ ـ منظر عام لجزء من حفائر جبيلة (جبيل ـ بيبلوس) في لبنان
ونرى فيه بقايا بعض المعابد القديمة



ب ـ السلم المؤدى إلى الجزء العلوى من القصر الكبير في مدينة تخت جامشيد
(برزپوليس في إيران) ـ من عهد دارا الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق. م.)



الشرق القديم



فهرس أبجدى

ا ـ أعلام

(ب) أماكن

(أ)

(ب)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

الأشكال والرسوم

رقم الايـــــداع: ١٩٨٠ / ٥٠١٧





